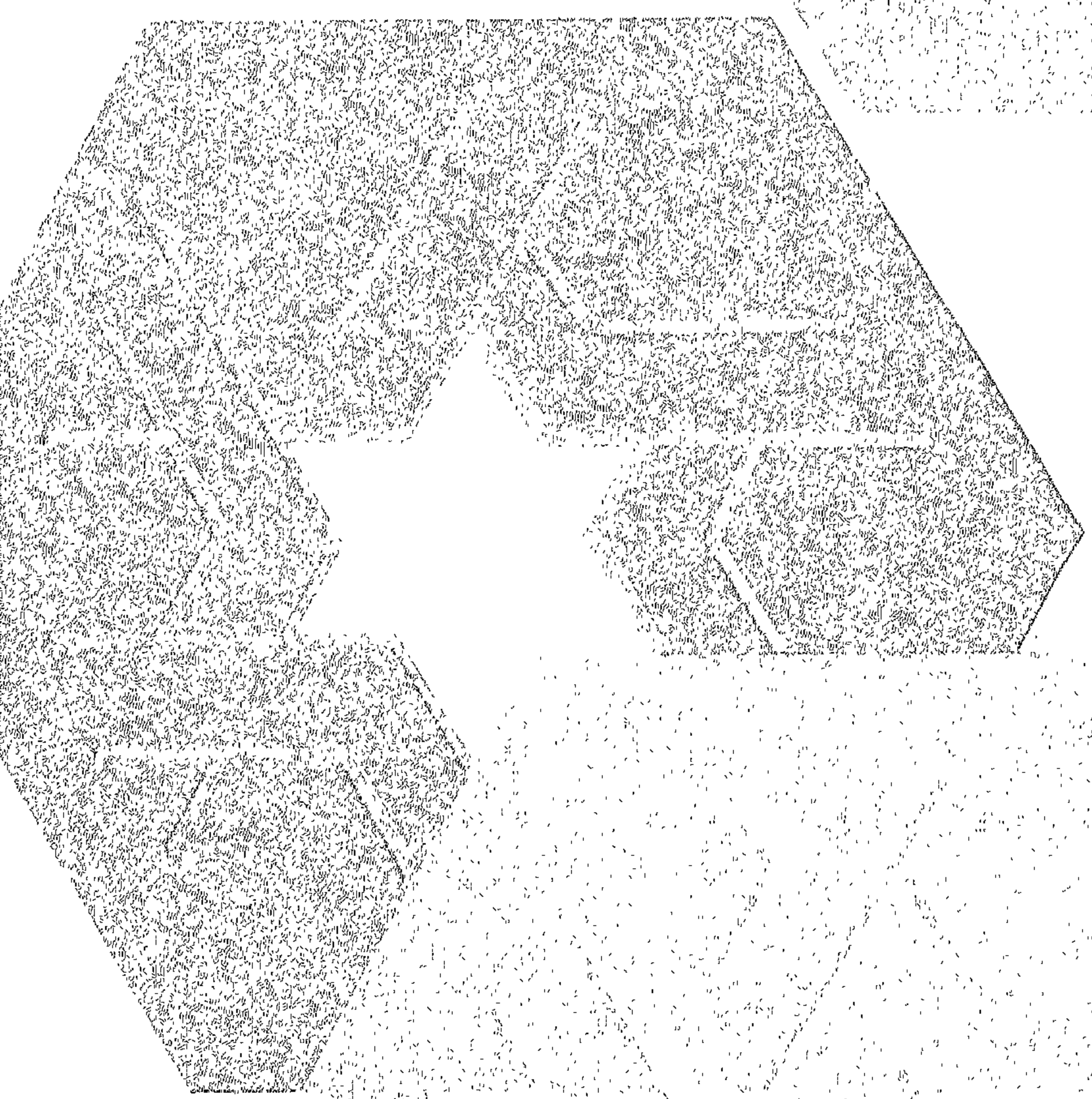
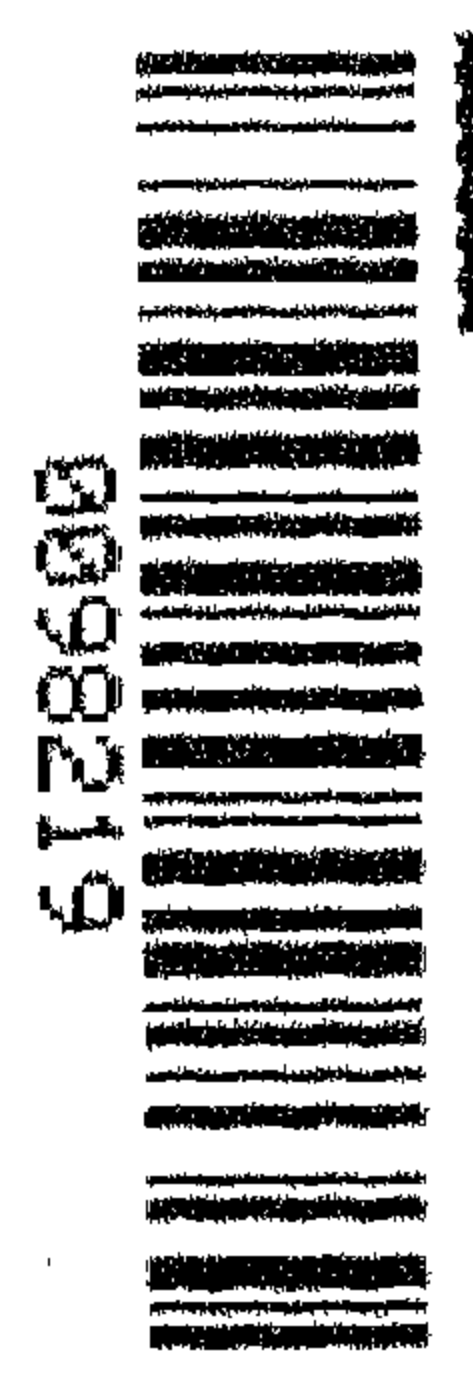


كتاب
الدينية



أولاً من كتاب



Bibliotheca Alexandrina

الاسلام والصِّراعات الدينية

حافظ عثمان

مقدمة

شغلت الصراعات الدينية ، أو الصراعات التي اتخذت الشكل الديني ستارا لأهدافها ، شغلت آلاف السنين من عمر البشرية ، مما أضر/مسيرتها الحضارية وسبب الكثير من الآلام في الأنفس والكثير من تدمير مصادر اشباع حاجيات الإنسان .

وبالنظر إلى أن هذه الصراعات لا زالت تمثل العقبة الرئيسية التي تحول دون تقدم ورفاهية غالبية الشعوب الفقيرة بصفة عامة والشعوب الإسلامية بصفة خاصة ، فقد تم وضع هذا الكتاب على أمل أن تجد هذه الشعوب في وقائع وأحداثه ما يجعلها تتخلص من صراعاتها الدينية وتكثف جهودها وطاقاتها على طريق تعمير الأرض واستثمار ثرواتها بالعلم وبالمال وبالجهد ، لتشبع حاجات ابنائها وتحقيق الأمن والسلام بينهم ثم لتشارك ، على قدم المساواة ، في بناء صرح الحضارة العالمية وبدون أي صراعات دينية .

ولأجل الوصول إلى هذا الهدف ، تم عرض بعض النماذج عن الصراعات الدينية التي نشبت بين اتباع العقائد الفطرية الأولى ، وبين اتباع الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام ، ثم بين اتباع الديانات السماوية بعضها وبعض ، ثم بين اتباع كل ديانة على حدة .

وهذا ما تناولته الابواب الثلاثة الأولى من الكتاب .
وسوف يتبين للمقارئ ان الصراعات الدينية بين اتباع الديانة الواحدة كانت
أشد وأشرس من الصراعات بين اتباع الديانات والعقائد الدينية المختلفة .

وفى كل صور الصراعات الدينية ، وأيا كان أطرافها كان الدين مؤيداً دائماً
بقوة الحكم والسلطة ، كما كان الحاكم ، خاصة فى أوروبا المسيحية يؤمن تماماً أن
قوة حكمه تنبع من اعتناق شعبه لعقيدة أو لمذهب دينى معين ، ومن هنا كان
فرض الدين أو المذهب بقوة الحكم والسلطة هو الأمر الذى حقق المزيد من الفرقة
تبعاً لتعدد المذاهب الدينية وعلى عكس أهداف الحكم والسلطة .

— ولقد تنبّهت أوروبا المسيحية إلى مستنقع الصراعات الدينية الذى حال
بينها وبين تكثيف الفكر والجهد والمال من أجل إشباع حاجات الإنسان ،
فخرجت من هذا المستنقع تاركة أمور الدين للحريات الشخصية للإنسان ودون
تكرار المحاولات الفاشلة بفرض مذاهب دينية معينة بقوة السلطة .

— وبالحريات الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية وغيرها ، تمكنت
أوروبا من تحقيق وحدة شعوبها على طريق التعمير وكفاية حاجات الناس .

ويتناول الباب الرابع ثمرة الصراعات الإسلامية المسيحية فى العصر الحديث
والتي بدأت فى القرن السابع الميلادى بانتصار المسلمين على الامبراطورية
البيزنطية المسيحية .

ثم يتعرض الكتاب لرد الفعل لدى العالم الإسلامى فى مواجهة إنكساره المهين
أمام الحضارة الغربية المسيحية سواء بالنسبة للجامعة الإسلامية أو محاولات نشر
العلم والثقافة بين شعوبه أو عن طريق الصراعات الدموية ضد الأجهزة الحاكمة
بهدف حلول نظم الحكم الإسلامى محلها .

— وتستمر الصراعات (الشرسة) داخل العالم الإسلامى بين المسلمين
أنفسهم ، سواء لاختلاف المذهب ، أو بسبب الخلاف مع الأجهزة الحاكمة — ثم
بين المسلمين وغيرهم من إتباع الديانات الأخرى بينما يسعد الغرب المسيحى
الظافر بهذه الصراعات ، ويعمل على مضاعفة عواملها ، ليحافظ على إنتصاره

وعلى سيطرته على مقدرات العالم الإسلامى ، هذا بينما المسلمون يفرقون حتى إذ
انهم فى مستنقع هذه الصراعات، لاهين عن عوامل نهضتهم ورفاهية شعوبهم
التمثلة فى وحدتهم على طريق التعمير وكفاية حاجات الناس وامثالاً لامر الحق
تبارك وتعالى ...

والامل ، كل الامل ، ان يكون فى هذا الجهد شىء ينفع الناس ...

والله ولى التوفيق

القاهرة - المطرية ١٩٩٢

حافظ عثمان

الباب الأول
صراع أتباع العقائد الأولى
مع أتباع الأديان السماوية

الفصل الأول

صراعات اتباع العقائد الأولى مع اليهود

كان أول ظهور للعبرانيين في ميدان التاريخ خطابات (تل العمارنة) في مصر ،
والتي يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل أى في عهد يسبق أى
أدب عبرانى وصل إلينا .

ولم يحدثنا التاريخ عن موسى (عليه السلام) . مؤسس اليهودية ، وعن
(سيدنا) إبراهيم(عليه السلام)الجد الأكبر للسامية ، وذلك أن التاريخ لا يهتم عادة
الـا بسرد اخبار الملوك والقادة .

وعلى اية حال فان (سيدنا) موسى ، ربيب القصر الملكى فى مصر ، هو القائد
الأول لبني اسرائيل فى مواجهة القوى التى لا تدين بديانتهم .

وكان أول احتكاك بين بني اسرائيل (والعقائد المصرية الأولى) هو الذى جاء فى
الكتب الدينية المقدسة .

ويلاحظ فى موقف كل من ملك مصر وموسى(عليه السلام)أنه كان صراعاً بين
الإله المعبود وسليل الآله (ملك مصر) ومع من ينكر هذه الألوهية على وجه
الإطلاق ولا يعترف الا باله أحد غير بشرى وغير مرئى .

وقد جن ملك مصر (الإله) من منكر الوهيته ، خاصة أن في هذا الإنكار ضياع هيبة وسلطاته والنظام القائم في مصر من أساسه والذي يرجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل ظهور موسى .

وواضح ، من السرد الديني ، أن موسى وشيعته لم يسلكوا مسلك رواد المسيحية والإسلام في تحمل العقوبات من قيادتهم الوثنية ، سواء بالقتل أو بالسجن . أو بالاسترقاق في بلادهم .

إن موسى (عليه السلام) وشيعته اتجهوا إلى الهروب بعقيدتهم إلى خارج مصر مما يدل على أنهم لم يكونوا من ابنائها ، ولكن ملك مصر (الإله) لم يرض بذلك وكادت تقع الحرب بين الفريقين إلا أن موسى تمكن من الهرب بشيعته إلى صحراء سيناء وفي خلال هذا الهروب ارتد بعض الاسرائيليين عن ديانتهم ، وتشكك آخرون فيها وقضوا أربعين عاما تائهين في شبه جزيرة سيناء ثم هاجموا الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين .

وكان الكنعانيون يسكنون فلسطين ، وكانوا قد اجتازوا مرحلة من التمدن تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد بعد هروبهم من مصر بقيادة موسى^(١)

ولما تغلب العبرانيون على الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين ، بلدوا في انشاء أول دولة لهم وعلى حطام الحضارة الكنعانية التي كانت سائدة في فلسطين . وقتلوا من الكنعانيين كثيرا

يقول ول ديورانت (إن هزيمة البدو الرحل (العبرانيين) للكنعانيين ليست الا مثالا آخر لانقضاخ جموع جياح على جماعة مستقرة آمنة . وقتل الاسرائيليون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى انهارا ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس (فريضة الشريعة التي امر بها الرب موسى) و (زكاة الرب) . ولما استولوا على مدينتين من المدن قتلوا من اهلها ١٢,٠٠٠ رجل ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل

والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة في تعداد القتلى الا في تاريخ الاشوريين ، ويقال لنا (إن الأرض استراحت من الحروب احيانا) فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والناة ، اما يشوع فلم يكن الا جنديا فظا ، وقد حكم موسى حكما سلميا لم تسفك فيه دماء ، وذلك بما كان يقضى به من احاديث جرت بينه وبين الإله ، اما يشوع فقد اقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني ، وهو أن اكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا . وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة) .

ويقول برستد : —

(ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الارث الخلقى العظيم (دين التوراه) قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو في الركن الجنوب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، فان هذا الشعب لم يقيم له نظام قومى خاص به الا منذ العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . وعلى أثر انحلال هذه الدولة الصغيرة إلى الجزئين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء ، فاستمرت احدهما مدة قرنين تقريبا ، واما الجزء الآخر فانه بعد أن مكث قرناً وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها في حياة قلقه شبه مستقلة ، تداولته فيها ايدي ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م بزمان قليل وبذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القوية المستقلة ، أو حياة جزء منهم — التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م . قد مكثت حوالى اربعة قرون وربع قرن وختمت في باكورة القرن السادس ق . م . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القوية قد وقع باكملة تقريبا في النصف الأول من الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى ، وفي تلك الفترة كان تقدم الثقافة في مصر وفي بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من اخبار التاريخ) .

ولقد تعرض اليهود ، بعد اقتناصهم فلسطين من الكنعانيين ، لحروب خارجيه ، خاصة من بابل . . . وأسر الآلاف . . . وسُبي الآلاف . . . وتشتت الكثيرون منهم في بلاد العالم وهم على إصرارهم على ديانة التوحيد ومن ثم كان لا بد من تكرار الصراعات بينهم وبين من لا يعترفون بالإله الأحد .

مرحلة خضوع فلسطين واليهود لمصر والشام في العصر الإغريقي .

أرجو أن لا يغيب عن ذهن القارئ أنه وراء غاية الصراعات الدينية ، اسباب سياسية واسباب اقتصادية واسباب شعبية (قومية) واسباب اجتماعية

وكان من أهم الدوافع التي حركت الصراعات الدينية عند القيادات السياسية (الاغريقية) هو رغبتها الملحة في توحيد شعوبها في عقيدة دينية واحدة ، لتسهيل عملية الحكم عن طريق وحدة النظام الديني والديوى المطلوب خضوع الجميع لأحكامه

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ ق . م . حين هزم أنيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية ، ولم ير خلفه في بلاد اليهود الا أنها مصدر للايراد ، . . . فامر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، . . . ثم حاول هذا الملك أن يفرض اله اليونان (زيوس) على اله اليهود هادفاً أن يكون اتباعه على شريعة دينية واحدة . . . ولما ثار اليهود على هذه الاوضاع ذبح الافا من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر مذبحه الذهبي وآنيته وكنوزه . . . وأمر أن يعود الهيكل كما كان ضريحاً مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يوناني فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرايين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالاعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودي في جميع انحاء اليهود — والزم الاهالى باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف ذلك بالاعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يسجن أو يقتل ، وامر أن يحرق هذا الكتاب إن وجد . وأشعلت النار في اورشليم نفسها ، وهدمت اسوارها وبيع سكانها اليهود في اسواق الرقيق ، وجى بالأجانب ليقيموا في مواضعها .

وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف اوى إليها بعض اليهود الثابتين على دينهم فامروهم بالخروج ، فلما عصوا أمر الجنود وابوا كذلك أن يزيلوا ما عساه أن

يكون فى مداخل الكهوف من حجارة لأن اليوم كان يوم السبت ، اعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان . وفى المدن قبض على النساء اللاتي ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين من فوق الأسوار .

وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتتلأ بها الكتب .

وكان هناك رجل ثبت على مبدئة اسمه متاثياس هو واولاده الخمسة — ولما أمر عامل الملك أهل مدين بأن يجحدوا الشريعة ويقربوا لزيوس . جاء متاثياس الشيخ وابناؤه الخمسة وقال :

(لو أن جميع سكان المملكة اطاعوا امركم بالمروق من دين ابائهم لبقيت أنا واولادى الخمسة متمسكين بدين آبائنا الأولين) . ولما أن اقترب أحد اليهود من المذبح ليقدّم القرбан الوثني المطلوب ذبحه متاثياس بيده ودبح أيضا مندوب الملك ، ثم نادى الشعب قائلا : من كان يغلو على الشعرية واراد أن يؤيد العهد فليتبعدنى ، فسار وراءه هر وابنائهم كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل افرايم ، حيث انضمت اليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من المتقين

وحدثت حروب بين هؤلاء (المتقين) وبين الملك . . . انتهت بانتصار وبمولد دولة يهودية جديدة .

وكان ملوك مصر من البطالة الأوائل قد سمحوا لليهود المقيمين بمصر بمزاولة انشطتهم التجارية والمالية .

غير أنه لم تلبث أن ظهرت الفوارق بينهم وبين بقية الشعب المصرى ، ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافا إليها المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر هذا العصر . ذلك أن المصريين واليونانيين قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافى عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولما أن اخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود

هم الذين ينقلون هذه البضاعة في اساطيلهم . وادرك اليونان عجزهم عن صبغ اليهود بالصبغة الاغريقية فأوجسوا منهم خيفة على مستقبلهم ، وأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم الزواج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، وأن معظم اليهود لا يختلطون بغيرهم ، كثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية . . واشتدت الأحقاد بين الجانبين حتى أدت في القرن الأول الميلادي إلى أعمال العنف المخربة^(٥)

مرحلة خضوع فلسطين واليهود للامبراطورية الرومانية .

أصبح اليهود من عهد قيصر عنصرا قويا من عناصر السكان في العاصمة وقد وفد منهم إلى روما عدد قليل من عهد ماضٍ يرجع إلى عام ١٤٠ ق . م . وجيء بعدد كبير منهم إلى رومة اسرى بعد الحروب التي شبت في عام ٦٣ ق . م ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، ولم يحل عام ٥١ ق . م . حتى كان عددهم في الجمعية التشريعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة . ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهوري كان معاديا لليهود وان الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم .

وقد ظلوا على الدوام يؤيدون قيصر ، وبسط عليهم في نظير ذلك حمايته ورعايته ، وحذا اغسطس حذوه في هذه الخطة . اما تيبيريوس فكان معاديا لكل العقائد الأجنبية ، ولذلك جند اربعة آلاف منهم ليحاربوا في سردينيا حربا لا تكاد تختلف في شيء عن الانتحار ، ثم اخراج البقية منهم من رومة (١٩ م) . ثم ادرك بعد اثني عشر عاما من ذلك الوقت أن سجانوس قد اضله في هذا الأمر ، فالغى مرسوم نفهم ، وامر الا يضار اليهود في ممارسة طقوس دينهم وفي اتباع عاداتهم . وبسط عليهم كاليجولا حمايته في رومة ، ولكنه قاومهم خارجها ، ونفى كلوديوس بعضهم على اثر ما احدثوا في المدينة من شغب ، ولكنه اصدر في عام ٤٢ م مرسوما عاما يؤيد فيه حقهم ايا كان مقامهم في انحاء الامبراطورية في أن يعيشوا حسب قوانينهم . وفي عام ٤٤ نفى دومنيان اليهود من رومة إلى وادي اجبريا وفي عام ٤٦ اعادهم وسمح لهم أن يستمتعوا بالطمأنينة جيلا كاملا .

وكانت نزعة اليهود الانفصالية ، واحتقارهم للشرك وعادة الأوثان ، وتزمتهم الخلقى ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغريبة ، وفقدهم وما نتج عنه من قذارة ، كان كل هذا سببا في كراهية العناصر الأخرى لهم ، وهى الكراهية المألوفة في تاريخهم الطويل ، وقد ندد جوفال بكثرة تناسلهم ، كما ندد ناستس بوحدانيتهم الدينية ، وندد غيرهم بشغفهم بالثوم . وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية . ومثلت في موكب النصر الذى استقبل به ناستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة ، كما مثلت رموز عن هذا النوع على ما أقيم له من اقواس النصر ، واضاف فسبا زيان إلى اذاهم السخرية منهم وأمر بأن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل ، الذى كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل ، لتعمير رومة .

ونعمت فلسطين المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تميرىوس (الإمبراطور الرومانى) ولما جلس كاليجولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الأمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشتمل كل العبادات قربانا يقرب لصورته واصدر تعليماته إلى الموظفين فى اورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد اغسطس وتيبيروس قد خطوا نصف الطريق إلى ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون اشد النفور من وصع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم ، وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم – على حد قول الرواية الماثورة – إلى أن يذهبوا إلى حاكم سورية ويطلبوا إليه أن يذبحهم وان لم يكونوا قد ارتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم .

وتألفت عصابات من المتحمسين و (الفدائيين) لمحاربة اليهود ، واقسم اعضاؤها أن يغتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات فى الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون بين الجماهير فى الفوضى التى تعقب عملهم هذا .

وانقسمت المدينة وانقسمت كل اسرة تقريبا بين هذين الحزبين فاستولى احدهما على الجزء الأكبر من اورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل اليه من سلاح ، ووصل الأمر عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢,٠٠٠ يهودى بينهم الأغنياء كلهم تقريبا .

وفى عهد كاليجولا (٣٧ - ٤١) أتت سياسة فرق تسد أكلها وذلك أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودى اجريبا عند مروره بالإسكندرية (أوائل اغسطس ٣٨) وهو فى طريقه إلى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود فى فلسطين ، ولما كان الإسكندريون قد عرفوا اجريبا منذ بضع سنين رجلا مفلسا متلافا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح هذا اليهودى المتلاف ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك العتاة ، ولذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريبا ومن اليهود فى شخصه فنظموا موكبا هزليا قدامه رجل معتوه عصبوا رأسه باكاليل من لحاء البردى ، ووضعوا فى يده صولجانا من ساق البردى وطافوا به فى شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك ولكن ما أن افاق الإسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريبا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة لديه ، فأوا انه لن ينقذهم من ورطتهم الا أن يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد امر باقامة تماثيله فى جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا امر الإمبراطور لأن اقامة تماثيل البشر فى معابدهم كان يندسها ، فان الإسكندريين ادعوا بانهم لم يتظاهروا ضد اجريبا الا لعدم امثال اليهود لأمر الإمبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية ويقيموا فيها تماثيل الإمبراطور وعندما قاومهم اليهود اتهموا بعدم الولاء للإمبراطور وبذلك افلحوا فى حمل الحاكم الرومانى فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . وانتهر الإسكندريون فرصة وقوف الحاكم الرومانى إلى جانبهم للتكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن انفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم ، فاشتبك الفريقان فى صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الرومانى فلاكوس لوضع الأمور فى نصابها بل إنه القى القبض على ثمانية وثلاثين من اعضاء مجلس اليهود وامر بجلدهم فى الحادى والثلاثين من اغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة .

ونشأت في هذه الفترة اعمال تصور هذا النزاع يسميها الباحثون (اعمال الإسكندريين) أو (اعمال الشهداء الوثنيين) بسبب ما بينها وبين (اعمال الشهداء المسيحيين) من تشابه مرده في الحالين إلى صياغة الوثائق في قالب مضابط لمحاكمات يلقي فيها المتهمون خطباً طويلة وينددون بمثالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة . و (اعمال الإسكندريين) تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وللرومان .

وفي عام ٦١ اشتبك الاغريق مع اليهود في الإسكندرية وراح ضحيته خمسون ألف منهم ، حسب قول مؤرخهم يوسف

وتجدد النزاع بين اليهود والاغريق عام ١١٣ - ولكن الامبراطور الروماني نصر اليهود ووبخ الاغريق على مسلكهم - ولكن اليهود كانوا يشعرون بقلق شديد لأن الرومان كالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ ، فقد دمروا معبدهم الأكبر في اورشليم وارغموهم على دفع ضريبة الدينارين لمعبد جوبيتر كابيتولينوس في روما بدلا من معبد اورشليم واغلقوا معبد ليونتوبوليس في مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، واخذوا يعتبرونهم جماعة مشاغبة يجب اخذها بالحزم . ازاء كل ذلك اضمر اليهود حقدا دافيا للرومان واخذوا يتطلعون إلى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود أن فرصتهم قد سنحت عندما تخرج مركز الامبراطور في اثناء الحملة التي قام بها في الشرق ، ففي عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قوريناثيه (برقة) وفي عام ١١٦ انقلبت الثورة إلى حرب ضروس وراح ضحيتها اعداد كبيرة من الاغريق والرومان .

وقد اعمل اليهود القتل بين الاغريق المقيمين في ريف مصر مما حدا بهم إلى الالتجاء إلى الإسكندرية حيث شاركوا الإسكندريين في القضاء على كل ما وصلت إليه ايديهم من اليهود . وفي شتاء ١١٦ زحف يهود برقة على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الإسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضموا إلى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات وسلبوا ونهبوا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم انفسهم

الفصل الثانى

صراعات أتباع العقائد الأولى مع المسيحيين

نشأت المسيحية بين يهود فلسطين ، وكان أول صراعاتها مع الديانة اليهودية نفسها ، وذلك أن اليهود اعتبروا المسيحيين الأوائل جماعة منشقة عنهم ومن ثم قاوموهم وصارعوهم واضطروا الحاكم الرومانى بىلاطس إلى التدخل فى هذا الصراع بعد أن اقنعوه أن المسيح يدعو إلى قلب نظام الحكم بتعاليمه ويعمل على أن يكون ملكا لبني اسرائيل .

وكانت شعوب البحر الأبيض المتوسط ، ومنها فلسطين ، تخضع لروما التى كانت تدين ، هى وشعوبها بعقائد تعدد الآلهة وتألّيه الإمبراطور الرومانى .

وهذا لا يتفق مع الديانة المسيحية الناشئة الداعية إلى إله واحد لا يجوز تأليه أو عبادة سواه والا كان الإنسان كافرا .

وكانت الحكومة الرومانية فيما قبل ايام المسيحية تظهر فى اغلب الأحيان للاديان المعارضة للدين الوثنى المقرر تسامحا تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية ، فلم تكن تطلب من اتباع العقائد الجديدة الا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجّدون بها الآلهة ورئيس الدولة ، ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين

واليهود ، دون سائر اتباع الاديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يأبون أن يعظموا عبقرياتهم ، ذلك أن احراق البخور امام تمثال الامبراطور كان قد اصبحت دليل الولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء .

لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى في عبادة الإمبراطور نوعا من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك امرت اتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية حركة متطرفة ، بل لعلها حركة شيوعية - تعمل في السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوات قبل عهد نيرون أن تعيشا معا من غير أن يشتجر بينهما النزاع . وكان القانون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور . ونال المسيحيون في أول امرهم هذه الميزة لانهم لم يكن يستطيع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين بيد الرومان ليزيد الإمبراطور نيرون العابه بهاء ، بدل هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائما ، وحربا تندلع نارها بين الفينة والفينة ، فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الاجتراء ، اسلحتهم كلها إلى صدر رومة - فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام وسخروا من آلهتها وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث واعلنوا ، أن كل من أتاحت لهم فرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذابا ابديا ، وقال الكثير منهم إن هذا سيكون ايضا مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأي سبب من الأسباب . وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط من هذا العذاب - ورد الوثنيون على هذا بأن سمووا المسيحيين (حثالة الناس) و (البرابرة الوقحين) واتهموهم بانهم (اعداء الجنس البشري) وقالوا إن الكوارث التي حلت بالإمبراطورية ليست الا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا احياء . واخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات فاتهم المسيحيون بانهم سحرة متصلون بالشياطين ، وانهم يقتربون الخطايا سرا ، ويشربون دماء الآدميين في عيد الفصح ويعبدون الحمار .

ورفض المسيحيون الانضمام للخدمة العسكرية ، وتجنبوا غير المسيحيين
وابتعدوا عن الألعاب (الهمجية) التي يقيمونها في اعيادهم ، وامرهم قساوستهم
الا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور ، وحرم على المسيحي أن يتزوج غير
مسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحي ، واتهم الوثنيون العيد المسيحيين
بانهم يبدرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم ابناء اسيادهم وزوجاتهم على
اعتناق الدين المسيحي ، واتهم الدين المسيحي بانه يعمل لتشتيت شمل الأسر
وخراب البيوت .

وساء الشعب عزلة المسيحيين وتعاليمهم ، وثقتهم بانفسهم واهابوا بحكامهم أن
يعاقبوا اولئك الملحدون الذين يهينون الآله .

وحدثت المذابح والمجازر والتعذيب لآلاف المسيحيين عسى أن يرجع
المسيحيين عن دينهم ولكن العكس حدث وهو تضاعف اعدادهم

وكان أول اضطهاد للمسيحيين من الوثنية في عهد الإمبراطور الروماني نيرون
حيث حدث الحريق الذي شمل معظم احياء روما وحتى يبعد الإمبراطور (الفاسق)
الشبهة عن نفسه ادعى أن المسيحيين هم السبب وبدأ في القبض عليهم وتعذيبهم
حتى الموت

واصبحت المسيحية جريمة التزم الحكام الرومان ، بصفة عامة ، بتوقيع أشد
واشنع واقسى العقوبات على مرتكبيها .

وكان بإمكان من ثبت ضده المسيحية سواء بشهادة الشهود أو باعترافه أن ينجى
نفسه من الموت اذا ارتضى في المحكمة ، وضع بعض حبات البخور على المذبح (أى
اذا رجع إلى العقيدة الوثنية) فاذا رفض استعمل القاضي كل وسائل الترغيب ، فان
رفض استعمل الترهيب القوي ، فاذا لم يفلح استعمل العنف وأتى بالسوط
والمخلقة .

وفي هذه الأجواء التي يغلب على الشعب فيها العقيدة الوثنية ، يتم انتهاك عفة
النساء المصبرات على المسيحية ، والقتل والسلب والنهب والتحقير والنفي
والأعتقال . . . الخ

واثارت الاستفزازات المتبادلة في حرب دينية دامت لأكثر من مائتي عام ،
اثارت ثائرة الفريقين المتنازعين ، وطرّدوا الموظفين المسيحيين من وظائفهم في القصر
وتضاعف الاضطهاد ، ولقد صوروا العمل المجيد على انه انقاذ الامبراطورية ، ومن
الخطر الإبقاء على شعب مستقل نبذ عبادة روما ونظامها وأسس جمهورية متميزة
مستقلة ، تحكمها قوانينها الخاصة ويتولى زمام الأمر فيها حكام فيها ، ولها اموالها
العامة ، وتربط بين افرادها روابط قوية – واتجه الجند إلى الكنيسة الرئيسية في
نيقوميديا ، وحرّقوا الكتاب المقدس ، وهدموا البناء بالآلات الهدم والدمار وذلك في
خلال بضع ساعات .

ونص مرسوم الاضطهاد على هدم جميع الكنائس والإعدام لكل شخص يجرؤ
على عقد اية اجتماعات بقصد العبادة الدينية – وجمعت الكتب المقدسة وحرقت
علنا . وصودرت في الحال املاك الكنيسة وبيعت اجزاؤها لمن يدفع اكبر ثمن ، أو
ضمت لاملاك الإمبراطور ، أو وهبت للمدن والهيئات ، أو منحت لرجال الحاشية
الجشعين بناء على توسلاتهم .

وبالنسبة للرافضين لديانه روما ، فقد اعتبر الأشخاص الاحرار ذوو المنبت
الكريم محرومين من الحصول على اية انجاء أو وظائف ، وحرّم العبيد إلى الأبد من أى
أمل في الحرية ، وحرّم الشعب (المسيحي) بأجمعه من حماية القانون ، ورخص
للقضاء في الاستماع والحكم في اية قضية ضد أى مسيحي ولكن لم يكن مرخصا
للمسيحيين الشكوى من أى ضرر أو أذى يصيبهم هم انفسهم .

ولم يكّد هذا المنشور ينشر علنا ، حتى مزقته يد مسيحي عبر باقذع السباب
واحتقاره ومقته لهؤلاء الحكام الملحدّين الطغاة وانتهى الأمر به إلى التعذيب الشديد
فالقتل .

وتصور دقلديانوس أن محاولة حرق قصره مرتين كانت بسبب المسيحيين وزج في
السجون بعدد كبير من ذوى المناصب والحظوة ، وبلغ الامعان في التعذيب بمختلف
الوسائل حد الشطط . وتلوّث القصر والمدينة على السواء بدماء اولئك الذين نفذ
فيهم حكم الإعدام .

وصدر مرسوم بتوقيع عقوبة الإعدام على المسيحيين الذين يمتنعون عن تسليم كتبهم المقدسة وانتهز كثير من الناس هذه الفرصة ليفوزوا بشرف الاستشهاد ولكن كان في الجانب الآخر كثيرون ممن اشتروا الحياة الدنيا بالكشف عن مخابىء الكتب المقدسة وتسليمها غدرا إلى الكفار .

وامتلأت السجون في كل ولايات الإمبراطورية بمشايع المسيحية واتباعهم وعذبوا تعذيبا شديدا وهدمت الكنائس ، وعندما احتفى بعض الأهالي بكنيستهم تم حرق الكنيسة بكل من فيها .

وعندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١٢ دارت الدائرة على الوثنيين ولكن لما تولى الإمبراطور جوليان حكم الإمبراطورية الرومانية عام ٣٦١ ثم ارتد عن المسيحية إلى الوثنية دارت الدائرة على المسيحيين مرة أخرى .

وتلقى الوثنيون أمره الكريم بفتح (كل) معابدهم ، وبهذا انقذهم على الفور من القوانين الظالمة والمضايقات التعسفية التي تحملوها تحت حكم الإمبراطور قسطنطين الذى اعتنق المسيحية وشجع على اعتناقها - وكان يلذ لجوليان أن يجمع اساقفة المذاهب المسيحية المتنافرة ويسمع ضجيجهم وجدلهم واقتنع كل الاقتناع بأشهم ، مع بعضهم ، أشد حقدا وأكثر عنادا ، وأنه لم يعد يخشى من احتمال اتحادهم .

وعمل جوليان المغريات المادية والتسهيلات القانونية لإغراء الناس بالارتداد عن المسيحية .

وكان اكتساب عدد جديد من المهتدين إلى الوثنية شيئا يشيع فيه اهواءه الغالية على نفسه .

واظهر عطفًا وتعاطفًا مع اليهود وأنه حاميه الكريم واكتسبوا محبته بحكم كراهيتهم لاسم المسيح . وكانت معابد اليهود الفقيرة الجرداء تثير فيهم الكراهية والحقن نحو الكنائس الثائرة المليئة بالمتعبدین ، غير أن قوتهم لم تكن معادلة لحقدهم ، ومن ثم فإن المتزمتين من رجال الدين عندهم كانوا يوافقون على اغتيال المرتد إلى المسيحية سرا .

.

وقد وضع جوليان مبدأ يفيض بالظلم والأذى ، نقل بمقتضاه إلى احبار ديانته حق التصرف في المنح السخية التي كان الامبراطور قسطنطين المسيحي التقى وابناؤه قد اغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية . وكذلك سن من القوانين الصارمة ما هدم آمالهم في الحصول على الهبات التي كان يوصى بها الناس لهم .

وهكذا أدخل القساوسة المسيحيين في زمرة احقر طبقات الشعب واقلهم شأنًا وحرّم على المسيحيين تعلم فنون النحو والبلاغة باعتبارها نتاج العقل اليوناني أو الروماني (الوثني) الذي كانوا يحتقرونه .

وكان راغبا في حرمان المسيحيين من المزايا – وإبعادهم عن الوظائف التي يحتاج شغلها إلى ثقة – وسلم جوليان سلطان الحكم للوثنيين والزم المسيحيين بتقديم تعويض كامل عن المعابد وعمما بداخلها التي استولت عليها الكنائس أو المسيحيون اثناء حكم الأباطرة المسيحيين قبله .

وقد حدث أن الأسقف مرقس ، قبل عهد جوليان – كان قد استخدم في تحويل الناس إلى المسيحية ، مع الإقناع والحماس ، هدم أحد معابد الوثنيين ومن ثم فإن حكام جوليان طالبوه بأن يدفع ثمن المعبد الذي هدمه كاملا ، ولما كانوا على يقين من فقره فقد كانت رغبتهم الوحيدة أن يذلوا كبرياءه العنيد بأن ينتزعوا منه وعدا بأن يدفع أتعفه تعويض . وكانوا يخشون الرجل العجوز فجلدوه بطريقة وحشية ومزقوا ذقنه ، ثم طلوا جسده العاري بعسل النحل وعلقوه في شبكة بين السماء والأرض عرضة للدغ الحشرات ولأشعة الشمس . غير أن الأسقف مرقس ظل ، وهو معلق على هذه الصورة يفخر بالجريمة التي ارتكبها ، ويوجه الأهانات إلى معذبيه العاجزين الغاضبين ثم أنقذ في نهاية الأمر من ايديهم ، واصبح طليقا يتمتع بشرف نصره الإلهي .

وفي كثير من المدن ، اساء الوثنيون لحظة انتصارهم فعذبوا ، وقتلوا ، وجروا الأجساد المسيحية الممزقة في الطرقات حيث كانت تطعن باسياخ الطهاة ، وان احشاء القساوسة المسيحيين والعذارى المسيحيات بعد أن كان يذوقها اولئك المتعصبون المتعطشون للدماء ، كانت تخلط بالشعير ، وترمى في احتقار إلى الحيوانات القذرة في المدينة .

وصادر جوليان اموال الكنائس — واستعمل السيف والنار .

وطرد اثناسيوس المصري من كرسيه — وطارده — غير أن الرجل اختفى كالعادة ورد المسيحيون باحراق المعابد الوثنية الخ .

ولما مات الإمبراطور جوليان ، وتولى بعده جوفيان دارت البدائرة على الوثنيين .

وفي القرن الرابع اختلف المسيحيون في كل نقطة عدا نقطة واحدة هي — انه يجب اغلاق الهياكل الوثنية ، ومصادرة املاكها ، واستخدام اسلحة الدولة التي كانت توجه من قبل لقتال المسيحية في قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون بها .

وكان قسطنطين قد قاوم تقديم القرابين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرمها تحريماً باتاً ، فلما جاء قسطنطوس أمر باغلاق جميع الهياكل الوثنية في الدولة ومنع جميع الطقوس الوثنية وانذر من يعصى امره بقتله ومصادرة املاكه ، كما فرض هاتين العقوبتين بعيتهما على كل حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر ، ومع هذا فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة في بحر المسيحية الأخذ في الاتساع ، فكان في المدن القديمة ، أثينا ، انطاكية ، وأزمير ، الإسكندرية ورومة وبخاصة بين الأشراف وفي المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين في احيائها المختلفة ، وظلت الألعاب تقام في اولبيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥) والطقوس الخفية يحتفل بها في الوسيس : حتى جاء الريك فهدم هيكلها في عام ٣٩٦ م .

ولقد اقرت في الفقة الدينية قاعدتان منمقتان اشتقوا منها نتيجة صارمة مباشرة ضد رعايا الإمبراطورية الذين ما زالوا متمسكين بطقوس اجدادهم ، أولاهما أن الحاكم يعتبر إلى درجة ما ، مدينا بالجرائم التي يهمل في حظرها أو عقابها ، وثانيتهما أن العبادة الوثنية التي تؤدي إلى آلهة خيالية لا تعدو أن تكون في واقع الأمر شياطين هي أبغض جريمة ضد الجلال الأسمى للمخلوق .

وعقد الإمبراطور ثيودوسيوس مجلس السناتو حيث طرح سؤالاً هاماً عما اذا كانت عبادة الإله جوبيتر أو عبادة المسيح هي التي ينبغي أن تكون دين الرومان ؟

تخطمت حرية التصويت التي تظاهر بالسماح بها ، بفعل الآمال والمخاوف التي أوحى بها وجوده في الاجتماع . كما أن نفى سيماخوس (الوثني البليغ الذي حاول جهده الإبقاء على مظاهر الوثنية) بصورة تعسفية كان بمثابة نذير قريب العهد بآية معارضة لرغبات الملك ، تنطوي على الخطر . وعندما اخذت الأصوات بالطريقة المعتادة انحازت أغلبية كبيرة جدا ضد جوبيتر فادانتة وحقرته . وقد يكون مدعاة للدهشة أن بعض الأعضاء ، مهما قل عددهم ، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يعلنون بكلماتهم وبأصواتهم ، أنهم ما زالوا يؤيدون جانب الإله المنبوذ . وهذا التحول السريع من جانب السناتولا بد أن يرجع اما إلى عوامل خارقة للطبيعة أو إلى دوافع حقيرة ، وقد افعم هؤلاء الذين اهتموا كرها لا اختيارا ، في كل مناسبة ملائمة ، عن رغبتهم الباطنة في خلع قناع المراءاة الكريه . غير أنهم تمسكوا شيئا فشيئا بالديانة الجديدة ، لأن قضية الديانة القديمة أصبحت أكثر يأسا فأذعنوا إلى سلطات الإمبراطور وإلى اسلوب العصر ، وإلى توسلات زوجاتهم وابنائهم الذين كان رجال الدين في روما ورهبان الشرق يحرضونهم ويسيطرون عليهم وسرعان ما أصبح المثل الذي ضربته بعض الأسر النبيلة مثلا يحتذى عند العامة وخضعت روما والولايات لسيطرة الإنجيل .

وهاجم ثيودوسيوس الخرافة في اعظم جانب حيوى لها وذلك بحظر تقديم القرابين التي اعلن انها عمل اجرامى بقدر ما هو عمل مشين ، وبما أن المعابد كانت قد أقيمت بغرض تقديم الذبائح ، فقد أصبح واجب الملك الخير أن يبعد عن رعاياه ، ذلك الإغراء الخطير فقد كلف قواده باغلاق المعابد ، والاستيلاء على ادوات العبادة الوثنية أو تدميرها والغاء امتيازات الكهنة ، ومصادرة الأملاك الموقوفة على الأماكن المقدسة ، لمنفعة الإمبراطور أو الكنيسة أو الجيش .

وسار الأب المقدس مارتن اسقف تور ، على رأس رهبانه المخلصين ، لتدمير الأصنام والمعابد والأشجار المقدسة في أبرشيته الواسعة وانتشر تحطيم المعابد والاستيلاء على محتوياتها من الشعب بقيادة قساوسته في كل مكان .

وتم تحطيم معبد سيرابيس وتمثاله في الإسكندرية وانتشرت الحرائق في هذه الأماكن وأقيمت على انقاض بعضها أو بداخلها كنائس وأحرقت مكتبة الإسكندرية وأصبحت رمادا على يد توفيلوس .

يقول المرسوم الإمبراطورى

تقتضى ارادتنا ومشيتنا ، أنه ينبغى على كل فرد من رعايانا ، حاكما أو مواطنا عظيم الشأن والمقام أو حقيرا ، الا يعبد فى اية مدينة ، أو فى اى مكان صنما لاحتياة فيه ، بذبح ضحية بريئة .

. وامتلات الكنائس باعداد متزايدة من هؤلاء المهتدين التافهين الذين اعتنقوا الديانة السائدة مدفوعين بدوافع دنيوية ، وبينما كانوا يقلدون فى خشوع جلسة المؤمنين ويرددون صلواتهم ، كانوا يرضون ضمائرهم بالتضرع إلى آلهتهم القديمة فى دخيلة انفسهم . واذا كان الوثنيون فى حاجة إلى الصبر على الألم ، فقد كانت تعوزهم روح المقاومة ، ومن ثم فان اعدادهم الغفيرة المشتتة ممن كانوا يكون على خراب معابدهم استسلموا دون كفاح إلى خصومهم ، اما المقاومة غير المنظمة التى ابدوها فلاحو سوريا واهل الإسكندرية ضد التعصب المحلى ، فقد أسكتت باسم الإمبراطور وبسلطاته . . وفى عهد الإمبراطور جستنيان كانت هناك بقية من الوثنيين متوارين عن الأنظار ، ويعيش بعضهم فى احسن الأوضاع الإنسانية وقد اثار هؤلاء الوثنيون سخط المسيحيين . . . ومن ثم عين اسقف ليكون محققا يتحرى شئون العقيدة ، وسرعان ما اكتشفت عينه اليقظة ، فى البلاد وفى المدينة ، أولئك الحكام ، ورجال القانون ، والأطباء ، والسفسطائيين الذين ما زالوا يعتنقون خرافة اليونان .

وقد طُلب اليهم فى قسوة وفى جفاء أن يختاروا دون ابطاء بين غضب الههم جوبيتر وبين غضب الإمبراطور جستنيان ، وقيل لهم إن كراهيتهم للانجيل لم يعد ممكنا أن تتوارى وراء قناع فاضح من الاتحاد وعدم الاكتراث ، وقد خضع الضعفاء للمليكههم الدنيوى وأدوا شعائر المعمودية وجاهدوا فى حماس خارق لمحورية الوثينة أو التفكير فيها . . . أما النبيل فوتبوس فهو وحده الذى فضل أن يعيش ويموت كما عاش اجداده من قبل فحرر نفسه بضربة خنجر . . . ثم مثلوا بجثته وعرضوها بصورة شائنة .

وبفضل عناية الاسقف نفسه امكن اكتشاف سبعين الفا لا زالوا مختفين بآخر جذوات اساطيرهم ، فى بلدة هيوميروس ، وتم تحويلهم للمسيحية .

وفي أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوش إلى بلاد الشام ومصر فحاربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى باجمعهم واتوا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبيًا لا يدخل تحت حصر وساعدتهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم . . . ونال اليهود من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين بالقدس وحرقوا أماكنهم .

وفي أيام تسطابوس الملك ألزم الخنفاء أهل حران وهم الصابئة بالتنصر فتنصر كثير منهم وقتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية

ولما اعتنق أولاف المسيحية وهو في الجزائر البريطانية وجلس على عرش الترويج هدم المعابد الوثنية ، وشهد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد المقاومة ، واصرروا على أن يقرب أولاف القربان إلى إلههم ثور كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقدم إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ، فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحي ولما استمسك واحد منهم يدعى راند بدينه الوثني ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعبانًا في حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وقضى على حياته .

وخطب أولاف لنفسه سجريد ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة بشرط أن لا تتخلى عن دينها الوثني - فضربها بقفازه في وجهها قاتلاً (وما الذي يرغمنا على أن نتخذ زوجة وانت عجوز شمطاء ، سليطة ، كافرة ، فردت عليه) سيكون ذلك سببًا في موتك) وفعلا قامت الحرب وألقى في اليم يكامل سلاحه

وفي عصر شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) - كان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلادهم وثنيين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مرارا على غالة ، وكانت هذه الأسباب كافيه في رأى شارلمان لأن يوجه اليهم ١٨ حملة (٧٧٢ - ٨٠٤) قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية ، فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب عنق ٤٥٠٠ منهم في يوم واحد ، وسار بعد قتلته هذه إلى ثيو نفيل ليحتفل بميلاد المسيح

وكانت معظم فنلندا حتى القرن الثاني عشر وثنية ، وبدأ الألمان ينشرون الدين المسيحي بينهم بالنار والسيف ، ولما وجد الفننديون أن الألمان يتخذون الدين المسيحي وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليها ، نقضوا عن انفسهم هذا الدين وتطهروا بالمياه من تعميده ، ورجعوا إلى وثنتهم ودعا البابا أنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، وقاد رجال الدين هذه الحرب ، التي انتهت بفوز الألمان وامتلاكهم البلاد ونشروا الدين واتخذوا من الأهالي رقيقا للارض .

واخيرا تمخضت هذه الصراعات عن تغلب المسيحية على العقائد الدينية الأولى حيث انتشرت في اوروبا ومصر وشمال افريقيا والشام .

الفصل الثالث

صراعات اتباع العقائد الأولى مع المسلمين

عندما بدأ النبي ﷺ دعوته في مكة بالطرق السلمية ، عاداه قومه بالطرق السلمية أيضا .

وكما بدأ الصراع مع أتباع اليهودية عندما قام اتباعها (باحتقار) آلهة الرومان والوثنيين ، وكما اشتد صراع الوثنيين مع المسيحيين لهذا السبب أيضا ، كذلك الحال مع الإسلام ، فقد بدأت صراعاته الدموية مع نقد الوثنية والمسخرية منها ومن اتباعها جهارا . . .

وهنا تكتل اصحاب وقيادات المصالح السياسية والاقتصادية من الوثنيين للدفاع عن مصالحهم وعن اوضاعهم الاجتماعية والدينية التي تساند مواقعهم ضد هذا الخطر الإسلامى .

فعذبوا الضعفاء وفتنوهم عن دينهم ، واضطهدوا النبي عليه الصلاة والسلام وعائلته حتى تمكن من الهجرة الى يثرب حيث كون الدولة الإسلامية لتكون خنجرا مصوبا لجميع العقائد الوثنية واتباعها في كل جزيرة العرب .

وكانت بداية هذه الصراعات عندما بادأهم النبي ﷺ بذكر آلهتهم – وكان من قبل لا يذكرها ، وعابها ، وكان من قبل لا يعيبها . هنالك عظم الأمر على الوثنيين

وحز في صلورهم ، وبدءوا يفكرون التفكير الجذ في أمر هذا الرجل وما هولا ق منهم وما هم لاقون منه ، لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا إذا جلسوا في دار الندوة أو حول الكعبة فجرى ذكره على السنتهم لم يثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . اما وقد حقر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آبائهم ، ونال من (أصنام) اللات والعزى ومن الأصنام جميعا ، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية ، بل أصبح موضع جد وتدبير . أولو أتيح لهذا الرجل أن يؤلب عليهم اهل مكة وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة ، وماذا يكون مقامها الديني وهي قبلة العبادة لجميع العرب في ذلك الوقت .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في حماية عمه أبي طالب ، وعرضت عليه القيادات الوثنية اما أن يكف ابن اخيه عنهم ، أو يتركه يفعلوا به ما شاءت لهم الكراهية وروح الانتقام .

ثم طلبوا من ابن طالب أن يسلمهم النبي ﷺ مقابل فتى غيره يتخذه له ولدا . . .

ولكن الرجل اصر على حماية ابن اخيه رغم اصرار النبي ﷺ على الثبات في دعوة التوحيد مهما لاقى في سبيلها من مغريات ومن اضطهادات . . .

وعملت بنوهاشم ، عائلة الرسول ﷺ ، على حمايته رغم أن منهم كثيرين لم يؤمنوا بدعوته .

ولكن الوثنيين وجدوا بغيتهم في اتباع الرسول ﷺ من الضعفاء والارقاء ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم حتى القى احدهم عبده الحبشى بلالا على الرمال تحت الشمس المحرقة ووضع حجرا على صدره وتركه ليموت ، لا لشيء الا أنه اصر على الإسلام ولم يزل بلال وهو في هذه الحال وهو يكرر كلمة : (احد ، أحد) محتملا هذا العذاب في سبيل دينه . . . وكانت نهاية هذا العذاب على يدى أبي بكر الذي اشتراه واعتقه . واشترى ابوبكر كثيرا من الموالى الذين كانوا يعذبون ، ومن بينهم جارية كانت لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل اسلامه . وعذبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير الموالى يضربون وتوجه اليهم أشد صور المهانة .

ولم يسلم الرسول ﷺ ، مع منع بنى هاشم وبنى عبد المطلب له ، من هذه الاساءات ، فقد كانت أم جميل زوج ابى لهب تلقى النجس امام بيته فيكتفى النبي ﷺ بأن يزيله وكان ابو جهل يلقي عليه اثناء صلواته رحم شاه مذبحه ضحية للاصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهجر الكلام حيثما ذهبوا . واستمر الأمر على ذلك طويلا ، فلم يزدادوا الا حرصا على دينهم وابتهاجا بالأذى والتضحية في سبيل عقيدتهم وإيمانهم .

وقام الشعراء بسب الرسول ﷺ ومن معه ، وكان الوثنيون يأتمرون به حتى حاول رجل قتله عند الكعبة . وكان منزله يرحم ، وكان اهله واتباعه يهددون

ورغم ذلك وغيره ، كثر اتباع الرسول ﷺ . وتضاعف ايداء الوثنيين لهم ، حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة بدينهم الجديد خارج مكة ومنهم الكثيرون الذين هاجروا إلى الحبشة .

وحتى في الحبشة ، لم يسلم المسلمون من مكائد الوثنيين الذين تتبعوهم إلى هناك ليوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة الذي استظلمهم بحمايته ولكن المؤامرة فشلت .

وبدأ الرسول ﷺ توسيع دائرة مستمعي رسالته ، عسى أن يؤمن بها قبائل العرب فيقوى الإسلام بكثرة اتباعه ويتمكن من الانتشار بين البشر جميعا . . .

وكانت مكة ملتقى الحجاج الوثنيين من كل العرب ، وفي كعبتها حشد كبير من اصنامهم وآلهتهم .

وانتظر الرسول ﷺ مجيء قبائل العرب لاداء الحج فيعرض عليهم القرآن

وهنا خشى وثنيو مكة من انتشار دعوته بين العرب ، واجتمع قاداتهم يضعون خطة تمنع قبائل العرب من الاستماع اليه .

واقترح بعضهم أن يقولوا عنه إنه كاهن ، فرد الوليد هذا الرأي أن ليس ما يقوله محمد ﷺ بزمزمة الكاهن ولا بسجعه . واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا ﷺ

مجنون ، فرد الوليد هذا رأى بانه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة . واقترح بعضهم أن يتهموا الرسول ﷺ بالسحر ، فرد الوليد بأن محمدا لا ينفث في العقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئا . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب إن هذا الرجل ساحر البيان وإن ما يقوله سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وإخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . وكان لهم عند العرب من الحجة على قولهم هذا ما أصابهم في مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعد أن كانت مكة مضرب المثل في العصبية وفي قوة الرابطة .

وهذا هو ما اتفقوا عليه ، وقاموا فعلا بتنفيذه .

ولعلك تجد أن هذا الاتهام هو نفسه الذي اتهمت به المسيحية في نشأتها الأولى في بلاد الرومان .

وهذا اتهام يتفق مع واقع كل من المسيحية والإسلام في نشأتها الأولى ، حيث يتجه الرفيق أو الابن أو الزوجة إلى دين سماوى بينما رب الأسرة ثابت على وثنيته وهنا يتفكك الترابط الأسرى فالترابط القومى . . .

ولكن ذلك لم يحل دون وصول رسالة القرآن إلى الكثيرين . . . فكثر الاتباع .

وحصر الوثنيون الرسول ﷺ وعائلته وأصحابه ثلاث سنوات في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، وقاطعواهم اقتصاديا ، ومنعوا أى غذاء يصل إليهم ، ومنعوا مصاهرتهم والاتصال بهم . . .

وعانى الرسول ﷺ وأصحابه في مدة الحصار هذه الكثير من الآلام إلى أن رق لاحواهم بعض الوثنيين من أقاربهم وعملوا على فك هذا الحصار

وبعد أن فقد حماية عمه وعطف زوجته ومساندتها وذلك بموتها ، تضاعفت عليه صنوف الإيذاء من الوثنيين ، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهائهم فرمى على رأسه ترابا . . . فدخل إلى بيته والتراب على رأسه فقامت إليه فاطمة ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكى .

ولما كثرت مساوءات قريش للرسول ﷺ ، خرج وحده قاصدا بلدة الطائف لعله يجد عندهم من ينصره أو يتبع دينه ولكنه عاد من عندهم بشر جواب . فرجاهم

الا يذكروا من استنصاره بهم شيئا حتى لا يشمت به قومه . ولم يسمعوا له بل اغروا به سفهاءهم يسبونهم ويصيحون به . ففر منهم إلى حائط ، فرجع السفهاء عنه . وجلس إلى ظل شجرة ، فلما اطمأن رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعا في شكاية والم وقال : (اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . اعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك) .

ولما عرفت قريش هذا الأمر ، ازدادت للرسول ﷺ إيذاء ، فلم يصرفه ذلك عن الاستمرار في دعوة الناس والقبائل إلى رسالة التوحيد .

ومن القبائل من لم يستمع إليه وردوه ردا غير جميل ، بل رده بنو حنيفة ردا قبيحا . أما قبيلة بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده . فلما قال لهم : ان الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء لروا عنه وجوهم وردوه كما رده غيرهم .

ولما جهر الرسول ﷺ بما ناله من تكريم ربه واسرائه إلى السموات العلا ، واجتماعه بالرسول وبالأنبياء ، ورؤيته لعزرائيل والمخلوقات لم يسمع الإنسان بمثلها ثم ارتفاه إلى قمة سدره المنتهى

ثم كان في حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، وعودته إلى بيت المقدس وعودته منه إلى مكة على الدابة المجنحة وكل هذا في ليلة واحدة .

لما جهر الرسول ﷺ بذلك رغم نصيحة ابنة عمه أبي طالب بعدم الجهر بالإسراء حتى لا يكذبوه ويؤذوه ، ارتد كثير من المسلمين عن دينهم وازدادت مساات قريش له ولا تباعه .

ومضت ثلاث عشرة سنة منذ بدأ الرسول ﷺ دعوته إلى أن دعاه أهل يثرب ليكون بينهم بعد أن فشا فيهم الإسلام .

أى أن الرسول ﷺ واتباعه ظلوا قلة مستضعفة ، مضطهدة لما ينيف على ثلاثة عشر عاما قضوها بين وثنى مكة .

فهل يترك الوثنيون الرسول ﷺ وشأنه يقبع في يثرب ، أو هل يتركهم محمد وشأنهم .

لقد لاحظنا في الصراع بين أتباع المسيحية وأتباع الوثنية أن الهدف عند أى طرف في الصراع هو القضاء على عقيدة الطرف الآخر بكل السبل بما فيها القتل الجماعى والتعذيب والتحقير والتضييق في مباشرة الحقوق الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية .

وكما سبق البيان أن الإمبراطور الوثنى قد سخر كل إمكانيات الدولة لفرض عقيدته ، وهكذا فعل الإمبراطور المسيحي وهكذا فعلت قيادات الوثنية العربية مع المسلمين .

وجزيرة العرب تعتبروطنا لكل قبائل العرب ، وكانت كلها تدين بقداسة الكعبة في مكة (الوثنية) والرسول ﷺ اتجه في صلاته إلى بيت المقدس نازعا من قبلة العرب مكانتها . . . ثم لما اتجه بصلاته إلى مكة ، اتجه اليها باعتبارها خالية من الوثنية والأصنام وانما بيت إبراهيم رائد التوحيد . . .

وهأ هو الرسول ﷺ يعمل على نزع مكانة القيادات الوثنية الدينية في مكة من موقعها .

وكان حتما على الرسول ﷺ أن ينشر رسالته بين كل العرب ، فهذا هو طبيعة واجبه الإلهى والمنطقى .

ولو اقتصر الرسول ﷺ على إسلام أهل يثرب ، الذين احبوا قيادته لمدينتهم سياسيا واقتصاديا ودينيا ، لما خرج عن كونه ساعيا إلى السلطة والمال .

ولو اكتفى الرسول ﷺ بجعل يثرب مقره المنيع ، وراح هو أو صحابته يدعون القبائل إلى الإسلام بالطرق السلمية ، كما حدث كثيرا ، لما سكتت قريش عن تأليب القبائل عليه لقتاله ، حتى تظل الأوضاع كما هى دون أى تغيير .

وحدثت غزوة بدر بين قلة مستضعفة من المسلمين وبين صناديد قريش حيث نصر الله سبحانه وتعالى هذه القلة المستضعفة ، ومنذ هذه المعركة دأب القرشيون على مهاجمة الإسلام بهدف القضاء عليه وعلى اتباعه كما يتبين ذلك من مهاجمتهم للمسلمين في غزوتي أحد والأحزاب .

وبلغ الرسول ﷺ أن بنى أسد يحرضون قومهم وغيرهم على مهاجمة المدينة ليغنموا منها - وذلك بعد شهرين من أحد - فأرسل الرسول ﷺ سرية من ١٥٠ هاجمتهم قبل أن يستعدوا للحرب وغنمت منهم .

وكان محمد ﷺ يرسل بعض رجاله إلى القبائل لتعريفهم بالإسلام وأرسل محمد ﷺ ستة من اتباعه إلى قبيلة مجاورة وحدثت الخيانة وقتل ثلاثة واسر اثنين باعوهم إلى أهل مكة .

ومن ضمن من بيعوا : زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذي اشتراه ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، فدفع به إلى مولاة نسطاسي ليقتله . فلما قدم سأله أبو سفيان : انشدك الله يا زيد ، اتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟

قال زيد : والله ما أحب أن محمدا إلا في مكانه الذي هو فيه لا تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي فعجب أبو سفيان وقال :

ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمدا ، وقتل نسطاسي زيدا .

، أما حبيب فقد خرجوا به ليصلبوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . فاجازوه ، فركع ركعتين اتهمها واحسنهما ، ثم أقبل على القوم وقال : أما والله لولا أن تظنوا اني انما طولت جزعا من القتل لاستكثرت الصلاة ، ورفعوه إلى خشبة ، فلما أوثقوه اليها نظر اليهم بعيني مغضبة وصاح : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم احدا . فاخذت القوم رجفة من صيحاته ، واستلقوا إلى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ، ثم قتلوه .

أما الثالث فقد قتلوه رميا بالحجارة قبل الوصول إلى مكة عندما برز لمقاتلتهم بعد أن فك قيود أسره - (يوم الرجيع) .

وطلب ابن براء عددا من المسلمين لأهل نجد ليدعوهم للدين فوافق الرسول ﷺ على ارسال اربعين رجلا بعد أن تعهد ابو براء بتأمينهم ، ثم هوجوا وهم في الطريق وقتلوا (يوم بئر معونة) .

وعن ابن عباس : (والله أن كان المشركون ليضربون احدهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له : اللات والعزى الهك من دون الله فيقول نعم . . . الخ) .

الباب الثانى

صراعات اتباع الاديان السماوية مع بعضها

تصارع أتباع الرسالات الثلاث مع أتباع الوثنية في أوربا وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وشرقى آسيا حتى تغلبت كل من المسيحية والإسلام عليها ، كما ظلت اليهودية تقاوم في هذه الصراعات لتستمر وفي نطاق قبيلة العبرانيين بصفة أساسية .

وبهذا حلت الرسالات السماوية في هذه البلاد محل العقائد الفطرية أو غير السماوية .

وانتهت إلى الأبد العقائد الدينية عن الإله رع وآمون وبتاح وإيزيس وأوزوريس ، وحورس في مصر ، والعقائد الزرادشتية في فارس ، وعقائد الحثيين والسومريين والفينيقيين ، كما تلاشت عقائد الإغريق والرومان عن آلهة الأوليب والإله جوبتر وغيرها .

وأصبح ذكر أسماء أصنام العرب مثل هبل واللات والعزى من اختصاص الخاصة من الفقهاء والمؤرخين .

وكان المتوقع ، منطقيا ، أن تهدأ الصراعات الدينية بعد تغلب الرسالات السماوية على الوثنية . . . ولكن المنطق لا يتفق عادة ، مع مسار التاريخ . . . وذلك أن كلا من أتباع الرسالات السماوية الثلاث وجدت الوثنية والكفر في اتباع الرسالات السماوية الأخرى ومن ثم حل صراعهم والتغلب عليهم مثلما فعلوا ذلك من قبل مع أتباع الوثنية .

فاتباع اليهودية كفروا كلا من أتباع المسيحية والإسلام لأنهم آمنوا أن دينهم وحده الحق ، ودين غيرهم باطل .

واتباع المسيحية اعتبروا اليهود كفرة ، لأنهم كذبوا المسيح الذى يتفق وجوده مع ما جاء فى التوراه . . .

ثم كفر اتباع المسيحية المسلمين الذين آمنوا بنبوة محمد ﷺ وبرسالته بدلا من أن يتوقف إيمانهم عند المسيح ورسالته .

وكفر المسلمون المسيحيين واليهود لأنهم لم يؤمنوا بآخر رسول وبآخر رسالة .

وليس هناك ما يستحق الذكر عن محاولة اليهود لتهويد غيرهم ، وذلك للظروف القبلية والعنصرية التى يعيش فيها اليهود منذ بداية نشأتهم الدينية وحتى الآن .

ولكن كان الصراع بين اتباع الديانات السماوية صراعا شرسا واستعملت فى هذا الصراع أحدث الأسلحة المعروفة فى كل عصور الصراع وسأعرض لك فى الفصول التالية نماذج عن الصراعات التى نشبت بين كل من أتباع المسيحية وأتباع اليهودية وبين اتباع الإسلام واليهودية . . . وأتباع المسيحية وأتباع الإسلام . .

(وقالت اليهود لئست النصارى على شئٍ وقالت النصارى لئست اليهود على شئٍ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

البقرة : ١١٣

الفصل الأول

صراعات اتباع اليهودية وأتباع المسيحية

جاء السيد المسيح داعيا اليهود إلى الحق وعبادة الله وحده وإلى العناية بالحياة الروحية والزهد والقناعة والأخلاق الفاضلة ، وأن الله ليس عنده شعب مختار وشعب غير مختار كما اعتقد اليهود ، بل كل الناس عبيد له وسواسية لا فرق بين إنسان وآخر الا بالتقوى والعمل الصالح .

لما جاء السيد المسيح بذلك أثار سخطهم وغضبهم فسعوا به إلى حاكم الروم (بيلاطس) في بيت المقدس واغروه بقتل المسيح . ولكن الحاكم لم يأبه لوشايتهم وسعايتهم ضده ولم يرغب في قتله ، لأنه لم يخف منه أن يستولى على الملك ويزيل سلطان الروم ، ولم ير في دعوة المسيح الا اصلاحا خلقيا ودينيا لا يمس السياسة أو الحكومة من قريب أو بعيد، ولكن اليهود لم يقتنعوا ولم ييأسوا ولم يسكتوا عن تدبير المؤامرات فكذبوا على عيسى ونسبوا اليه ما يثير غضب (بيلاطس) عليه فاصدر امره بالقبض عليه وحكم باعدامه صلبا .

ولقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى في نفسه الا أنه أحد اليهود ، فلا يخطب الا فيهم ، ولما ارسل اتباعه لينشروا انجيله لم يرسلهم الا لمدن اليهود (إلى طريق امم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا) ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته

فى أن يحمّلوا الأنبياء الطيبة إلى عالم (الكفرة) وقال (لم أرسل الا إلى خراف
بنى اسرائيل الضالة) وقال للابرص الذى شفاه من علته (اذهب وأر نفسك للكاهن
وقدم القرّبان الذى أمر به موسى) (على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ،
فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب اعمالهم
لا تعملوا)

وقال عليه السلام (لا تظنوا انى جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت
لأنقض بل لأكمل) .

وجاءت المسيحية بالأمر بالاستعداد للدخول فى الملكوت عن طريق الحياة
العادلة ، والرأفة والبساطة وزادت المسيحية صرامة فى مسائل الجنس
والطلاق ، ولكنها كانت أكثر استعدادا للعفو من اليهودية ، كما خففت الشروط
الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذفت بعض اوقات الصوم ، واعادت الدين إلى
الصالح والاستقامة بدلا من المراسم والطقوس .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعتهم هذه (الاصلاحات) - وكان الذى
اغضبهم بنوع خاص ما ادعاه المسيح لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث
باسم الإله .

وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة
السيئة . وكان كهنة الهيكل واعضاء السندرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ويرون فى
هذا النشاط ما كان يراه هيردوس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة
سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومان بأنهم يتحللون مما هو مفروض
عليهم من تبعات ليحافظوا على النظام الاجتماعى وقد اوجسوا فى نفوسهم خيفة من
وعد المسيح بتدمير الهيكل . ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى
لا يقصد به حرفيته .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى عليه السلام وبينهم حين بدأ يشيع بين
الناس أنه هو المسيح المنتظر .

واشتعل العداء بين اليهود والمسيح خاصة عندما وجدوا اتباعه يزدادون وخشوا
أن تؤول الحكومة الرومانية هذه الحركة على انها حركة مضادة للحكم الرومانى .

وبالإضافة إلى عوامل العداء الأخرى ، كنقد المسيح لكثير من تصرفات الكهنة وشيوع الاعتقاد أنه المسيح المنتظر ، قاد اليهود عملية هلاكه والوقية بينه وبين الحاكم الروماني . . .

وهذا هو أول صراع بين أتباع اليهودية وأتباع المسيحية الناشئة .

وانتشر رسل المسيحية ، بعد نهاية حياة المسيح ، إلى مختلف البلاد يبشرون بالدين الجديد ، ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت ايدى الرسل من اموال ، عينوا سبعة من شمامسة الكهنة للاشراف على شئون هذه الجماعة . وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرهم وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد (الناصريين) (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠ استولى الرعب على قلوب الكهنة . فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم امام السنهدرين (اليهودى) لمحاكمتهم (باعتبارهم شيعة يهودية منحرفة) . وكان السنهدرين يريد أن يحكم باعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى عمالائيل - اشار على المجلس أن يؤجل الحكم ، ثم وفق بين الرايين بأن جلد المقبوض عليهم واطلق سراحهم . وحدث بعد ذلك بزمن قليل (٣٠ م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للاشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس للمثول أمام السنهدرين واتهم بانه يتكلم (بكلام تجديف على موسى وعلى الله) - فدافع الرجل عن نفسه دفاعا قويا غير مبال بما يتهدده من اخطار .

(يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والأذان ، انتم دائما تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك ، انتم أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فانبأوا بمجىء البار الذى انتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه ، الذين اخذتم الناموس بترتيب الملائكة ولم تحفظوه) .

واثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدرين فامر بأن يجر الرجل إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة . وكان شاب فارسى يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت فى اورشليم ويقبض على اتباع (الكنيسة) ويزجهم فى السجن .

وفر اليهود المهتدون ذوو الأسماء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية اما معظم الرسل الذين يبدو أنهم

سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس ، فقد بقوا في اورشليم مع المسيحيين اليهود . وبينما كان بطرس يحمل الانجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب (العادل) أخو (الرب) رئيس الجماعة المقيمة في اورشليم بعد أن قل عددها ونقصت مواردها . وكان يعقوب يبشر بالناموس بكل ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقل عن الأسبنيين تقشفا وزهدا فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له إلا ثوب واحد ، ولم يقص شعره أو يخلق لحية قط . وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة اعوام لا يمسه اذى ، ثم حدث حوالي عام ٤١ أن قتل رجل يدعى يعقوب بن زبيدي ، فقبض على بطرس ولكنه فر . ثم قتل يعقوب العادل في عام ٦٢ وبعد اربعة اعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما - وايقن المسيحيون المقيمون في اورشليم أن (نهاية العالم) قد دنت ، فلم يأبها بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة واقاموا في بلاد اليونان الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة . فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد نبطس تحقيقا لنبوء المسيح ، واتقدت نار الحقد في اتباع كلا الدينين .

واستمر اضطهاد اليهود للمسيحية بعد السيد المسيح بنفس القوة الذي كان عليه الاضطهاد وقت حياته ، وذلك أن اليهود اعتبروا المسيحية شيعة منشقة ومنحرفة عن اليهودية ولم ينظروا إلى المسيح الا على أنه نائر على بعض تعاليم اليهودية .

وكان بولس يهوديا وشديدا في اضطهاد المسيحيين الا أنه حدث له تحول جذري في نفسه وفي فكره جعله من أئمة المسيحية ، ومن أشد المناصرين لها والمضطهدين لليهود انفسهم - واصدر حاكم دمشق ، بايعاز من اليهود الذين ساءهم تغير بولس عليهم ، أمرا بالقبض عليه ، فما كان من اصدقائه الجدد الا أن انزلوه في سلة من فوق اسوار المدينة - وظل يدعو للمسيحية في بلاد كثيرة وبالرغم من ذلك حاول اليهود أن يقتلوه وبجهد التبشيري مع زميله برنابا هديا كثيرا من الناس للمسيحية ، ولم تلبث انطاكيا أن فاقمت غيرها من المدن في عدد المسيحيين بها ، وفيها اطلق الوثنيون على (المؤمنين) أو (التلاميذ) أو (القديسين) كما كانوا يسمون انفسهم اسم (الكريستاني) أي اتباع المسيح أي الإنسان المسوح . وهنا ايضا انضمت (الأمم) أي غير اليهود إلى الدين الجديد .

ولقى بولس وزميله برنابا الكثير من النجاح في ضم الأتباع إلى الدين الجديد
وابحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحا مشجعا بين اليهود الكثيرين المقيمين بتلك
الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجاني ممفيلية واجتازا طرقا جبلية وعرة
تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى انطاكيا في بسيديا .

واستمع اليهما الكنيس (اليهودي) ورحب بهما فلما بدءا يعظان الأمم (أى غير
اليهود) كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى
البلدية على اخراج المبشرين من المدينة ونشأت هذه التصاعب في بلاد أخرى مع نفس
المبشرين حيث رجم بولس في لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ،
وترك في العراء ظنا من اعدائه أنه مات .

وسافر بولس إلى كثير من البلاد يبشر بالإنجيل ، حيث لقي الترحيب أنا
والاضطهاد والطرود أنا آخر ، وعندما انتقل إلى سالونيك ، دخل المجمع وظل ثلاثة
أسبات يخطب في اليهود ، فأمن بدعوته عدد قليل منهم ، واسسوا فيها كنيسة
لهم . . . ولكن أهل سالونيك جاءوا يتهمونه بأنه عدو لليهودية فاقلع منها إلى اثينة
على ظهر سفينة وحيدا كسير القلب كاسف البال .

وترامى اليه أن (جماعة المختتنين) قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم
وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهودية اطاعة
كاملة ، فما كان منه إلا أن كتب إلى أهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها
نهائيا عن المسيحيين المتهودين ، بل وعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم
بشريعة موسى بل بإيمانهم القوي الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله وكان يرجو أن
لا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الأمبراطورية باخبار المسيح الذى قام من
بين الموتى وبما وعد به اتباعه المخلصين .

ورآه بعض اليهود في الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين انه هو الرجل الذى يعلم
الجميع في كل مكان ضد الشعب والناموس . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجروه
خارج الهيكل ، وكادوا أن يقتلوه لولا أن انقذته كتبه رومانية - واعتقلوه حتى
لا يقتله اليهود .

واتهمه رئيس الكهنة وبعض الشيوخ بانه مفسد مهيج للفتنة بين جميع اليهود الذين بالمسكونة - ولكنه اعلن أنه يؤمن بكل ما هو مكتوب في الناموس .

وهكذا انفصلت المسيحية من قلب اليهودية بعد صراعات دامت عشرات السنين .

ولقد شغلت المسيحية نفسها لعدة قرون بصراعاتها مع الوثنيين ودون أن تنقل هذه الصراعات إلى اليهودية بشكل حاسم .

ولكن لما تم تغلب المسيحية نهائيا على الوثنية ، واصبحت اليهودية جيوبا صغيرة في محيط المسيحية المتسع ، نشطت الصراعات بين اتباع الدينين .

ونلاحظ أن يهود العصور الوسطى ، كان لهم شريعة ولكن لم تكن لهم دولة ومن ثم كانوا اقلية ضئيلة في بلدان اوربا وافريقيا وآسيا المسيحية .

لم تكن لليهود دولة في العصور الوسطى حيث ظلت اورشليم إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة اسلامية وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين في الدفاع عنها ، فلما سقطت في ايدي الصليبيين ، سيق من بقى فيها حيا من اليهود إلى احدى بيعهم وأُحرقوا عن آخرهم ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ اعقب ذلك ازدياد سريع في عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من انجلترا وفرنسا عام ١٢١١ استقبالا حسنا .

وكان في غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ م وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة ، واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم والا فقا عينهم (٥٨١) .

وكان يهود اسبانيا يلقبون انفسهم سفرديم ، ولما اعتنق الملك ريكارد الدين المسيحي ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء اتباع الكنيسة الاسبانية في مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بمسيحيات أو اقتناء ارقاء مسيحيين وأمر الملك سيزبوت

جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، والغى الملك الذى خلفه هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد عام ٦٣٣ اصدر قرارا ينص على ان اليهود الذين أرغموا على المسيحية ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب أن يفصلوا عن ابنائهم وأن يباعوا ارقاء . وحرم الملك اجيكا على اليهود امتلاك الأراضى كما حرم كل عمل مالى أو تجارى بين أى مسيحي ويهودى (٦٩٣) . وكانت النتيجة أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا اسبانيا فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن أنقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت احدهما لكرسى البابوية انوسنت الثانى واختارت الثانية انكليتس الثانى ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه (الجد اليهودى) وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف صديقا لليهود برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى يقول إن (مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس) - وقد نسى قوله هذا اصل بطرس نفسه - وايدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم الا واحد منهم ، انوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى اوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لانكليتس ، واتهامه بانه يضاجع المحرمات عليه وينهب الكنائس المسيحية ليغنى باموالها اصدقائه اليهود .

وفى عام ١٢١٥ قرر مجلس لاتران أن يلبس غير المسحيين فى البلاد المسيحية شارة خاصة تميزهم عن غيرهم .

وكان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الطاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة فى مهدها وأن الجيل الثانى أو الثالث من اليهود الذين أرغموا على اعتناق المسيحية سوف ينسون يهودية اسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود (المكرهين على المسيحية) أن يرحلوا عن اسبانيا فلما حاولوا الهجرة حرّمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ، ولكن ماذا كان مصير اليهود الذين لم يتنصروا ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين الفا منهم فى اسبانيا المسيحية . فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، اذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، واوصى باكراهم على التنصر أو نفيهم . فتردد

فرديناند ، ذلك انه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين في التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المنتصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سرا . واتهم طبيبه رياس التس ، وهو يهودى تنصر ، بأنه علق في رقبته كرة ذهبية تحتوى على صورة على هيئة تنجيس للصليب ويبدو أن التهمة كانت غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أُحرق (١٤٨٨) . وزيفت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى اسبانيا بأن يدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا وقبض على متنصر بتهمة وجود رفاق مقدسة فى جعبته ، وعذب مرارا فتكرارا حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المنتصرين ومثلهم من اليهود قتلوا طفلا مسيحيا ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحيين . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض احدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق اربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابه متوهجة ، وربما اثرت هذه الاتهامات وامثالها فى نفس فرديناند . ومهما يكن من شىء فقد مهدت لرأى عام يطالب بأجلاء اليهود غير المنتصرين عن إسبانيا .

وفى ٢٠ مارس ١٤٩٢ - وقع فرديناند وابزابلا مرسوم نفى اليهود ومؤداه أن جميع اليهود غير المنتصرين ، ايا كانت أعمارهم أو احوالهم ، عليهم أن يتركوا اسبانيا فى موعد غايته ٢١ يولية ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الاعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة باى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة - ولم يقم اتهام على اليهود سوى رغبتهم فى اغراء المنتصرين بالعودة إلى اليهودية . . . وهكذا انتقلت اموال اليهود إلى ايدى المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة قماش ، وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم ، وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون ايديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس وتحولت مدافن اليهود إلى مراعى . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود ، وترك اسبانيا اكثر من مائة الف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا اطفالهم فوق الثانية عشرة وساعد الصغار الكبار واعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفي العربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون – من رجال دين ودنيا – المنفيين عند كل منعطف أن يعتنقوا المسيحية – فقابل الربانيون ذلك بأن اكدوا لمشييعهم . بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا في البحر كما فعل لأبائهم في القديم . وانتظر المهاجرون الذين اجتمعوا في قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى افريقيا دون أن تبطل اقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل وفرقت العواصف اسطولهم الذي كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشرة منها إلى اسبانيا حيث أثر الكثير من اليهود اليائسين اعتناق المسيحية على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقا .

وفزع جون الثاني ملك البرتغال ، من هذا السيل المتدفق من اليهود الذين بلغوا ثمانين ألفا تقريبا ، فمنحهم ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون . وانتشر منهم إلى المسيحيين ، الذين طالبوا باجلائهم فورا ، فيسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيا لهم سفنا باجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعا أو لسبيهم واسترقاقهم .

وهام مائتان وخمسون يهوديا على ظهر سفينة في البحر اربعة أشهر . فرفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لم يزل متفشيا بينهم واعتقل قرصان بسكاى احدى السفن ونهبوا ركبها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام ، اليهود بين التنصر والموت جوعا ، وبعد أن مات خمسون منهم زودت السلطات الباقيين بالخبز والماء وطالبتهم بالابحار إلى افريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية اشهر ، حتى باع جون الثاني بيع الرقيق ، اولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا في البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية ولما ذهب التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد أثرت بعض الأمهات اغراق انفسهن

وأطفالهن ، على تحمل آلام فراقهم . ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها انفسهم ، فقد حرر اولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهماء على اليهود ، وامر محاكمة أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا اطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا في الوقت نفسه ، وهى ابنة فرديناند وايزابلا ووريثتهما ، حالما أن يوحد العرشين في فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفى من البرتغال جميع اليهود غير المنتصرين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين .

ونخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف ، وأمر جميع اليهود والمسلمين في مملكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر ، وكره أن تباد المهن والصناعات التي تفوق فيها اليهود ، أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة أن يفصلوا عن آبائهم ويتنصروا بالاكراه . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ولكنه نفذ . فقد روى احد الاساقفة (لقد رأيت أطفالاً كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم) . واحتج بعض اليهود على ذلك بؤاد اطفالهم ثم قتل انفسهم واصبح مانويل شرسا ، فعطل خروج اليهود ثم امرهم بأن يتنصروا . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهم ، وقتل كثيرون منهم نفسه في الطريق وارسل المنتصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا اسكندريرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان في مصلحتهم ، لأن مانويل منح اذ ذاك (١٤٩١) جميع المنتصرين كرها اذنا رسميا مدته عشرون سنة لا يقدمون اثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحيو البرتغال رفضوا منافسة اليهود المنتصرين وغير المنتصرين ، فاذا جادل يهودى في معجزة تنسب إلى كنيسة في لشبونة فان الغوغاء يمزقونه اربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة ايام لا يمنعها احد ، وقتل فيها آلاف من اليهود ودفن مئات منهم أحياء .

الحياة اليهودية في البلاد المسيحية : —

كانت الدولة تجبى من اليهود (الفردة) أو ضريبة الرؤوس ، وعوائد الأملاك ، وكانت تصل احيانا إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم

والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ، فضلا عن التبرعات (الاختيارية) للمساعدة على تمويل الحروب ، أو لتتويج الملوك ، أو (مقدمهم) أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم في القرن الثاني عشر ١/١ في المائة من السكان يؤدون للدولة ٨٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم ربع ما جمع من المال لحرب ريتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما ادته مدينة لندن وكان الملك في أى وقت من الأوقات يصادر املاك (يهوده) بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ، ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعا بمقتضى قانون الإقطاع (رجال) الملك . وكان الملك اذا مات ينتهى العهد الذى قطعه لحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى أن يجدد العهد الا اذا قدم اليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ فى بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة . من ذلك ما فعله البرخت الثالث فى عام ١٤٦٣ إذ اعلن أن كل ملك المانى جديد ، يجوز له ، عملا بالسنة القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث املاكهم) ولقد لخص براكن كبير المشرعين اليهود فى القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : (ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص لأن ما يحصل عليه ايا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . فايطاليا تحمى اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهود أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » . لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، من ذلك أن قانون ثيودوسيوس (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود فى المناصب التى من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وامر مجلس اورليان (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الامر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم فى المناصب العامة . وحرّم مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) على القابلات أو الممرضات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير (٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ، ورد مجلس أفنيون

(١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود لخدم من المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود وأمر بتجنبهم لنجاستهم . وأعلنت بعض المجالس الغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ، وأحرق شماس في عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين اليهودي وتزوج يهودية . وحرمت أرملة يهودية في عام ١٢٤٣ من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحي قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما وأصدر مجلس لاتران الرابع في عام ١٢١٥ قرارا يحتم « على اليهود والمسلمين ذكورا كانوا أو إناثا - في كل ولاية مسيحية وفي جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم في أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحيانا فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص - ويكون ذلك بالنسبة للرجال في غطاء الرأس أو الجبة وبالنسبة للنساء في أقنعتهم .

وكان نوع الشارة المميزة تعينه محليا حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت في العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط في مكان ظاهر فوق الملابس : ونفذ هذا القرار في إنجلترا عام ١٢٧٩ ، ثم في اسبانيا وإيطاليا والمانيا .

وكان من الشعائر المعتادة في بزيير ايام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى اليهودى ، وفي طولون أرغم اليهود على أن يبعثوا بمثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفقة على اذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية . وفي عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود في بلوا بحجة استخدامهم دما مسيحيا في شعائر عيد الفصح اليهودى . ورأى الملك فيليب أغسطس الفرصة سانحة لبيتز منهم المال محتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين ثم أمر باطلاق سراحهم بعد أن افتدوا انفسهم بمال كثير (١١٨٠) ، غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد وصادر جميع املاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفي عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا في أورنج لأن ولاية الأمور في المدينة شنقوا احد عماله لقتله احد

اليهود . وفي عام ١٢٣٦ دخل الصليبيون الأحياء اليهودية في انجو وبواتو وغيرها وأمروا بأن يعمد اليهود جميعا ، فلما ابوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه أن لا يجادلوا اليهود في أمور الدين ، وقال لجوانفيل إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : (اذا سمع انسانا يذكر الدين المسيحى بما لا يليق أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه في بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه) .

وفي عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصودرت املاكهم ومعابدهم ، ثم سمح لهم بدخولها ، وردت اليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فيليب الجميل (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع ولم يستثن الا ما كان عليهم من الثياب ثم طردهم جميعا من فرنسا وكانوا يبلغون مائة الف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من طعام ليوم واحد . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدرا اغراه بأن يهدى معبدا يهوديا إلى سائق عربته .

وكان اليهود يكثرون ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم ؛ غير أن قصصهم كانت تنقل اليها ما كان لهذه الفترات المخزنة من ذكريات مرة وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه في ساعة الاستشهاد . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لابسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة ، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات) .

ولاقى يهود (الشتات) أقل العناء في ظل السلاطين الأتراك والبابوات في فرنسا وإيطاليا ، وعاشت الأقليات اليهودية آمنة في القسطنطينية وسالونيك وفي ظل الحكم الاسلامى بصفة عامة .

الفصل الثانى

صراع اتباع اليهودية والإسلام

ذكرنا فى الأوراق السابقة أن هذا الكتاب يتعرض بصفة اساسية لمحاولات طرف فرض عقيدته الدينية على طرف آخر بالقوة أو بالقهر .

وقد تستعمل فى هذه الوسائل اسلحة القتل والتعذيب والحرق والسجن والتحقير والاذلال والحصار الاقتصادى . . . الخ . . . وذلك بهدف رضوخ الطرف المعتدى عليه لعقيدة الطرف الآخر .

وفى ضوء ذلك ، فاننا نلاحظ من استقراءنا لوقائع التاريخ ، قلة الأحداث التى حاول فيها المسلمون فى صراعاتهم مع أتباع اليهودية (والمسيحية) فرض عقيدتهم الدينية على الآخرين .

وعند استعراضنا لاحوال الصراعات بين أتباع الإسلام الناشئ بقيادة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وبين أتباع اليهودية سنرى أن هذه الصراعات ، كما سيبين ذلك من الأوراق التالية ، لم تهدف على وجه الإطلاق ، من جانب الرسول ﷺ ، إلى فتنة اليهود عن دينهم . . . ولكن العكس هو الصحيح ، أى أن هذه الصراعات كان الهدف منها ، من جانب اليهود ، هو فتنة المسلمين عن دينهم ، لا لمصلحة تهويدهم كما هو متوقع منطقياً ، ولكن لمصلحة اعادتهم للشرك .

ولقد سبق أن استعرضنا في الفصل السابق صوراً من صراعات اليهود والمسيحيين وهى من الكثرة والضرارة والاستمرارية مما لا نجد له مثيلاً في صراعات أتباع الإسلام مع أتباع الأديان الأخرى .

وكانت بداية الصراعات الدينية بين أتباع اليهودية والإسلام بعد استقرار النبي (عليه الصلاة والسلام) في يثرب (المدينة المنورة) . . . ففي يثرب كان يقيم الكثير من اليهود وكانت لهم علاقات جوار وعلاقات تجارية مع كل من قبيلتي الأوس والخزرج (أهل يثرب الأصليين) والذين فشا فيهم الإسلام .

وكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود وعاهدهم وافرهم على دينهم واموالهم ، بعد هجرته إلى يثرب جاء في هذا الكتاب . . .

« وان المؤمنين لا يتركون مغرمأ (المثل بالدين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل وأن من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة (المساواة في المعاملة) غير مظلومين ولا متناصر عليهم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بنى عوف امة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم الا من ظلم أو اثم فانه لا يوقع (يهلك) الا نفسه واهل بيته . وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى ثعلبة ولجفنه ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن بطانة اليهود كانفسهم . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

ويلاحظ أن هذه الوثيقة قررت حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة وبذلك اصبحت المدينة وما وراءها حرماً لاهلها ، عليهم أن يدفعوا كل عادية عليها . وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قرره هذه الوثيقة من الحقوق ومن صور الحرية .

ولكن ، خاف اليهود انتشار دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزيادة قوته رغم رواج تجارتهم في ظل السلام معه ، خاصة بعد أن اسلم أحد زعمائهم وهو عبد الله بن سلام واليهود لا يؤمنون بنبوة غير موسى ويعتبرون انفسهم شعب الله المختار غير أن اسلام احد علمائهم غير من موقفهم كثيرا خشية أن يتبعه القلة أو الكثرة فاذاعوا عن عبد الله بن سلام مقالة السوء في أحياء اليهود كلها ، وأجمعوا امرهم على أن يكيدوا لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وينكروا نبوته وما كان اسرع أن اجتمع اليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن اسلم فيهم نفاقا جريا وراء مغنم أو ارضاء لذي عصبية وبأس .

وهنا بدأ حرب جدل بين الرسول ﷺ واليهود اشد لدا واكبر مكرا من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة . وفي هذه الحرب الثرية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم باخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين . ودس اليهود من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ، ثم ما لبث بين الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب ويلقى على الرسول ﷺ من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته . وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين اسلموا نفاقا ايضا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين . وبلغ من تعنت اليهود أن سألوا الرسول ﷺ : إن كان الله قد خلق فمن خلق الله ؟ وكان الرسول ﷺ يجيبهم بقوله تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا احد) .

وحاولوا الوقعة بين المسلمين من (الأوس والخزرج) وذلك حين مر أحدهم (شماس بن قيس) على نفر من الاوس والخزرج في مجلس جمعهم ، فغاضه صلاح ذات بينهم وقال في نفسه : قد اجتمع ملائ بنى قيلة بهذه البلاد وما لنا اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . وأمر فتى شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز الفرصة ويذكر فيها يوم بعث وما كان من انتصار الاوس فيه على الخزرج . وتكلم الغلام ، وذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها . وبلغ الرسول ﷺ الأمر ، فخرج اليهم فيمن معه من اصحابه ، فذكرهم بما الف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم اخوانا متحابين . وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضها واستغفروا الله جميعا .

وبلغ الجدل بين الرسول ﷺ واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه - فقد نزل صدر سورة البقرة إلى الآية ٨١ ، ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وانكارهم ما في كتابهم ويلعنهم لكفرهم وانكارهم أشد اللعنة

وبلغ الجدل بين اليهود والمسلمين حدا كان يصل أحيانا مع ما كان بينهم من عهد . . . إلى الاعتداء بالأيدى .

وكان أبو بكر في حديث مع فتى يدعى فنحاص يدعوه فيه إلى الإسلام ، فرد فنحاص بقوله : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وانه الينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع الينا . وأنا عنه اغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صالحكم . . . وينهاكم عن الربا ويعطينا فغضب أبو بكر وضرب وجهه فتخاص ضربا شديدا . . . وقال : والذي نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله

ولم يكتف اليهود بالوقعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردهم إلى الشرك دون محاولة تهويدهم . بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة النبى ﷺ نفسه . . . وحاولوا اقناعه بالجللاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش هو وأصحابه عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا إلى بيت المقدس وكان به مقامهم . وأنه إن يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم الخ .

وانكر اليهود تحول القبلة إلى المسجد الحرام (بيت إبراهيم وإسماعيل) بدلا من بيت المقدس . . . وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم انهم يتبعونه اذا هورجع إلى قبلته .

واجتمع ممثلو الديانتين (اليهودية والمسيحية) عند الرسول ﷺ في يثرب حيث مثل المسيحية وفد نجران الذين جاؤوا يثرب حين علموا بالخلاف بين النبى واليهود

وثار جدل بين أتباع هذه الأديان ، فأما اليهود فكانوا ينكرون رسالة عيسى والرسول ﷺ انكارا تاما ، ويزعمون أن عزيرا ابن الله . وأما النصارى فكانوا

يقولون بالتثليث والوهمية عيسى ، وأما الرسول ﷺ فكان يدعو إلى توحيد الله وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالم من ازله إلى ابدته .

كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ واسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ من ربهم لا نفرقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مُسلمونَ) البقرة ١٣٦ .

واكد لهم أن ما جاء به عيسى وموسى ومن تبعهم لا يختلف في شيء عما جاء به به ، هذه الحقيقة التي تتكشف لمن نظر إلى الكون على أنه وحدة متصلة نظرة سامية فوق اهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

آل عمران : ٦٤

وادلى ابو حارثة ، اكثر نصارى نجران علما ومعرفة إلى رفيق له باقتناعه بما يقول النبي ﷺ ، فلما سأله رفيقه عما يمنعه منه وهو يعلم هذا . . . كان جوابه بمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا واکرمونا وقد ابوا الا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ثرى .

دعا الرسول ﷺ اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يلاعن النصارى ، فاما اليهود فكان بينهم وبينه عهد المودعة . اذ ذاك تشاور النصارى ثم اعلنوا اليه أنهم رأوا أن لا يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم . ولكنهم رأوا حرص الرسول ﷺ على العدل حرصا احتذى اصحابه فيه مثاله ، فطلبوا اليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم في اشياء اختلفوا عليها — وبعث الرسول ﷺ معهم ابا عبيدة بن الجراح ليقتضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

وفطن المسلمون لدس اليهود — وبلغ من ذلك أن حشروهم في رمز المنافقين بل اعتبروهم شرا منهم ، فاخرجوهم من المسجد اخراجا عنيفا — وابوا عليهم أن يجلسوا اليهم أو أن يتحدثوا معهم ، وانتهى النبي عليه السلام إلى الاعراض عنهم

بعد أن حاول اقناعهم بالحجة والدليل وكان لابد من اشعارهم بقوة المسلمين ومن ثم كانت السرايا التي لم تنتهى بقتل (سرايا استعراض) . . .

وعندما انتصر المسلمون في واقعة بدر ، ارسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة ليبشر بالنصر اهل المدينة . . . وكان على ناقة النبي القصواء ، وسر المسلمون بالنصر ، اما الذين بقوا على الشرك ، واما اليهود ، فقد كتبوا لهذا النبا ، وحاولوا أن يقنعوا انفسهم وان يقنعوا الذين اقاموا بالمدينة من المسلمين بعدم صحته ، فصاحوا ، إن محمدا قتل واصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعا ، لو أنه انتصر لبقيت عنده ، وانما يقول زيد ما يقول هذيانا من الفزع والرعب . . . ولكن الخبر ما لبث أن تأكد وعم السرور بين المسلمين . . . ورأى المشركون والمنافقون أن موقفهم اصبح موقف هوان ومذلة حتى قال احد زعماء اليهود : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب اشراف الناس وساداتهم وملوك العرب واهل الحرم والأمن (من قبيلة قريش) .

وبعد هذا النصر ، بدأت طوائف اليهود والمشركين تتآمر ضد الإسلام ، وبدأت تغرى بهم وترسل الأشعار في التحريض على المسلمين . وبذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة ، وانتقل من الدين إلى السياسة . . . وبدءوا يفكرون في اغتيال النبي ﷺ وجعل كل من الفريقين يتربص بالآخر .

وكان المسلمون الى حين نصرهم بيدريخون مواطنيهم من أهل المدينة فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على ابى عفك لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على النبي ﷺ ، وعلى المسلمين ، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك بعد بدر يغرى الناس ، وانتهى الامر بقيام سالم بن عمير بقتل ابن عفك .

كما تم قتل عصماء ، بنت مروان لأنها كانت تعيب الإسلام وتؤذى النبي ﷺ وتحرض عليه وظلت كذلك إلى ما بعد واقعة بدر .

كما تم تدبير مؤامرة تم فيها قتل كعب بن الأشرف وهو الذي قال حينما علم بمقتل سادات مكة : (هؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها) وهو الذي ذهب إلى مكة لما تيقن

الخبر يحرض على محمد وينشد الأشعار ويبكى اصحاب القليب . وهو الذى رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين .

وقدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سهو منها فاثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواؤها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديا ، فقتله وشددت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ اهل المسلم بالمسلمين على اليهود . فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع وطلب محمد ﷺ إلى هؤلاء أن يكفوا عن اذى المسلمين وأن يحفظوا عهد المودة أو ينزل بهم ما نزل بقريش فاستخفوا بوعدده واجابوه : (لا يغرنك يا محمد انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس) .

وحاصر المسلمون بنى قينقاع وانتهى الأمر بجلاتهم عن المدينة ، تاركين وراءهم السلاح وادوات الذهب الذى كانوا يصوغون ، وذلك وفقا لشروط النبى ﷺ .

وفزع من بقى من يهود المدينة فلزموا دورهم مخافة أن يتم اغتيالهم مثلما حدث مع كعب بن الأشرف ، وزاد فى فزعهم أن أهدر النبى دماءهم بعد الذى كان من أمر بنى قينقاع وحصارهم . فجاءوا إلى النبى يشكون اليه امرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلة بلا جرم ولا حدث علموه . فكان جوابه لهم : أنه اذانا وهجانا بالشعر ولو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اصابه شر وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتابا يحترمونه . وخافت اليهود وذلت وان بقى فى نفسها من محمد ﷺ مابداً من بُعد اثره .

ونقض يهود بنى النضير العهد ، وهموا بالغدر بالرسول فامهلهم عشرة ايام للجلاء والا ضربت منهم الاعناق فرفضوا الجلاء وحوصرت بنو النضير ، ثم استسلمت على شرط الجلاء ورحلوا .

واختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين عند اليهود من بنى النضير بعد واقعة احد ، وطلب زعمائهم معونة قریش فى حربهم ضد محمد ﷺ كما اكدوا أن يهود بنى قريظة مقيمون بالمدينة مكررا بمحمد إلى حين قيام قریش بقتله فيميلون معها .

وقالت قريش لليهود : ايا معشر يهود ، انكم اهل الكتاب الأول واهل العلم بما
اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، افديننا خير أم دينه ؟ فقالت اليهود : بل دينكم
خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه ؟ .

وذهب وفد اليهود إلى كثير من القبائل لتحريضهم على المسلمين ويذكروهم
بشأركم عندهم ، ويحمدون لهم وثنياتهم ويعدونهم النصر لا محالة . وخرجت
الاحزاب التي جمع اليهود لحرب محمد واصحابه : من قريش ومن غيرها وكان أن قام
المسلمون بحفر الخندق - الذي حاصره المشركون بمعونة اليهود .

ولما طال الحصار دون جدوى ، خشى حبي بن أخطب زعيم اليهود وقائد فكرة
تأليب العرب على محمد ، خشى انصراف قريش والاحزاب - فيصلي اليهود
وحدتهم نار المسلمين - وكان بنو قريظة متمسكين بموادعتهم للنبي ﷺ ولو نقضوا
هذا العهد لانقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية ، وفتح الطريق لدخول يثرب من
ناحية اخرى وبذل حبي بن اخطب جهده لاقتناع زعيم بني قريظة بالتخلي عن
محمد حتى وافق وخرج عن حياده علانية وقطعت بنو قريظة المدد والميرة عن محمد ﷺ
 واصحابه .

واستعمل الرسول ﷺ الحيلة ، وبهذه الحيلة تفرقت الأحزاب كما كان
لهبوب الرياح والزوابع اثر في نكوصها .

وبعد رحيل الأحزاب جاء الدور على بني قريظة ، وانتهى الامر ، بعد
حصارهم ، بقتل الرجال وسبي النساء والولدان وقسمة اموال بني قريظة على
المسلمين .

وبعد هذه العداوات بين اليهود والمسلمين ، كان لابد من القضاء على آخر
موقع لليهود في جزيرة العرب وهو خيبر اذ اصبح لا امان لهم بعد ما حدث
منهم من نقض العهد .

وانهزم اليهود ، وأبقى من بقى منهم على ارضهم على أن يقتسم ناتج الأرض
معهم وكان رسول النبي ﷺ في هذا العمل عبد الله بن أبي رواحة واعاد النبي
نُسخ التوراة إلى اليهود والتي كانت من نصيب غزاته .

كما استسلم يهود فدك دون قتال بعد ما رأوه من طلب يهود خيبر الصلح واستسلم يهود وادي القرى بعد قتال بسيط ، اما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال .

وبانيهار سلطان اليهود خفت بغضاء المسلمين ، والأنصار منهم خاصة ، لهم ، وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ، ووقف النبي ﷺ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبي وعزى ابنه ، وأوصى معاذ بن جبل بالآلا يفتن اليهود عن يهوديتهم ، ولم يفرض الجزية على يهود البحرين وان ظلوا متمسكين بدين آبائهم ، وصالح بني غازية وبني عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية .

على أن اذعان اهل خيبر من سائر اليهود لمصيرهم لم يقع مرة واحدة بعد هزيمتهم ، بل كانت نفوسهم ملأى بالغل والغضب . واهدت امرأة منهم الى النبي ﷺ شاة مسمومة - وزادت هذه الفعلة من عوامل عدم الثقة بين المسلمين واليهود^(٩) .

هذا عن صراعات أتباع اليهودية مع أتباع الإسلام الناشئة

اما عن صراعات أتباع اليهودية مع أتباع الإسلام ، بعد ذلك . . . فانها صراعات غير علنية من جانب اليهود . . . فكان من ضمن صراعاتهم وحروبهم ضد الإسلام ما فعله عبد الله بن سبأ اليهودي والمتظاهر بالإسلام ، من بدع في الدين سيأتى ذكرها . . . ثم قيادة هذا المتظاهر بالإسلام للفتنة التي اودت بحياة عثمان بن عفان . . . ثم قام اليهود بعد ذلك بدس احاديث غير صحيحة عن النبي ﷺ وهو ما اصطلح علماء الحديث على تسميتها بالاسرائيليات .

اما الصراعات التي حدثت بعد ذلك ، أى بعد عهد الخلفاء الراشدين واصاب فيها اليهود بصفاتهم الدينية ، بعض الاضطهاد من المسلمين فسوف نجدها على قلتها ، في الفصل التالى حيث اشترك اليهود مع المسيحيين بصفاتهم اهل الذمة في الاضطهادات التي اوقعها عليهم بعض الحكام المسلمين .

الفصل الثالث

صراع اتباع المسيحية والإسلام

لم أعر على أى شكل من أشكال الصراع الدينى بين أتباع المسيحية وأتباع الإسلام فترة حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

بل إن ما لدينا من وثائق فى القرآن الكريم يؤكد مؤازرة الإسلام ونبه للمسيحيين فى حروبهم ضد الفرس الوثنيين. . . وذلك أن الإسلام ، كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة إلى الذين آمنوا ، وأن القرآن جاء مؤيدا ، للإنجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين فى صدر الإسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل أنه لما وقعت الحرب بين الروم والفرس . وتغلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزنا شديدا ، فنزلت الآية (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس فى بضع سنين ، فرح الصحابة فرحا شديدا ولم يكن ذلك لأن الروم أقرب لهم جنسا من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة للعرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة النار لم يكن الله شرح صدرهم للإسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبوبكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيرا فى خطبته المشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضا فى التاريخ

ثم نلاحظ ، بعد ذلك ، رسالات النبي ﷺ لقيادات الفرس والمسيحيين وكلها تدعو إلى الدخول في دين الإسلام بالكلمة المكتوبة المهدبة التي لا تحمل أى تهديد أو وعيد بالحرب أو تغيير العقيدة الدينية بالقوة . . .

ويجىء وفد عن مسيحيي نجران ، ويقابل النبي ﷺ ويجادله في الدين ، ثم لينتهى هذا المؤتمر بثبات كل طرف على عقيدته الدينية مع احترام عقائد الآخرين . وقبل ذلك رحب ملك الحبشة المسيحي بمهاجري المسلمين ، ترحيباً أدى بالبعض إلى الاعتقاد أن هذا الملك قد اعتنق الإسلام .

وإذا طالعنا الاشتباكات الحربية بين النبي ﷺ وبين أتباع المسيحية المتمثلة في الروم والذين كانت بلادهم تشمل ، في ذلك الوقت أوربا وشمال إفريقيا وشرقي آسيا . . . نقول إذا طالعنا هذه الاشتباكات سوف نلاحظ أن أسبابها كانت خارجة تماماً عن مجال الصراعات الدينية .

فغزوة مؤتة ، يرجع السبب فيها إلى احتمالين ، أما أنها بسبب قتل رسول النبي ﷺ إلى عامل بصرى بالشام ، وأما إلى مقتل رجاله الخمسة عشر في ذات الطلح . . .

وهذه ليست أسباب دينية بأية حال

وعلى كل حال فقد انتهت هذه الغزوة بانسحاب مشرف لجيش المسلمين حيث حشدت الروم في جيشها ما بين مائة الف ومائتين بينما جيش المسلمين لا يزيد عن ثلاثة آلاف .

وترجع غزوة تبوك إلى ما اتصل بالرسول ﷺ من بلاد الروم أنهم يجهزون جيشاً لغزو حدود العرب الشمالية غزوا ينسى الناس انسحاب العرب في مؤتة ، وينسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليتأخم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في الحيرة . . .

واتصلت هذه الأنباء بالرسول ﷺ مجسمة أيما تجسيم ، فلم يتردد هنيهة في تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه ، والقضاء عليها قضاء يقضى في نفوس ساداتها على كل أمل في غزو العرب أو في التعرض لهم .

وانت ترى من هنا العرض أن الرسول ﷺ وامته كانوا في جانب الدفاع عن النفس وعن العقيدة - ولم يكن عنده او عند اصحابه هدف لفتنة الروم عن ديانتهم في هذه الحرب .

وعلى كل حال فلم يحدث قتال في هذه المعركة ، لانسحاب الروم .

وارجو ملاحظة أن النبي ﷺ كان يجمع في شخصه ، منذ هاجر إلى يثرب ، صفته كحاكم سيناى لدولة لم تلبث أن شملت جزيرة العرب كلها ، وصفته كرسول يبلغ النظام الإسلامى للبشر من لدن الله سبحانه وتعالى - ومن واقع مسئوليته كرئيس كانت تقع عليه مسئولية الحفاظ على بيضته . . . أى على دولته وعلى حدودها وعلى شعبها وعلى مصالحه العقائدية والاقتصادية من أى سوء .

ومن هذا المنطلق تكون كل من غزواتى ، مؤتة وتبوك من الغزوات ذات الابعاد السياسية .

وتوفى النبي ﷺ - وتولى أبو بكر ، وفي حياته لم نعثر أيضا على صراعات دينية بالمعنى المتقدم رغم غزواته العسكرية الناجحة فى بلاد الروم والفرس .

ثم يجىء عهد عمر بن الخطاب وقد اتسعت الدولة الإسلامية الناشئة لتبتلع نصف الامبراطورية الرومانية وكل الامبراطورية الفارسية .

وهنا اصبح الحاكم فى هذه البلاد يعتنق الديانة الإسلامية بينما غالبية أهل هذه البلاد يعتنقون المسيحية ، أو الزرادشتية (الفارسية) أو اليهودية وغيرها .

ونلاحظ أن عمر بن الخطاب قد حسم موضوع المعاملة الدينية بين المسلمين والمسيحيين اتباعا لما لاحظناه فى سنة النبي ﷺ . .

واليك ما قاله المقرئى عن هذا الموضوع :

يذكر علماء الأخبار من النصارى أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما فتح مدينة القدس كتب للنصارى امانا عن انفسهم واولادهم ونسائهم واموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأنه جلس وسط صحن كنيسة القيامة فلما حان وقت الصلاة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ثم جلس وقال للبطرك لو صليت داخل الكنيسة لآخذها المسلمون من بعدى وقالوا ها هنا صلى عمر .

وكتب كتابا يتضمن انه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة الا واحدا واحدا ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها ولا يؤذنون فيها . . . وأشار البطريرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا وكان فوقها تراب كثير فتناول عمر رضى الله عنه من التراب فى ثوبه فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شيء وعمر المسجد الأقصى امام الصخرة . . .

ثم إن عمرا أتى بيت لحم وصلى فى كنيسة عند الخشبة التى ولد فيها السيد المسيح وكتب سجلا بايدى النصارى أن لا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين الا رجل بعد رجل ولا يجتمعون فيه للصلاة ولا يؤذنون عليه . .

ويتكلم بعض المستشرقين عن قيام بعض خلفاء بنى أمية باكره البربر فى شمال افريقيا على الإسلام .

وهذه لا شك صورة نادرة لا تؤثر على المسار العادى للتاريخ ، كما لا تقوى على تغيير أى نص من نصوص الشريعة الإسلامية .

وعلى كل حال فإن الأمر كان قاصرا على هذه الواقعة بالذات .

وذلك أن صورة التسامح الدينى ، فى العهد الأموى ، فى شمال أفريقيا قد اختفت ، فهناك ابدت قبائل البربر مقاومة شديدة .

وعندما نجح العرب نهائيا فى فتح ولايات شمال افريقية ، هاجر الكثير من سكان البلاد الأصليين إلى إيطاليا وغالة . اما كنيسة افريقية التى كانت ذات صيت فى الأخبار التاريخية المسيحية فقد قاست صدمة شديدة . ويعقب شارل دبل قائلا : (ولمدة قرنين من الزمان رفعت الإمبراطورية البيزنطية من هذا الجزء من الشمال الأفريقى تقاليد الحضارة القديمة ، وحولت البربر إلى حضارة امتدت بالدعاية الدينية ، وفى خمسين سنة افسد الغزو العربى كل هذه الأعمال العظيمة) .

وكان السبب فى ذلك المقاومة العنيفة التى أبدتها البربر فى مقاومة الفتح الإسلامى ولمدة خمسين عاما ، مما ادى إلى رد العنف بالعنف . . . ولكن ، فى النهاية ، وبعد أن اصبحت شمال افريقيا عربية طبق العرب سياسة التسامح الدينى ، ولم يتعمدوا أن يصيبوا كنيسة افريقية . .

كما حدثت بعض الثورات في مصر لأسباب أهمها ظلم بعض الولاة وتحميلهم للناس فوق ما يطيقون في أموالهم وقمعت هذه الثورات في عنف .

وتنقسم الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية إلى أربع مراحل حسب القوة المؤثرة في الصراع في كل مرحلة ، وهي : -

١ - مرحلة استيلاء المسلمين على ولايات الامبراطورية البيزنطية في شمال افريقيا ومصر والشام .

٢ - مرحلة الحروب الصليبية .

٣ - مرحلة فتح القسطنطينية وقوة (الخلافة الإسلامية التركية) .

٤ - مرحلة انهيار الخلافة الإسلامية التركية وسيطرة الغرب المسيحي .

وسيتم الكلام عن المرحلة الأخيرة في الباب التالي .

١- الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية

حتى الحروب الصليبية

- مظاهر الصراع في الشرق الإسلامي :

كان ظهور الإسلام في القرن السابع حدثا قدر له أن يغير الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للعالم المعروف وقتذاك . وحين اندفع العرب في أول الأمر من الصحراء صوب اطراف الشام ردوا على أعقابهم دون أن يلفت ذلك الحادث الأنظار كثيرا ، كانت غلطة عدم الاكتراث للحادث عالية الثمن . وبعد أن استطاع العرب اقتطاع الشام وفلسطين ومصر وشمال افريقية من الإمبراطورية البيزنطية ، ظلت بيزنطة تنظر إلى الإسلام كنوع من الهرطقات الدينية أو كمذهب من مذاهب المسيحية الأخرى . ولقد تناول الأدب البيزنطي الإسلام بالهجوم بنفس الطريقة التي فعل بها مع المونفيزية وكل ما هو تابع للهرطقات الأخرى التي اثارت الجدل والكثير من النقاش في بيزنطة وفي المجامع الدينية التي عقدت من أجلها . وحتى أشهر اقطاب الجدل المسيحي البيزنطي وهو يوحنا الدمشقي لم ينظر إلى الإسلام على أنه دين جديد ، بل اعتبره انشقاقا عن العقيدة المسيحية الحقنة . فقد

ذكر في مؤلفه الضخم (خلاصة الهرطقات) أن الإسلام واللايقونية من الهرطقات الخارجة عن الديانة المسيحية .

ولم يعط المؤرخون البيزنطيون اهتماما كبيرا لظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) والحركة السياسية التي بدأها . فقد نظر البيزنطيون إلى الإسلام والرسول عليه السلام نظرة حقد وتعصب وكراهية . فقد قال ثيوفانيس عن محمد صلى الله عليه وسلم (. . . انه حاكم المسلمين والرسول الكاذب) .

كذلك نظر الغرب الأوربي إلى محمد نفس النظرة البيزنطية ، أى لم ينظروا إلى الإسلام كدين جديد متميز بل كمذهب مسيحي شبيه في تعاليمه بالاريوسية - وحتى في اخريات العصور الوسطى ، اعتبر الشاعر الفلورنسى دانتي اليجيري ، في ملحمة الشعرية الكوميديا الإلهية ، محمدا (صلى الله عليه وسلم) هرطوقيا - واطلق عليه ظلما عبارة (زارع الافتراء والانشقاق) .

ولم تدرك الدولة البيزنطية ابعاد رسالة الإسلام التي حمل العرب لواءها ، حتى بعد أن سقطت اقاليم الشام وفلسطين ومصر في ايديهم . وربما ليس غريبا أن تشعر بيزنطة وحتى نهاية القرن السابع ، أن هذه الأقاليم لم تضع نهائيا ، واعتبرتها تحت احتلال مؤقت . ويبدو أن التناقض الديني بين الدولة البيزنطية والدولة العربية لم يأخذ شكلا حادا في الفترة الأولى من قيام الدولة العربية ، ويرى بعض العلماء أن الضغينة الدينية بين المسيحيين والمسلمين لم تكن شديدة خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين (الأول والثاني الهجريين) مثلما أصبحت فيما بعد .

وإن نظرة بيزنطة إلى الإسلام ، وكذلك نظرة الغرب الأوربي إليه ، كانت وراء تلك الكلمات التي نقابلها في المصادر اليونانية واللاتينية القديمة التي تصف العرب المسلمين بالكفرة وغير المؤمنين . ولكن هل أدى هذا التناقض الديني بين الدولة البيزنطية والدولة العربية ورصل إلى حد التعصب الديني ؟ يرى فنلاي أن الفاظ الشتائم التي تقاذفها جستنيان الثاني والوليد بن عبد الملك كل إلى الآخر بخصوص الديانة ، كانت نتيجة للعجرفة الشخصية والاستبداد أكثر منها نتيجة لأي تعصب ديني - وربما كان هذا امرا واردا لأن الإمبراطور جستنيان الثاني وكذلك

الحليفة الوليد تميزا بالاستبداد والاعتداد بالنفس ، وكان الامبراطور متهورا متدفعاً - ومن امثلة تهور واندفاع الامبراطور جستنيان الثانى تهديده بوضع نقش مهين للإسلام على عملته الذهبية ، حين أمر عبد الملك بن مروان بوضع صيغة دينية اسلامية على البردى و طراز الثياب المخصصة للتصدير .

ولعله من هنا يمكن القول إن الحروب بين البيزنطيين والأمويين لم تكن حروبا دينية فقط بقدر ما كانت حروبا سياسية من أجل السيادة . ولكن رغم تلك الحقيقة فقد حاولت الإمبراطورية البيزنطية منع قيام علاقات بين الرعايا البيزنطيين والمسلمين ونظرت إلى أية علاقة على أنها خيانة وعمل لا يغتفر .

ورغم أن الحروب التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن حروبا دينية فى المقام الأول ، الا أنها فى بعض الأحيان كانت تأخذ سمة الحرب المقدسة أما النتائج فلم تكن مقنعة سواء بالنسبة للبيزنطيين أو المسلمين فالبيزنطيون فشلوا فى الحصول على بيت المقدس كما فشل العرب فى الاستيلاء على القسطنطينية ، رغم محاولاتهم المتكررة ، وحين كانت الحرب تأخذ سمة الحرب المقدسة نجد روح الجهاد الإسلامى قوية لدى المسلمين ، خاصة فى حصارهم العنيف للقسطنطينية سنة ٧١٧/٩٨ هـ ، وكانت تلك الروح والحماسة التى صاحبته تدفع الفرد إلى ان يلقى بنفسه فى احضان الموت طلبا للجنة .

واذا كانت هذه نظرة بيزنطية للإسلام ، فان العرب المسلمين نظروا إلى الديانة المسيحية نظرة واقعية كدين من اديان السماء ، واعتبروا رعاياهم المسيحيين من أهل الكتاب ونظروا نظرة تختلف عن نظرتهم إلى الكفرة المشركين . وتميز العرب المسلمون فى معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بالتسامح الدينى فتركوا لهم الكنائس ، وسمحوا لهم باداء شعائرتهم الدينية ، ولم يطلبوا سوى دفع الجزية المحددة فضلا عن الولاء السياسى الثابت للحكم العربى ، وظل بيت المقدس مفتوحا للحجاج المسيحيين الذين حضروا إلى فلسطين من اماكن نائية فى الغرب الأوربى للعبادة .

وكان الرعايا المسيحيون يعرفون فى الدولة العربية بأهل الذمة هم واليهود ذلك أن الإسلام شملهم بالامان ، وصانعهم بالعهود والمواثيق . ولقد اتاح ذلك لأهل

الذمة أن يتمتعوا بقسط وافر من الحرية مقابل دفع الجزية . ولكن يجب أن يلاحظ انهم لم يكونوا من صميم المجتمع الدينى دى السيادة فى البلاد بل كانوا فى منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية . وظل مرجعهم فى الأمور المدنية والقضائية إلى رؤسائهم الدينين الا فى القضايا التى مست المسلمين . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز حريصا على العدل فى معاملته للرعايا غير المسلمين وحمى للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التى ضمنها لهم الصلح .

واليك بياناً بأهم الصراعات التى تسبب فيها بعض الحكام المسلمين فى مصر على سبيل المثال ، وعلى عكس ما حاء فى احكام الدين الإسلامى .

١ - بعد غزو العرب لمصر بسبعين عاما تقريبا ، بدأ الأقباط يقاسون السلب والاضطهاد بالرغم من الرعاية والمزايا التى منحت لهم أول الأمر ، إلى درجة ان كثيرا منهم لجأوا إلى السلاح محاولين الدفاع عن حقوقهم ، غير أنهم هزموا بعد مذبحة كبيرة . وفرض على كل راهب ، لأول مرة ، دينارا جرية سنوية وكان جامع الضريبة يسم يد كل راهب يقابله بختم من الحديد ، وبعد ذلك يقطع يد كل شخص من هذه الطبقة يكتشفه غير موسوم ، ويأخذ عشرة دنانير من كل مسيحي آخر ليس معه ايصال من الحكومة يثبت دفعه للجزية وقد وجد كثير من الرهبان فيما بعد بدون وسم ، فضرب عنق البعض ، وضرب الآخرون حتى الموت ، وهدمت كنائسهم واتلفت صلبانهم وصورهم . وقد حدث ذلك عام ١٠٤ هـ (٧٢٢ - ٧٢٣ م) فى اخر حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك

٢ - بعد ذلك بسنوات قليلة ، فى عهد خليفة هذا الأمير (هشام) عمل حنظلة بن صفوان ، حاكم مصر ، على وسم يد كل قبطى بختم حديدى يحمل صورة أسد وعلى زيادة بؤسهم زيادة شديدة ، ولذلك ثار كثير من سكان الريف مرة أخرى ولجأوا إلى السلاح ، ولكن بدون جدوى ، وتبع ذلك اضطهاد فظيع .

٣ - فى عهد هذا الخليفة (هشام بن عبد الملك) كان يتم التلاعب فى ملكية كنائس مصر كلها ، فمرة يتم تملكها لليعاقبة (غالبية مسيحي مصر) ومرة يأمر الخليفة بتمليكها لاتباع العقيدة الملكية (المسيحية) تبعا للهدايا التى تصل اليه من أى طرف من الأطراف .

٤ - في عام ٥٣٥ هـ (٨٤٩ - ٨٥٠ م) أمر المتوكل أن تتخذ ملابس الأقباط عميرات مذلة . فألزم الرجال بلبس عباءه وقلنسوة (عسلية اللون) وأنواع خاصة أخرى من الملابس ، كما ألزم النساء بارتداء ثوب من اللون نفسه - وكان الأقباط يجرون على وضع تماثيل خشبية تمثل الشيطان عند ابواب منازلهم أو عليها .

٥ - في سنة ٣١٣ هـ قدم الوزير على بن عيسى بن الجراح مصر فكشف البلد والرم الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى باداء الجزية فادوها ومضى طائفة إلى بغداد واستغاثوا بالملذر بالله فكتب إلى مصر أن لا يؤخذ من الأساقفة والرهبان وضعفاء النصارى جزية وأن يجري على العهد الذي بأيديهم .

٦ - وعانى الجميع من الاضطهاد في ايام الحاكم بامر الله - ومن أعماله ، وقد رأى بعض النصارى قد تملكوا من أعمال الدولة ، حتى صاروا كالوزراء وتعاضموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فاشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدهم للمسلمين فاغضب الحاكم بامر الله ذلك ، وكان لا يملك نفسه اذا غضب . فقبض على عيسى ابن نسطورس النصراني وهو اذ ذاك في رتبة تضاوى رتبة الوزراء وضرب عنقه ثم قبض على فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه وتشدد على النصارى والزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عاداتهم فعله في اعيادهم من الاجتماع واللهو وقبض على جميع ما هو مجسم على الكنائس والديارات وادخله في الديوان وكتب إلى عماله بذلك . . . الخ .

واخيرا انتهت اعمال الحاكم بامر الله الجنونية إلى الزام اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى أرض الروم ، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو امير المؤمنين حتى أعفوا من النفي - وفي هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى .

ولعلك لاحظت أنه عقب كل اضطهاد من هذه الاضطهادات المتفرقة . . . كان الحاكم يأمر بالرجوع إلى العهد الذي بأيدي النصارى . . . عهد التسامح الذي تعهد به عمر بن الخطاب . . .

وهنا كان ينتهى الاضطهاد . . . لتعود الأحوال إلى حالتها الطبيعية . .

بل انه عندما دمر الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، كنيسة الضريح المقدس عام ١٠١٠ قام المسلمون بانفسهم بتقديم المال الكثير لاعادة بنائها .

مظاهر الصراع في الغرب المسيحي : -

تروى المصادر الإسلامية ، روايات لها أهميتها عن احوال المسلمين الأسرى الذين وقعوا في قبضة البيزنطيين وعاشوا هناك بعيدا عن الوطن ، تحرقهم نار الشوق إلى الأهل وديار الإسلام ، فيقول سبط الجوزى : (حكى ابو القاسم الدمشقى عن اسماعيل بن ابى حكيم المدنى كاتب عمر رضى الله عنه (ت ١٣٠ هـ) قال : بعثنى عمر (بن عبد العزيز) حين ولى الخلافة فى فداء الأسرى فبينما انا بالقسطنطينية ادور سمعت قائلا يترنم : ارقد وغاب عني من يلوم ولكن لم انم وانا والهموم كأتى من تذكر ما ألقى اذا أظلم الليل البهيم ، سليم مل اقربوه وودعه المداوى والحميم . . . قال اسماعيل : فوقفت عليه وقلت له : من أنت ؟ قال : أنا الوايفى أسرت فعذبت فدخلت فى دينهم كرها . . . فقال اسماعيل للمتنصر إن أمير المؤمنين بعثنى فى الفداء وأنت أحب من افتديه ، انشدك الله ارجع إلى الإسلام ، فقال : ابعد ما بطنت فى الكفر) .

وهذه الرواية لها أهميتها لأنها مأخوذة عن كاتب من موظفى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، عاصر تلك الأحداث ، كما انها تعكس حقيقتين هامتين ، الأولى هى اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر المسلمين لدى البيزنطيين وحرصه على فدايتهم والثانية وجود عدد من المسلمين الأسرى فى القسطنطينية وقد تنصر بعضهم بعد تعذيب والبعض لا يدرى اين هو يعيش بلا حاضر ولا مستقبل .

وقال ابن ابى الدنيا - ارسل عمر (بن عبد العزيز) رضى الله عنه ، رسولا إلى القسطنطينية ، فخرج يمشى فى أزقتها فسمع قارئاً يقرأ القرآن ، فوقف عليه فاذا بأعمى يقرأ القرآن ويطحن فى مدار ، فسلم عليه فقال : أتى بالسلام فى هذه الأرض ؟ فاخبره أنه رسول عمر ، وقال له : ما الذى اوقعك ها هنا ؟ قال أخذنا من بعض الطرق فعرض على طاغية الروم النصرانية فابيت فسلم عيني وسيرني إلى

هذا الموضع ويبعث إلى في كل يوم بحنطة أطحنها له ، فلما عد الرسول إلى عمر (رضى الله عنه) فاخبره ، فبكى حتى ابكى الأرض من دموعه ، وقال له عد إلى حالك وقل للطاغية والله لئن لم يبعث إلى بالطحان لأبعثن إليك جنودا أولها عندك وآخرها عندي ، فلما بلغت الرسالة ، قال : ما كنا لنحوج الرجل الصالح لهذا وأقام الرسول عنده أياما) .

ويمضى ابن الجوزى (. . .) فدخل عليه يوما ، وهو قاعد على الأرض يبكى فقال له مالك ، فقال اخبرنا سيدنا المسيح أن الرجل الصالح اذا كان بين قوم سوء لم يلبث فيهم الا قليلا يسيرا ثم يخرجهم الله من بينهم ، فقال له : وما الخبر ؟ ، قال : مات العبد الصالح ، قال : فقامت وقد ايست من خلاص الطحان ، فقال : اذهب فخذ الطحان ، ما كنت لآخافه حيا واخالفه ميتا .

ولعل القارئ قد لاحظ استحالة تفكير أى مسلم في السفر إلى البلاد المسيحية فهو يعلم انهم لن يرحموه من التنصير بالاكراه ولذلك فان ما لدينا من وقائع صراعات الحاكم المسيحي ضد المحكوم المسلم الثابت على اسلامه قليل قليل . . . قليل . . . في هذه المرحلة .

٢ - الصراعات بين أتباع الأسلام وأتباع المسيحية -

مرحلة الحروب الصليبية

- كان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر بن الخطاب يرعى حرمة الأماكن المقدسة أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أنحاء العالم النصرانى بيد أن الترك السلاجقة بعد فتحهم البلاد (واستيلائهم على بيت المقدس عام ١٠٧٦) لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قتلهم ، فالترك كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصارى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلا . وفي نفس الوقت كان الترك قد اجتازوا

الحدود البيزنطية ودوخوا آسيا الصغرى تدوينها ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقي الحريز للنصرانية وذلك بعد أنتصارهم في معركة (منزيكرت) سنة ١٠٧١ .

- كل هذا نزل نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطمعت أوربة تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصراني جنونه الكبير ، والتهمت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أنصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية والجحافل الجرارة ، لقتال الشرق الإسلامي في سبيل الصليب .

ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد وناره تتقد بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي وفي ذروة هذا الحماس الديني قال البابا أربان الثاني في أقوى خطبة يحرض الأوربيين (المسيحيين) على محاربة المسلمين -

« يا شعب الفرنجة ، يا شعب الله المحبوب المختار . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا ابعد ما يكون عن الله ، لقد طغى وبغى في تلك البلاد ، بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين » .

. . . على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم يكن عليكم أنتم . . . فليثر همتمكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذي تملكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست .
- لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم وأسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن ، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال غميقة لا تتسع لسكناها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ومن أجل هذا

يدبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية».

وأخى البابا خطبته واعداء المستعمرين بنيل مجدا لا يفنى في ملكوت السموات - ووهب الناس أنفسهم وأموالهم لهذا الجهاد المقدس ، ومن أجل رفع أى قيود على دخول الجميع في هذه الحرب وبكل ما تحبدهم من امكانيات ، حرر رقيق الأرض ، وحرر التابع لاقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من ولاء لسيده ، ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملأهم وأمر بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين .

وكان العالم القديم قد كيف نفسه على قبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى وكان الفاطميون قد حكموا مصر وفلسطين حكما سمحا رحيا استمعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائهم إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة مثل فترة الحاكم بأمر الله الذى أله نفسه فكرهه المسلمون والمسيحيون على السواء ولكن الأمر اختلف بعد ذلك .

- وقال البابا وهو يحرض على الحروب الصليبية (إن تعريض حياتى للخطر في سبيل تخلص الأماكن المقدسة هو أفضل عندي من حكم العالم كله) .

- كما كانت مدن بيزا ، وجنوى ، والبندقية وغيرها بايطاليا ترغب في إكمال سيطرتها على تجارة شعوب البحر الأبيض المتوسط ، ومنها إلى شعوب الشرق الأقصى وأوربا ، ولم يكن يحول دون إكمال هذه السيطرة إلا وجود المسلمين في شرق وجنوب هذا البحر ، وفي القضاء على الاسلام واتباعه أو السيطرة عليهم فيه تحقيق لمآربهم ومن ثم تعاونوا بالتحريض وبالمعدات وبالمال في تمويل الحروب الصليبية .

- كما كان من أهداف الحروب الصليبية لدى بابا روما إعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالما مسيحيا عظيم القوة متحدا تحت حكم البابوات الدينى - وروما تعود حاضرة العالم .
(وكل هذا التفكير املته رغبة في الحكم لا تعلو عليها رغبة) .

- وعدا الأهداف الدينية والسياسية . كانت هناك أهداف لدى البعض في الاجتماع مع نساء الشرق السمرات ، وفي تحقيق الثروة وتكوين الاقطاعات وحب المغامرة .

- وصدق الأوروبيون الأنباء المبالغ فيها عن اضطهاد المسيحيين في فلسطين وعن المعاملة الوحشية التي يلقونها على أيدي المسلمين .

- كما صدقوا أكاذيب عن العقيدة الإسلامية وما فيها من (زيف وضلال) كعبادتهم تمثالا للنبي محمد . . . وأنه (عليه الصلاة والسلام) قد أصابته نوبة صرع التهمته في أثنائها الخنازير البرية (؟)

- ولما كان الجيش الصليبي سيصل إلى فلسطين عن طريق القسطنطينية والدولة البيزنطية ، وكانت هذه الدولة تدين بالمذهب الأرثوذكسي المخالف للمذهب الكاثوليكي الذي تدين به أوروبا وعلى رأسه البابا فان الجيش الصليبي ، عندما وصل إلى القسطنطينية وهو في طريقه إلى الشرق ، استحل القتل والسرقة من أعدائه في (الدين) .

- كما كان فرسان الغرب الاشداء نصف الهمج يحتقرون سادة الدولة البيزنطية المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون عن الدين ، مخثون مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة في كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . . . ومن ثم بدءوا الحرب الصليبية ضد مسيحيي الدولة البيزنطية وخربوا القسطنطينية ونهبوها وقتلوا الرجال وسبوا النساء ودنسوا الكنائس ونهبوها . . . إلخ .

- وأراد قسيس أن يشعل الحماسة فادعى أن حربة معه هي التي طعن بها السيد المسيح ونجح في إشعال الحماسة بقيادة الحربة ولكن ثبت كذبه .

- ورغم أن الخليفة الفاطمي عرض على الصليبيين أن يعقد معهم صلحا مشروطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى اورشليم والذين يأتونها للعبادة ولكنهم رفضوا إلا التسليم بدون قيد أو شرط .

- ونجح الصليبيون في هزيمة المسلمين المحاصرين في اورشليم - وفي هذا يقول القس ريموند الأجيلي شاهد عيان :

« وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميا بالرصاص ، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا في النار . وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيول . »

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ، يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحرايب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أئداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم الرؤوس بدفنها بالعمد ، وذبح السبعون الفا من المسلمين الذين بقوا في المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيسة لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء .

واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر .

وعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وكان كل مسيحيه (تقريبا) يعتنقون المذهب الأرثوذكسي الشرقي ، تم تحريم هذا المذهب ، وفر البطريق اليوناني إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الايطالي والحكم البابوي .

- وبمجرد تشكيل الإمارات الصليبية ، دبت عوامل الحسد والكراهية بين أمرائها فشبت بينهم الحروب والصراعات - وحصلت المدن التجارية الايطالية على بعض المدن الساحلية نظير ما تقدمه من إعانات مادية للصليبيين . واتحد المسلمون عندما بدأ الصليبيون في الهجوم وخاصة عندما أعلن كبيرهم عن عزمه على غزو بلاد العرب ، وهدم قبر النبي (ﷺ) ، وهدم الكعبة .

ونقض ريجنلد الهدنة المعقودة لمدة أربع سنوات مع صلاح الدين عام ١١٨٥ فاعترض عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ونهب كثيرا من متاعها وأسر عددا من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريجنلد (إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » وأقسم صلاح الدين أن يقتل ريجنلد بيده وعندما قبض عليه

صلاح الدين بعد ذلك وأسره ، أنه فعاب في الدين فخيره بين الموت أو الإسلام
فرفض فأمر بقتله

- ونظم ريمند ديوى هيئة دينية تكرر نفسها للعفة ، والفقر ، والطاعة وحماية
المسيحيين في فلسطين والدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً . وأمرهم القديس برنارد (الا
يغتسلوا إلا نادراً وأن يقصوا شعر رؤوسهم وأن على المسيحي الذى يقتل غير المؤمن
في الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقاً من
هذا الثواب إذا قُتل هو نفسه ، وأن المسيحي يتجهج بموت الكافر لأن المسيح يتجهج
بهذا الموت) .

ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر في
الحروب .

- واستولى صلاح الدين على الصليب الذى كان يستعمله الصليبيون كعلم في
معاركهم وأرسله إلى الخليفة في بغداد .

- وعندما هُزمت اورشليم من صلاح الدين ، لم يعمل فيها قتلاً أو
تذبيحاً . . . بل أفرج عن الآلاف بدون فداء . . . ووزع من ماله الخاص الكثير
على المغلوبين خاصة النساء والبنات اللاتي قتل أزواجهن وآبائهن مما أطلق الستهم
بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهم به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة .

- ولما تباطأ زعماء عكا المحاصرة من المسيحيين في تنفيذ شروط ريتشارد ، أمر
ريتشارد أن تضرب رؤوس ٢٥٠٠ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة ، ورد
صلاح الدين بأن أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ في الأسر أثناء المعارك مع الملك
الانجليزى .

- وعندما رأى صلاح الدين أن ريتشارد يحارب راجلاً ، قال إن من العار أن
يقاتل الرجل الشهم راجلاً ، وأرسل إليه حصاناً ليحاربه عليه .
- ولم يذبح أحد من المسيحيين الذين حاصروهم في يافا ، وكان أن حاربوه بعد
ذلك .

ولما اشتدت الحمى على ريتشارد ، طلب فاكهة وشراباً بارداً ، فما كان من
صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج ، وبطيبه الخاص .

- وشجع البنادقة ريتشارد على توقيع الصلح مع المسلمين وترك بيت المقدس لهم مادام تم الاتفاق على حرية العبادة ، إذ كان يهمهم أن تبقى المدن الساحلية لهم للتجارة .

- ويقول المؤرخ الاخباري المسيحي لحملة ريتشارد الصليبية إن المسيحيين المنتصرين بعد هذا الحصار الطويل ، استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعيم ، أحسن أنواع الخمر ، وأجل الغانيات وأطلق الكثير منهم لشهواتهم العنان فأنحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم وترفهم .

- ووصف الحالة ابن جبير الذي طاف بسوريا المسيحية عام ١١٨٣ - وكان مما ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريمة وكان يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التي وفدوا إليها والتي هي أرقى من حضارتهم .

- وكان سبب انتصار الاسلام هو وحدة وإخلاص الزعماء مع اعتدال صلاح الدين وصبره وعدله . . . غلبوا ريتشارد وشجاعته ومهارته الحربية لانقسام الزعماء الإقطاعيين على أنفسهم .

- وكان صلاح الدين مستمسا بدينه إلى أبعد حد ، . . . شفيقا على الضعفاء رحما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي (الخطيئة) في ظنهم رجلا يصل في العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا ، وترك لابنه الظاهر قبل موته بزمان قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة :

« أوصيك بتقوى الله فأنها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك وأحذر من الدماء والدخول بها فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر . فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم . »

وكان عدم تمكن أوروبا المسيحية من الاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين سببا في الدعوة الدينية لقيام حروب صليبية أخرى .
- وهنا كانت الأهداف الاستعمارية والنهب الاقتصادي للبلاد الإسلامية هي الهدف الأساسي رغم استمرار العمل بالغلاف الديني .

- ففي الحرب الصليبية الرابعة وافقت البندقية على تمويل الحملة في مقابل مادي + اختصاصها بنصف الغنائم الحربية ، ولم يكن في عزم البنادقة مهاجمة مصر لأنهم يكسبون الكثير من معاملاتهم التجارية معها - لذلك عقدوا مع سلطان مصر حلفا سريرا يضمنون بمقتضاه سلامة بلاده من الغزو - ولكن البندقية حصلت على رشوة كبيرة لقاء تحويل الحملة عن فلسطين .

- وكان من مصلحة البندقية المالية القضاء على مدينة زارا المنافسة لها تجاريا وخضبت الحملة يدها بدماء المسيحيين واستولت على أموالهم بعد القضاء على مدينة زارا ، واحتج البابا ، وقرر حرمان المهاجمين من رحمة الكنيسة ، ثم غفر على أن يردوا الاسلاب ، فلم يردوها .

- وكانت فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة في أوروبا (القسطنطينية) قد أغرت الحملة الصليبية الرابعة على الاستيلاء عليها رغم احتجاجات البابا وتهديده بالحرمان ونكوص الكثير من القيادات عن هذا العمل .

وأتاحت لهم فرصة هذا الاستيلاء عندما استنجد ابن امبراطور بيزنطة بأوروبا وبالبابا ، وذلك أن عمه استولى على العرش وسجن أخيه (الإمبراطور) ثم فقأ عينيه .

ووافق ابن الإمبراطور الشرعي المسجون على دفع مائتي ألف مارك فضي للصليبيين وأن يجهزهم جيشا عدته عشرة آلاف رجل ، وأن يُخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية لبابا روما وذلك لقاء إعادة والده إلى العرش بعد تحريره من السجن .

- وكانت فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة في أوروبا (القسطنطينية) قد أغرت الحملة الصليبية الرابعة على الاستيلاء عليها رغم احتجاجات البابا وتهديده بالحرمان ونكوص الكثير من القيادات عن هذا العمل .

وأتاحت لهم فرصة هذا الاستيلاء عندما استنجد ابن امبراطور بيزنطة بأوربا وبالبابا ، وذلك أن عمه أستولى على العرش وسجن أخيه (الأمبراطور) ثم فقأ عينيه .

ووافق ابن الأمبراطور الشرعى المسجون على دفع مائتى ألف مارك فضى للصليبيين وأن يجهزهم جيشا عدته عشرة آلاف رجل ، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية لبابا روما وذلك لقاء إعادة والده إلى العرش بعد تحريره من السجن .

- وتم تنفيذ الاتفاق وأفرج عن الإمبراطور المسجون وأجلس على العرش وذلك بقوة الجيش الصليبي ، إلا أن الامبراطور ماطل في اعداد جيش صليبي وفي دفع المال المتفق عليه وفي تغيير مذهبه الدينى .

- ولما يشس الجيش الصليبي من الاستجابة لمطالبه المادية ومطالبه في إعداد الجيش وتغيير المذهب الدينى ، انقض على المدينة الغنية في أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده روما على أيدي الوندال أو القوط ، صحيح أن عدد القتلى لم يتجاوز ألفين - أما السلب والنهب فلم يقف عند حد - ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما فيها من كنوز ، واقتحم الجنود البيوت والكنائس والجوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم فيها ، وجردوا الكنائس من الذهب والفضة والجواهر والمخلفات المقدسة التى بيعت بعد ذلك في أوربا بأعلى الأثمان - وعانت كنيسة أيا صوفيا فقد قطع مذهبها العظيم لتوزع فضته وذهبه .

وبدلت محاولات كثيرة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع كثير من الجنود بالعهرات وأخذ أنوسنت الثالث يشكو من أن شهوات اللادين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ، وأرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين وبددت في أثناء هذا السلب والنهب ، محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، وأندلعت السنة النيران مرتين لتأتى على دور الكتب والمتاحف والكنائس والمنازل .

- واقتسم الأمراء الصليبيون الإمبراطورية البيزنطية فيما بينهم ، وفرضوا العقيدة اللاتينية ورجالها .

- وحاز البنادقة نصيب الأسد .

وعندما اكتشفوا أن للمسلمين مسجدا يؤدون فيه شعائرتهم بالقسطنطينية ثارت ثائرتهم وحرقوا المسجد وقتلوا المصلين - وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال . وأحالت جزءا كبيرا من المدينة رمادا وأنقاضا .

- ثم انتهت الحملة الصليبية الرابعة عند هذا الحد .

- وقامت بين أهل البندقية وجنوى عامى ١٢٥٦ ، ١٢٦٠ حرب داخلية في ثغور الشام ، وانضمت الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك وانتهب بيرس أحد سلاطين مصر هذه الفرصة واستولى على جميع المدن المسيحية وقتل من وقع في الأسر من المسيحيين أو استرقوا

- ولما قام بعض المسيحيين بمهاجمة قافلة للمسلمين في الشام وشنق تسعة عشر تاجرا منهم ، طلب السلطان ترضية ، فلما رفض الصليبيون حاصر السلطان عكا وفتحها وسمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفا من الأسرى . . . وسرعان ما وقعت باقى المدن في أيدي المسلمين . (١٩)

٣ - الصراعات بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية ، مرحلة فتح القسطنطينية وقوة الخلافة العثمانية .

صمد العالم الاسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات أوربا وجيوشها ورعاها ضد قلاع المسلمين في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وتونس .

- وعلى الرغم من إخفاق هذه الحملات (عسكريا) إلا أنها أضعفت المسلمين وأضررت مواردهم ، وخرج المسلمون من إسبانيا ، ومن صقلية ، ثم تعرضوا لغزو المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ - ١٢٥٨) في بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ، وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية تلو الأخرى للسلب والنهب والمذابح والحريق وأهملت الزراعة ، وأغلقت المدارس ، وتشتت رجال العلم أو ذبحوا ، وتحطمت روح الإسلام نحو قرن من الزمان ، ثم أنبعثت من جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور .

والحريق وأهملت الزراعة ، وأغلقت المدارس ، وتشتت رجال العلم أو ذبحوا ، وتحطمت روح الإسلام نحو قرن من الزمان ، ثم انبعثت من جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر اسيا الصغرى إلى البسفور . .

- ولم تعرف حضارة أخرى في التاريخ مثل هذه الكوارث عددا وانتشارا .
- ورغم ذلك كله فقد نجح الأتراك العثمانيون في فتح القسطنطينية والحلول محل الامبراطورية البيزنطية في ديارها .

- وجذب السلطان العثماني من يشترك في إخضاع مدينة القياصرة ، فجذب عددا ضخما من المتطوعين لاقوا شرف الاستشهاد . واعتقد المسيحيون أنهم رأوا مريم العذراء في ثوب بنفسجي تسير فوق الحصن لتلهب شجاعة الجنود .

- واخترع البارود ، وأحسن استعماله وتطويره بسرعة مذهلة . . . وكان له أثره في فتح القسطنطينية .

- وحاول الأمبراطور الاستنجاد بالغرب لمواجهة الزحف الإسلامي ، وبعث للبابا بندكت الثاني عشر برسالة يؤكد فيها استعدادة لتوحيد العقيدتين بالأقناع ومع الوقت حيث ثبت فشل القوة ، ولاجل تحقيق ذلك لابد أولا من تحرير المسيحيين من تحت (النير) الإسلامي .

- وهذا لا يتأتى إلا بمساعدة الغرب للشرق في محنته أولا .
- ولكن الغرب قابل كل ذلك بالفتور ، بل وبسخرية واستولى المسلمون على الامبراطورية البيزنطية .

- وتطلع المسيحيون الكاثوليك بمزيد من الرضا والاستحسان والفرح إلى السلطان وهو جالس على عرشه ، يضع في يد حنا ديوس صولجان البطريق (الأرثوذكس) أى عصا الرسل ، وهو رمز المنصب الكنسى ، ويسير بجواره إلى باب السراى ويقدم له جوادا جهاز بابى زينة وأغلاها ويطلب إلى وزرائه وباشاواته أن يكونوا في معيته إلى قصره الذى خصص لسكانه .

- وقد أشار بعضهم إلى أنه يفضل أن يرى في المدينة عمامة مسلم على أن يرى قبة كاردينال (رومانى)

- ولقد طال أمد الصراع الدينى العسكرى بين المسيحية والاسلام نحو ٩٠٠ سنة فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الأمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة ، غزا فيها العرب المسلمون هذه

الإمبراطورية . . . وغزا العرب المسلمون إسبانيا . وتأثر العالم المسيحي لهذا الغزو . وحدثت الحروب الصليبية ، وانتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت إسبانيا المسلمين . ودعا البابوات واحدا تلو الآخر لشن حروب صليبية ضد الأتراك ، وأقسم سليم الأول أن يشيد مسجدا في قلب رومة . وأقترح فرانسوا الأول على الدول الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرما وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها باعتبارها غنائم من الكفار .

واحبط هذه الخطة انقسام المانيا في الحروب الدينية ، وثورة إسبانيا ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد في التماس العون من سليمان ضد شارل .

- وحارب القراصنة المسيحيون المسلمين وأغاروا على شواطئهم وعلى تجارتهم في آخر طرفي البحر المتوسط ، وفعل القراصنة المسلمون نفس الشيء في الطرف الآخر .

- وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسره فرسان المسيحية في حملاتهم .

- واستولى السلطان على رودس وطرد منها الفرسان المسيحيين .

- واستنجد فرانسوا الأول (ملك فرنسا) بالسلطان لمهاجمة المجر ، ولم يستمع أحد لنداءات البابا بالاتحاد لمواجهة الأتراك ورفض اللوثرليون في ألمانيا المقاومة (باعتبار أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هي بمثابة مقاومة الله) .

- وحصل السلطان على المجر وابتهج بذلك الأتراك واللوثريون .

- وذاعت الأنباء في أوروبا أن السلطان سليمان أقسم أن يخضع كل أوروبا

للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهي الإسلام ، ولم يتمكن السلطان من فتح فيينا وذلك حيث اتحدت أوروبا بما فيهم اللوثريون ضده خشية ابتلاعه لها .

- وفي عام ١٥٤٧ ، حين كان السلطان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة

لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها ، حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشتوا الهجوم على فيليب الثاني الذي كان يابويا أكثر من البابوات

وفي صلح براج ١٥٩٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان في المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية ومبالغ كبيرة من المال .

وبسط سليمان سلطانه على مصر وشمال أفريقية وآسيا الصغرى وفلسطين

وسوريا والبلقان ، والمجر وسيطرت البحرية التركية على البحر المتوسط ، وأثبت

الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقا وغربا وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها في فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها .

وفقد المسيحيون رودس وبحرايجه والمجر ، وعقدوا صلحا ذليلا مهينا ، وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة في أوروبا وأفريقية . . . إن لم يكن في العالم كله .

- وتوسع العثمانيون في الاستيلاء على بعض الممالك الأوربية ، وسقطت مدينة صوفيا حاضرة الصرب في أيديهم ، واقتحموا بلغاريا حتى بلغوا بحدود دولتهم منطقة الدانوب عام ١٣٨٨ م .

- وفي عام ١٣٨٩ قامت دعوة صليبية جديدة في أوروبا لطرد العثمانيين من أملاكهم الأوربية فتقاطر إلى بلاد المجر جموع كثيفة من الجند الألمانى والبافارى والفرنسى والروسى ، وقادهم سيجسموند ملك المجر لحرب العثمانيين الذين خاضوا معهم عدة معارك ضارية ردوهم فيها على أعقابهم بعد أن أنزلوا بهم خسائر فادحة هائلة ، حتى لتقول الرواية بأن السلطان العثمانى جلس من الفجر إلى الساعة الرابعة بعد الظهر أمام فسطاطه حتى تم إعدام أسراه جميعا . هذا إلى جانب أشرف الأوربيين الذين افتدوا أنفسهم بأموال طائلة .

- وقطع سليم (العثمانى) على نفسه عهداً بأن يشيد ٣ مساجد ضخمة في القدس وبودا ، ورومة ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس - وأشعل نار الحمية الدينية عند شعبه - وأنتصر السلطان على المسلمين حتى استولى على الشام ومصر وأستولى على الخليفة العباسى ، وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك مثل هنرى الثامن أصحاب السلطة الدينية والدنيوية (سادة الدين والدولة) .

وجهاز سليم ، وهو فى أوج مجده ، أعظم قواته لغزو رودس والعالم المسيحى فلما تمت الاستعدادات ، أصيب بالطاعون وقضى عليه (١٥٢٠) .

وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقا لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر - أمر الكنائس المسيحية باقامة الصلوات شكرا لله .

- وعين السلطان سليم ، وسليمان - خير الدين بربروسا حاكما على طرابلس وتونس والجزائر من قبل السلطان فى مقابل تزويده باسطول وتهيأ له بهذا الأسطول نقل سبعين ألفا من المسلمين للعبور إلى أفريقيا من إسبانيا التى فرضت عليهم التنصر أو الطرد ، وأغار على شواطئ إيطاليا ، وأسر آلافا من المسيحيين بيعوا ببيع الرقيق .

- ثم تمكن الإمبراطور شارل من هزيمة بربروسا ووقف تقدمه ولاذ بالفرار ، وحطم الأرقاء المسيحيون أغلالهم وفتحوا الأبواب . . . وأباح شارل لجنوده السلب والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم ودمرت حصيلة قرون من الفنون في يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون ووقع في العبودية من بقى من السكان المسلمين .

- ثم عاد بربروسه لدخول الحرب من جديد وانتصر ، وأصبح سيد البحار وعاد لاغاراته على سواحل أوروبا .

- ولم يستمع بربروسه إلى اغراءات الإمبراطور ، وأثر جانب الاسلام .
- ويقول ول ديورانت :

«وفضلت الأقاليم التي وقعت تحت الحكم الاسلامي - رودس - اليونان ، البلقان ، فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة في ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هابسبرج »

- ويمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة في الحكومة العثمانية ، ذلك أن الطريق إلى الرفعة والمكانة العالية ، فيها عدا السلطنة ، كان مفتوحا أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام .

- ولكن . . . أى جيش مسيحي جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومة ظلت مسيحية لأنه هو وبربروسا سمحا بذلك .

إن السلطان حكم إمبراطورية حكما صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد التمزيق بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، يحكم بالشريعة الاسلامية وبالعرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟

وكان شارل لا يكاد يكون قادرا على إصدار حكم الاعدام على ابنه لمجرد الارتياح فى خيانتته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل الصيحات مطالبا بدم الهراطقة واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبا واحدة عن طعامه أما التسامح الدينى عند

سليمان ، ولو كان محدودا ، فإنه بالمقارنة يصم مثل هذا الإعدام بوصمة الهمجية والوحشية (٢٣)

- وقيل إن السلطان سليمان القانوني قد فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية وأحب إخراجهم وقيل بل السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية .

(وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيرة كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الأتراك فأراد السلطان أن يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك لكن المفتي أسعد زاده عارضه في هذا الأمر معارضة شديدة قائلا إنه مخالف للشرع الإسلامى . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان أمام الله والتاريخ) .
- ولكن كان في الجانب الآخر صراعات دينية مسيحية شرسة ضد المسلمين في إسبانيا ...

- ولقد استقر المسلمون في إسبانيا في دولة مستقلة لما ينيف على ثمانية قرون ، وكان فيها أغلبية إسلامية ، كما كان للمسيحيين دويلات مستقلة مجاورة للدولة الإسلامية ولكن حدث التفكك والانقسام في الدولة الإسلامية فانقض عليها مسيحيو إسبانيا الذين لا تقبل مبادئهم التعايش مع الأديان الأخرى .
- ومن ثم بدأت حرب الإبادة للمسلمين .

(وقال شنطن ارقين في تاريخه المشهور لفتح غرناطة ما ملخصه :

(انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول يقف الحال غير مستتب تماما مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهد رؤساء المذهب الكاثوليكي في حمل المسلمين هناك على النصرانية ما أياس مغاربة الجبال المتشددون في دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكي وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الإسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل إن النساء والأولاد قتلوهما فعصا بالعصى وشدخا بالحجارة وأحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا إلى قرى المغاربة يخربون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل (برميجه) المصاقب للبحر - فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين في جهات الثورة إلى قشتالة وأعطى الأمر سرا

بأن من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور (الونزو دواغيلار) ومعه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة ، فما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم إلى رنده للدخول في النصرانية وتجمع الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى إلى حيث يتعذر السلوك من تلك الأوعار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة (مونارده) وانتشب القتال حيث أظهر الفريقان شجاعة نادرة وكان النصر للمسلمين .

وعند وصول هذه الفاجعة إلى الملك زحف بالجيش إلى جبال رنده فسكنت بحضوره الثائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا إلى أفريقية واحتفى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذي قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا في سلسلة العبودية).

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسي فكتور دروى في تاريخه ما يأتي ملخصا :
(إن اسبانيا تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم إحنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعول فردينند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزا للدولة فانشأ ديوانا جديدا للتفتيش وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهرا والباقيين على إسلامهم باطنا . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من إسبانيا بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة عدد من خرج منهم بثمانمائة ألف . . . وقد هرب جماعة وافرة منهم إلى أزمير والأستانة وسلانيك . . . وقد احتفلوا بعيد مضى أربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية وأكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين .

وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ، ولم يتم خروجهم جميعا حتى القرن التالي سنة ١٦٠٩ . وهكذا فازت إسبانيا بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارها اللتين كان العرب واليهود أهم عمادها) .

- وذكر مرة عند الكلام على شرلكان أنه أكمل مقصد فردينند فأكره مسلمي
بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيمهم والتكلم بغير لغتهم وقال في معرض
الكلام على فيليب الثاني إنه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة عليه
سنة ١٥٩٦ . . . وانتهى الأمر بهزيمتهم وأصبحوا جميعا أرقاء .

قال المقرئ : (ثم إن النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة إلى
أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسمعاثة بعد أمور وأسباب
أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من
النصارى أن يرجعوا قهرا إلى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم
تعدوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للمسلم إن جدك كان نصرانيا فأسلم فلترجع أنت
نصرانيا . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان
السبب للتنصر : قالوا إن الحكم خرج من السلطان إن من قام على الحاكم فليس إلا
الموت إلا أن ينتصر . وبالجملات فأنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع
قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وأمتنت قرى وأماكن كذلك منها
بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا
إلا ما كان من جبل فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات
فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون
الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي
فشدد عليهم النصارى في البحث حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعواهم
من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد . وقاموا في بعض الجبال على
النصارى مرارا ولم يقيض الله تعالى لهم نصرا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا
العصر القريب عام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف الناس بفاس وألوف أخر
يتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى
الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه
المضرة .

يقول ول ديورانت :

- (وبعد خروج اليهود من إسبانيا ، بقى المسلمون يتمتعون بالحرية الدينية
وحاولوا تنصيرهم بالطرق السلمية ولما لم يفلحوا أصدروا أمرا يخير المسلمين بين
الدخول في المسيحية وبين مغادرة إسبانيا ، وأغلقت المساجد ، ونصبت المحارق

العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية ، وأشرف الملك على التنصير الإجبارى بالجملة .

- ولما أحتج المسلمون بأن أسلافهم عندما حكموا إسبانيا سمحوا بالحرية الدينية للمسيحيين إلا فى القليل النادر ، لم يتم التأثير بهذا الكلام .

- وحرّم على الأطفال المسلمين دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا إسبانيا مع آبائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بآرائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال .

- وتعرض الكثيرون لأهوال محكمة التفتيش باعتبارهم متنصرين عادوا إلى ديانتهم السابقة - وغادر إسبانيا ثلاثة ملايين مسلم من المتظاهرين بالمسيحية .

- وفى عام ١٥٧٠ أنضم الأسبان إلى الحلف الأوروبى فى حرب صليبية ضد الإسلام وتنهى سيادة الترك على البحر المتوسط وأنهم ترك وقضى على تفوقهم فى البحر .

- وأعتقد الإسبان أن الكوارث التى نزلت بهم كتخطيم أسطولهم (الأرمادا) إنما نزلت بسبب ايوائهم للكفار (المسلمين) فصدر أمر بطردهم خلال ثلاثة أيام غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت نفس المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأكثرت الأسر البائسة على بيع أملاكهم بخسائر فادحة وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، وخسرت إسبانيا جهدهم ونشاطهم وكسبت الكثير من ممتلكاتهم .

الباب الثالث

الصراعات الداخلية

بين أتباع الأديان الثلاثة

الفصل الأول

الصراعات اليهودية الداخلية

- تصارع أتباع الأديان الثلاثة مع أتباع العقائد الأولى ، ثم مع بعضهم وهاهم يتصارعون مع أنفسهم .

- وليس هذا يعنى أن لكل صراع مرحلة تاريخية محددة ، فالصراع بجميع أطرافه قد يقع فى وقت واحد ، وعلى سبيل المثال ، فقد يتصارع أتباع كل من الأديان الثلاثة مع بعضهم ويتصارعون فى نفس الوقت مع أتباع العقائد الأولى .

- وفى العصر الحديث ، نجد صراعا بين أتباع الأديان الثلاثة ، ففى الفلبين وفى لبنان صراع بين المسلمين والمسيحيين ، وفى إسرائيل صراع بين المسلمين والمسيحيين فى جانب وبين اليهود فى جانب آخر ، ثم يتصارع المسلمون داخليا فى مصر وفى لبنان وفى غيرها ، ويتصارع المسيحيون مع بعضهم فى لبنان وفى كافة أنحاء العالم تبعا لاختلاف المذهب الدينى - هذا الصراع الذى وان غابت عنه الدماء والحروب فى بعض الأحيان إلا أن وجوده واضح فى مظاهر الجفوة والتباعد بين أتباع المذاهب ، ولنبدأ بنماذج من الصراع الداخلى بين اليهود .

- كان من أثر النهضة الصناعية التى قادها الملك سليمان أن وجدت فى أورشليم طبقة من العمال المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والاجتماعى فى فلسطين . . . وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع

الكبرى والتجار والمرايين الذين أحاطوا بالهيكل حتى قال عامون إن الملاك (باعوا
البار بالفضة والبائس لأجل نعلين) .

وكانت الثغرة آخذة في الاتساع بين ذوى الحاجة وذوى اليسار ، وكان النزاع
الشديد بين المدن والريف وهو النزاع الذى يصحب على الدوام المدينيات الصناعية
من العوامل التى أدت إلى انقسام فلسطين بعد موت سليمان إلى مملكتين متعاديتين
مملكة أفرام الشمالية ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم - وأخذ الضعف من
ذلك الحين يدب بين اليهود لما سرى فى قلوبهم من أحقاد ، وما قام بينهم من نزاع
كانت تشتعل بينهم بسببه نيران الحرب العوان . ولم يمض على موت سليمان إلا زمن
قليل حتى أستولى شيشنق ملك مصر على أورشليم ، وحتى سلمت له كل ما جمعه
سليمان من ذهب بالضرائب التى فرضها على الشعب فى أثناء حكمه الطويل .

- وكان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية
والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . . . وكان منهم الحكماء والخطباء
والناصحون باتباع سواء السبيل - وكان منهم من هم أشد الناس معارضة
للكهنة . . . كانوا ثائرين على الاستغلال الصناعى والخداع الكهنوتى ، خرجوا من
أحضان الريف الساذج يصبون لعناتهم على ثراء الخواضر الفاسدة .

- قال هوشع : « إن عجل السامرة يصير كالسراب ، أنهم يزرعون الرياح
ويحصدون الزوينة ، وفى عام ٧٣٣ ق . م هددت أفرام وحليفاتها سوريا ، مملكة
يهوذا الناشئة ، فاستغاثت هذه بأشور . فاغاثتها واستولت على دمشق ، وعرفت
ما يبذلها اليهود من جهود للحصول على معونة مصر ، فغزت البلاد يهوذا وعجزت
عن الاستيلاء على أورشليم ، ثم عادت جيوشها إلى نينوى مثقلة بالغنائم ومعها
٢٠٠٠٠ من أسرى اليهود ليكونوا عبيدا للأشوريين .

وتكلم أشعيا وغيره فى مواعظهم عن الاستغلال الاقتصادى والشراسة :
« ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زورا ليصدوا
الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائس شعبى لتكون الأراامل غنيمتهم ، وينهبوا
الأيتام .

- وهو يزدرى أشد الازدراء من يتظاهرون في العالم بالتقوى وهم يبتزون أموال الفقراء .

- ويختتم مواعظه بترديد أمل اليهود في ظهور من يقضى على ما بينهم من انقسام سياسى ، وخضوع للأجنىبى ، وما هم فيه من بؤس وشقاء ، ومن يعيد إلى الأرض الإخاء والسلام .

« ها ، العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل ، لأنه يولد لنا ولد وتعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مثيرا ، الها قديرا ، أبا أبديا ، رئيس السلام ، ويخرج قضيب من جزع يسى ، ويحل عليه روح الرب ، يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالأنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فى فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفثيه ، ويكون البر والأمانة منطقته ، ويسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجندى والشبل والمسمن معا ، وصبى صغير يسوقها ، فيطبقون سيوفهم سككا ، ورماحهم مناجل لا ترفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .

- كان أشعيا وعاموس هما اللذان بدأ فى عصر الحروب بمجدان فضائل البساطة والرحمة والتعاون بين الناس والإخاء ، وهى الفضائل التى جعلها السيد المسيح أساسا جوهريا لدينه ، وكانت فلسفتهم الأخلاقية تقوم على نظرية أن الطيب سوف ينجح ويوفق ، وأن الخبيث سوف يصرع ، كانوا يحبون العدالة ويدعون إلى القضاء بما كان يضعه الأسباط .

ويقول المقرئى عن الفرق الدينية اليهودية وصراعاتها :
اعلم أن اليهود . . . أربع فرق كل فرقة تخطىء الطوائف الأخرى وهى طائفة الربانيين وطائفة القرائين وطائفة العانانية وطائفة السمرة وهذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس وعودهم من أرض بابل بعد الجلاية إلى القدس وعمارة البيت ثانيا وذلك أنهم فى إقامتهم بالقدس أيام العمارة الثانية افترقوا فى دينهم وصاروا شيعا فلما ملكهم اليونان بعد الاسكندر ، وقام بأمرهم فى القدس هورفانوس بن شمعون وأستقام أمره وسمى ملكا . . . واجتمع له منزلة الملك ومنزلة الكهونية واطمان اليهود فى أيامه . . . ولكنهم اختلفوا فى دينهم وتعادوا بسبب الاختلاف وكان

من جملة فرقهم إذ ذاك طائفة يقال لها الفروشييم ومعناه المعتزلة . ومن مذهبهم القول بما في التوراة على معنى ما فسرہ الحكماء من أسلافهم .

وطائفة يقال لها الصدوفية نسبوا إلى كبير لهم يقال له صدوف ومذهبهم القول بنص التوراة وما دل عليه القول الإلهي فيها دون ما عداه من الأقوال ، وطائفة يقال لهم الجسديم ومعناه الصلحاء ومعناه الاشتغال بالنسك وعبادة الله سبحانه والأخذ بالأفضل والأسلم في الدين .

وكانت الصدوفية تعادى المعتزلة (الفروشييم) عداء شديدا ، وكان الملك هورفانوس أولا على رأس المعتزلة وهو مذهب آبائه ، ثم أنه رجع إلى مذهب الصدوفية وباين المعتزلة وعاداهم ونادى في سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة والأخذ عنهم وتتبعهم وقتل منهم كثيرا ، وكانت العامة بأسرها مع المعتزلة فثارت الشرور بين اليهود واتصلت الحروب بينهم وقتل بعضهم بعضا إلى أن خرب البيت على يد طيطش الخراب الثاني بعد رفع السيد المسيح وتفرق اليهود من حينئذ في أقطار الدنيا وصاروا ذمة والنصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم إلى أن جاء الإسلام وهم في تفرقهم ثلاث فرق الربانيون والقراء والسامرة .

الربانية - يقال لهم بنومشنو ومعنى مشنو الثاني وقيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذي بنى ثانيا بعد عودهم من الجلاية وخربه طيطش وينزلونه في الإحترام والإكرام والتعظيم منزلة البيت الأول الذي ابتداء عمارته داود وأتمه ابنه سليمان عليها السلام وخربه بخت نصر فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية .

وهذه الفرقة هي التي كانت تعمل بما في المشنا الذي كتب بطبرية بعد تخريب طيطش القدس - وتعول في أحكام الشريعة على ما في التلمود إلى هذا الوقت الذي (نحن) فيه وهي بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية متبعة لأراء من تقدمها من الأخبار ومن إطلع على حقيقة دينها تبين له أن الذي ذمهم الله به في القرآن حق لا مزية فيه وأنه لا يصح لهم من إسم اليهودية إلا مجرد الإنتماء فقط فهم بعيدون عن أصول دينهم .

القراء - هم بنوا مقرا ومعنى مقرا الدعوة وهم لا يعولون على البيت الثاني جملة ودعوتهم إنما هي لما كان عليه العمل مدة البيت الأول وكان يقال لهم أصحاب الدعوة الأولى وهم يحكمون نصوص التوراة ولا يلتفتون إلى قول من خالفها ويتفقون مع

النص دون تقليد من سلف وهم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون ولا يتجاورون ولا يدخل بعضهم كنيسة بعض ، ويقال للقرايين أيضا المبادية لأنهم كانوا يعملون مبادئ الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر ويقال لهم أيضا الأسمعية لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد .

العانانية - ينسبون إلى عانان رأس الجالوث الذي قدم من المشرق في أيام الخليفة أبي جعفر المنصور ومعه نسخ المشنا الذي كتب من الخط الذي كتب من خط النبي موسى وأنه رأى ما عليه اليهود من الربانيين والقرايين يخالف ما معه فتجرد لخلافهم وطعن عليهم في دينهم وازدري بهم وكان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع في الملة الإسلامية وأجمل القول في المسيح وأثبت نبوة محمد وقال هو نبي أرسل إلى العرب إلا أن التوراة لم تنسخ (والحق أنه أرسل للناس كافة) .

السامرة - اعلم أن طائفة السامرة ليسوا من بني إسرائيل البتة وإنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق وسكنوا بلاد الشام وتهودوا - ولهم عبادات تخالف ما عليه اليهود ولهم كنائس في كل بلد تخصهم والسمرة ينكرون نبوة داود ومن تلاه من الأنبياء وابوا أن يكون بعد موسى نبي وجعلوا رؤسائهم من ولد هارون ويذكر أنهم الذين يقولون لا مساس ويزعمون أن نابلس هي بيت المقدس وهي مدينة يعقوب عليه السلام وهناك مراعيه . وذكر المسعودي أن السامرة صنفان متباينان أحدهما يقال له الكوشان والآخر الروشان أحد الصنفين يقول بقدوم العالم والسامرة تزعم أن التوراة التي في أيدي اليهود ليست التوراة التي أوردتها موسى ويقولون توراة موسى حرفت وغيرت وبدلت وأن التوراة هي بأيديهم دون غيرهم . وذكر أبو الريحان البيروني أن السامرة تعرف بالأساسية قال : وهم الأبدال الذين بدلوهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود وأجلاها وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني إسرائيل فلم يحاربهم ولم يقتلهم وأنزلهم فلسطين من تحت يده ومذاهبهم ممتزجة من اليهودية والمجوسية وعامتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس وبها كنائسهم ولا يدخلون بيت المقدس منذ أيام داود النبي عليه السلام لأنهم يدعون أنه ظلم واعتدى وحول الهيكل المقدس من نابلس إلى أيليا وهو بيت المقدس ولا يمسون

الناس وإذا مسوهم اغتسلوا ولا يقرون بنبوة من كان بعد موسى من أنبياء بنى
اسرائيل

سعديا بن يوسف

- يؤمن سعديا بالوحي والتواتر معا ، أى بالشرعية المكتوبة وغير المكتوبة ولكنه
يؤمن أيضا بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استنادا إلى العقل صدق الوحي والتواتر .
فاذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضا صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن
نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته ، ذلك
أن الله ليس إنسانا يتصف بما يتصف به البشر ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود
خالق عاقل مدبر .

وقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم في الشرح والإيضاح
بل إنه استعار منهم في بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه
في جميع أنحاء العالم اليهودي .

عنن بن داود

- لما توفي الأجزيلارك (رئيس اليهود في المهجر) سليمان ، طالب ابن أخيه
عنن بن داود بحقه في أن يخلفه في منصبه ، ولكن الزعماء طرحوا مبدأ الوراثة وراءهم
ونصبوا حنانيا أخا عنن الأصغر أجزيلاركا في مكانه ، فما كان من عنن إلا أن طعن في
الجاؤنين (رئيس المعهد الدينى اليهودى) وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسة خاصا
به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى
الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون ،
وكان شبيها بما ينادى به بعض الشيعة في الإسلام من نبذ (السنة) النبوية وأتباع
القرآن وحده*

وما ينادى به البروتستانت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل
على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر في أسفار موسى الخمسة ويشرحها
شرحا مما يعد خطوة جريئة في سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس

* يقصد فرق الخوارج

واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة الموسوية وما يحاولونه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة في أيامهم وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمي أتباعه بالقرائين (هي من اللفظ الأرامي قرأ أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ ، ومنه أيضا القرآن) ، أى المتمسكين بالنصوص وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب في نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كان كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبه والفريسيين الشفوية .

ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين جديد ، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه .

وأخيرا نبذ القراءون ما كان ينادى به عنن من تفسير حرفي لنصوص الشريعة وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله يجب أن يؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلمهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة من المسلمين ، فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال (يد الله) و (جلوس الله) يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي ، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدّر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته ويقول دون اسحاق ابرابانل المولود في لشبونة سنة ١٤٣٧ (إن الأحداث والأفكار التي وردت في الكتب المقدسة يجب تفسيرها على ضوء الحياة الاجتماعية والسياسية في عصرها .

الفصل الثانى

الصراعات المسيحية الداخلية

- قبل اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية كان المسيحيون يكتفون كل قواهم الروحية والجسدية والفكرية للدفاع عن أنفسهم ضد الوثنية ويعملون على القضاء على أتباعها .
- وكانت الإمبراطورية الرومانية تشمل بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما فيها مصر والشام .
- فكان اعتناق الإمبراطور قسطنطين للنصرانية نصراً لها لم يتح لها من قبل ، إذ أصبح معها إمبراطور أكبر دولة وأقوى دولة في العالم في ذلك الوقت .
- وانتهت ، بالنسبة للمسيحية ، قصص الاستشهاد ضد الوثنيين ، لتبدأ قصص الخلافات بين أتباع السيد المسيح عليه السلام .
- ولقد أجمع المؤرخون أن ضحايا المسيحية في صراعاتها الداخلية يفوق أضعاف وأضعاف ضحاياها في صراعاتها ضد الوثنية وأتباعها .
- وبمجرد اعتناق قسطنطين للمسيحية ، ظهرت الصراعات الداخلية العنيفة بين المسيحيين .
- وتنقسم الصراعات الداخلية في المسيحية إلى ثلاث مراحل حسب نوع الصراع ، فالمرحلة الأولى من الصراع تميزت بالصراعات حول شخصية السيد المسيح وتميزت المرحلة الثانية ، وهى تبدأ من أوائل حكم بنى أمية حتى ما قبل

الحروب الصليبية بالصراع حول وسائل التقرب من السيد المسيح فيما يتعلق بالأيقونات والصور والتماثيل لتأثر المسيحية في هذه المرحلة ببغض المسلمين للشرك المتمثل في التقرب بالصور ورفات القديسين ، أما المرحلة الثالثة والتي تبدأ من الحروب الصليبية حتى الإصلاح الديني فقد تميزت بتشكيل الأحزاب الدينية وصراعاها فيما بينها حيث أخذت هذه الأحزاب الكثير من الفكر الإسلامي العقائدي والفلسفي مما كان له أثره المباشر في قلب الفكر الأوروبي رأسا على عقب .

— وقام (رجال الدين) بقيادة هذه الصراعات بما لهم من سلطات دينية ودينية .

١ — الصراعات الدينية من بدء انتشار المسيحية حتى ظهور الإسلام في الشام وأفريقيا

الخلاف على شخصية السيد المسيح عليه السلام

إذا تجرد الإنسان من معارفه السابقة عن شخصية السيد المسيح . . . فإن شخصيته يمكن أن تقص على الوجه التالي . . .

من بين السكان اليهود الذين كانوا يقيمون في فلسطين التابعة للدولة الرومانية في ذلك الوقت ، حملت فتاة اسمها مريم بحمل استكمل مدته إلى أن ولدته بدون زواج . وبعد سنوات كبر الطفل وظهر في صورة الرجولة الكاملة لتجول بين يهود فلسطين وبين هياكلهم ومعابدهم منتقدا الكثير من تصرفاتهم غير المتفقة مع التوراة أو مع ما أتى هو به من نظام (انجيل) . . .

وآمن به كالعادة ، الكثير من الفقراء فاتبعوه بينما اعتبره ثراة اليهود ورجال دينهم نائراً وهرطيقاً ضد الديانة اليهودية وأنه يعمل على أن يكون ملكاً على اليهود .

ولكن السيد المسيح لم يأبه لعداوة اليهود ، بل استمر على ابداء رأيه وابلغ نظامه (الإنجيل) بأصرار وبقوة دون خوف أو ضعف ، وفي نفس الوقت خشى أعداءه من اليهود أن تعتقد الدولة الرومانية أن (المسيح) يمثل اليهود في الثورة ضد الرومان للتخلص من احتلالهم . . . فعملوا على إيغار صدر بيلاطس الحاكم الروماني لفلسطين المحتلة ضد السيد (المسيح) حيث انتهى الأمر بالحكم عليه بالموت صلباً .

وفى أثناء حياة السيد المسيح حدثت معجزات ، كما حدثت محاورات معه ثم إثباتها فى (الإنجيل) وانتهى الأمر بالاعتقاد بالوهية السيد المسيح .
ومن هنا يبدأ الخلاف على شخصية السيد المسيح بين أتباعه
فهل المسيح هو الإله نفسه ولكن تجسد فى المسيح ؟
هل المسيح فيه جزء بشرى (ناسونى) وجزء إلهى (لاهوتى) . .
هل المسيح هو ابن الله باللاهوت دون الناسوت (الجسد) .
هل مريم أم الله
هل الابن (المسيح) مساو للأب (الإله) فى الجوهر ؟

ولأجل أن نتبع مسار أكبر خلاافات فى المسيحية فى هذه المرحلة ، فإنه من الضرورى أن نبدأ بعرض قانون العقيدة المسيحية الذى اتفقت عليه المسيحية بجميع ممثليها ورجال الدين فيها فى جميع أنحاء العالم المسيحى فى ذلك الوقت . « نؤمن بالله واحد ، الله الأب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق ، من الله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، والذى به كان كل شيء نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، اتخذ شكله الأنس من أجل البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب فى عهد بيلاطس النبطى ، ودفن وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما جاء فى الكتب وصعد إلى السماء » .

هذا هو ما اتفقوا عليه بالاجماع وبدون أى خلاافات ، ولو استمروا على ما اتفقوا عليه حتى (الآن) لما ظهرت أى خلاافات دينية عن شخصية السيد المسيح .
ولكن قبل أن يمضى عام على اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية بدأ بعض (رجال الدين) يبدون الآراء عن شخصية السيد المسيح تخالف ما اتفقوا عليه فى قانون العقيدة المسيحية .

وقاد أول ثورة دينية ضد قانون العقيدة المسيحية القس المصرى آريوس حيث أعلن فيها أن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسمائها .

واستند في ذلك إلى

- إذا كان الابن من نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته حدثت في زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب في الزمن .
- إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شيء ، أى من غير مادة الأب ، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة ، وقد ولد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من المادة نفسها .

- وفي هذا يقول المقريزى :

- وعمل قسطنطين مجمعاً دينياً بنيقية - وسببه أن الاسكندروس بطرك الإسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه ، لمقاتته ، ونقل عن بطرس الشهيد بطرك الإسكندرية أنه قال عن اريوس إن إيمانه فاسد وكتب بذلك إلى جميع البطارقة فمضى أريوس إلى الملك قسطنطين ومعه أسقفان فاستغاثا به وشكوا الإسكندروس فأمر باحضاره من الإسكندرية فحضر هو وأريوس وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه فقال أريوس كان الأب إذ لم يكن الابن ثم أحدث الابن فصار كلمة له فهو محدث مخلوق فوض إليه الأب كل شيء فخلق الابن المسمى بالكلمة كل شيء من السموات والأرض وما فيها فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس فصار ذلك مسيحاً فاذا : المسيح معنيان ، كلمة وجسد ، وهما جميعاً مخلوقان . فقال الاسكندروس : أيهما أوجب عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا ، فقال أريوس بل عبادة من خلقنا أوجب . فقال الإسكندروس : فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تكون عبادة الخالق كفرا وعبادة المخلوق إيمانا ، وهذا أقبح القبيح . فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس وأمره أن يحرم أريوس فحرّمه وسأل اسكندروس الملك أن يحضر الأساقفة فحضروا فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية وعدتهم ألفان وثلاثمائة وأربعون أسقفاً مختلفون في المسيح فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلق من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها وهذه مقالة سيليوس الصعيدى ومن تبعه ومنهم من قال إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مر بأحشائها كمرور الماء بالميزاب وهذا قول البان ومن تبعه ومنهم من قال المسيح بشر مخلوق وأن ابتداء الابن من مريم ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الالهية بالمحبة والمشيئة ولذلك سمي

ابن الله تعالى عن ذلك ومع ذلك فالله واحد قيوم، وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوا بها وهذا قول بولص السيمساطى بطرك أنطاكية وأصحابه ومنهم من قال الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينها وهذا قول مرقيون وأتباعه ومنهم من قال المسيح وأمه إلهان من دون الله وهذا قول المرامية من فرق النصارى ومنهم من قال بل الله خلق الابن وهو الكلمة فى الأزل كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصاروا واحدا ومنهم من قال الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق وهو جوهر من جوهر ونور من نور وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح وهذا قول الثلاثمائة وثمانية عشر فتحير قسطنطين فى أخلافهم وكثر تعجبه من ذلك وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن وأجرى لهم الأرزاق وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم فثبت الثلاثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور واختلف باقيهم فمال قسطنطين إلى قول الأكثر وأعرض عما سواه وأقبل على الثلاثمائة والثمانية عشر وأمرهم بكراس وأجلسهم عليها ودفع إليهم سيفه وخاتمه وبسط أيديهم فى جميع مملكته فباركوا عليه ووضعوا له كتاب قوانين الملوك وقوانين الكنيسة وفيما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات إلخ

وظهرت بعد ذلك مشكلة نسطورس فاجتمع المجمع الثالث من مجامع النصارى بسبب نسطورس بطرك قسطنطين فإنه منع أن تكون مريم أم عيسى وقال إنما ولدت مريم إنسانا اتحد بمشيئة الإله يعنى عيسى فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات . وأن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة وقال إن المسيح حل فيه الابن الأزل ، وإنى أعبد ، لأن الإله حل فيه ، وإنه جوهران ، وأقنومان ، ومشيئة واحدة - وقال فى خطبته يوم الميلاد - إن مريم ولدت إنسانا وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الالهية - ولا أسجد له سجودى لئله - وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الاسقفين - وكان من قولهما إن المولود من مريم وهو المسيح والمولود من الأب هو الابن الأزل وأنه حل فى المسيح فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة وأن الاتحاد بالمشيئة والارادة وأثبتوا لله تعالى عن قولهم ولدين أحدهما بالجوهر والآخر بالنعمة - فلما بلغ كيرلس بطرك الاسكندرية فعالة نسطورس كتب

إليه يرجعه عنها فلم يرجع فكتب إلى أكليس بطرك رومية وإلى يوحنا بطرك أنطاكية وامتنع نسطورس من المجيء إليهم بعد ما كرروا الإرسال في طلبه غير مرة فنظروا في مقالته وحرموه ونفوه فحضر بعد ذلك يوحنا فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه وانتصر لنسطورس وقال قد حرموه بغير حق - وتفرقوا من أفسس على شر . ثم اصطلحوا ، وكتب المشرقيون صحيفة بآماناتهم وبحرمان نسطورس ويعثوا بها إلى كيرلس فقبلها وكتب إليهم بآمانته على ما كتبوا فكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمع خمسون وقيل خمس وخمسون سنة ، وأما نسطورس فإنه نفى إلى صعيد مصر ، فنزل مدينة أخميم وأقام بها سبع سنين ، ومات ودفن بها . . . ودان بعقيدته الكثيرون .

ثم ظهر أوطاخى بالقسطنطينية وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا وأن الابن لم يأخذ من مريم شيئا فاجتمع عليه ١٣٠ أسقفا وحرموه .

وكان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة مقدونية وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال ان المسيح جوهر من جوهرين وقنوم من قنومين وطبيعة من طبيعتين ومشية من مشيتين - وكان رأى الملك مرقيانوس ملك الروم ، وأهل مملكته ، أنه جسد وجوهران وطبيعتان ومشيتان وقنوم واحد فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ما عدا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك وكتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه ، فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه فلما وصل إليه كتابهم كتب فيه أمانته هو ، وحرّمهم وكل من يخرج عنها فغضب الملك مرقيانوس وهم بقتله ، فأشير عليه باحضاره ومناظرته فأمر به فحضر وحضر ٦٣٤ أسقفا فأشار الأساقفة والبطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك واستمراره على رياسته فدعا للملك وقال لهم ه الملك لا يلزمه البحث في هذه الأمور الدقيقة ، بل ينبغى له أن يشغل بأمور مملكته وتديرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب ولا يكون له هوى مع أحد ويتبع الحق ، فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس وكانت جالسة بازائه يا ديسقورس ، قد كان في زمان أُمى إنسان قوى الرأس مثلك وحرموه ، ونفوه عن كرسيه - تعنى يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية فقال لها : علمت ما جرى لأملك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه ، إلى أن مضت إلى جسد يوحنا

فم الذهب واستغفرت فعوفيت - فحنقت من قوله ولكمته فانقلع له ضرسان وتناولته أيدي الرجال فنتفوا أكثر لحيته - وأمر الملك بحرمانه ونفيه عن كرسيه - فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه وأقيم عوضه برطاوس .

ومن هذا المجتمع افترق النصارى وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ويعقوبية على رأى ديسقورس وذلك فى سنة ١٩٣ لدقلطيانوس - وكتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل - فكان بين المجتمع الثالث وبين هذا المجتمع إحدى وعشرون سنة - وأما ديسقورس فإنه أخذ ضرسيه وشعر لحيته وأرسلها إلى الإسكندرية - وقال - هذه ثمرة تعبى على الأمانة . فتبعه أهل الإسكندرية ومصر وتوجه فى نفيه فعبر على القدس وفلسطين وعرفهم مقالته فتبعوه وقالوا بقوله . ولما مات مرقيانوس وثب أهل الإسكندرية على برطاوس البطرك وقتلوه فى الكنيسة وحملوا جسده إلى الملعب الذى بناه بطليموس وأحرقوه بالنار من أجل أنه ملكى الاعتقاد فكانت مدة بطركيته ست سنين وأقاموا عوضه طيمانوس وكان يعقوبيا

- وأقيم أبوليناريوس بطركا على مصر ، وكان ملكيا ، فجد فى رجوع النصارى بأجمعهم إلى رأى الملكية وبذل جهده فى ذلك والزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثه فوافقوه ووافقوه البعض ، هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ويثبت أصحابه على الأمانة التى (أكد) أنها مستقيمة - وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول وبعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثانى وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد وهو سادس كانون الثانى وعلى هذا الرأى الأرمن - وفى هذه الأيام ظهر يوحنا النحوى بالإسكندرية وزعم أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة وثلاث طبائع وجوهر واحد ، وظهر يوليان وزعم أن جسد المسيح نزل من السماء وأنه لطيف روحانى لا يقبل الآلام إلا عند مقارفة الخطيئة ، والمسيح لم يقارف خطيئة فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يميت وإنما ذلك كله خيال فأمر الملك طيمانوس أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل فأمر بقتله ثم شفع فيه ونفى وأقيم بدله بولس وكان ملكيا فأقام سنتين فلم يرضه اليعاقبة وقيل إنهم قتلوه وصيروا عوضه بطركا ديلوس وكان ملكيا فأقام خمس سنين فى شدة من التعب وأرادوا قتله فهرب وأقام فى هربه خمس سنين ومات ، وبلغ ملك الروم يوسطيانوس

أن اليعقوبية قد غلبوا على الاسكندرية ومصر وأنهم لا يقبلون بطاركته فبعث أتوليناريوس أحد قواده وضم إليه عسكريا كبيرا إلى الاسكندرية فلما قدمها ودخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة ، وقُدس ، فهم ذلك الجمع برجمه فانصرف وجمع عساكره وأظهر أنه قد اتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس وضرب الجرس في الاسكندرية يوم الأحد فاجتمع الناس إلى الكنيسة حتى لم يبق أحد فطلع المنبر وقال يا أهل الاسكندرية ان تركتم فعالة اليعقوبية وألا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم ويستبيح أموالكم وحريمكم فهموا برجمه ، فأشار إلى الجند ، فوضعوا السيوف فيهم فقتل من الناس ما لا يحصى عدده حتى خاض الجند في الدماء وقيل إن الذي قتل يومئذ مائتا ألف انسان وفر منهم خلق إلى الديارات بوادي هبيب وأخذ الملكية كنائس اليعاقبة .

وكان المجمع الخامس من مجامع النصارى وسببه أن اريحانس أسقف مدينة منبج قال بتناسخ الأرواح وقال كل من أسقف انقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها إن جسد المسيح خيال لا حقيقى ، فحملوا إلى القسطنطينية وجمع بينهم وبين بطركها أوطس وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان فأمر الملك أن يجمع مجمع وأمر بأحضار البطاركة والأساقفة فأجتمع مائة وأربعون أسقفاً وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وبين هذا المجمع ١٦٣ سنة .

- وفى أيام الملك موريق قيصر زعم راهب اسمه مارون أن للمسيح عليه السلام طبيعتين ومشية واحدة وأقنوماً واحداً فتبعه على رأيه الكثير فى الشام وجماعة من الروم وهذا هو أصل مذهب المارونية .

- ثم قدم هرقل فقتل الفرس وأقام قيرش بطرك الاسكندرية وكان منانيا وطلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه وكان هرقل مارونيا فظفر بمينا أخى بنيامين فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة وعاد إلى القسطنطينية حتى ظهر الاسلام أ . هـ .

- والكاثوليك مع ايمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين (ان اعتقادكم بأن العذراء أم الاله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلهاً أم انسانه ؟ إن قلتم إلهاً

ضللتهم لأن الإله لا يولد ، وإن قلتم إنسانا كانت العذراء أم انسان لا أم اله وذلك تنكرونها ، وإن قلتم ولدت إلهًا وانسانا ، كانت أم اله وأم انسان ، فلها ابنان ، أحدهما إله والآخر انسان ، وهذا القول ينقضه العقل ويضيفه ، فاذا لا يصح إلا أن الإله والانسان صارا واحدا ، ولذلك ولدت مريم واحدا ، لا هو بإله على الإطلاق ، ولا هو إنسان على الإطلاق ، ولا هو إله وانسان في وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق .

ويقول البطريرك الاسكندري الكبير كيرلس الأول ، في كتاب إلى القيصر تيودوسيوس (إننا لا نعرى الناسوت من الالهوت ، ولا نعرى كلمة الرب من الناسوت ، بعد ذلك الاتحاد الغامض ، الذى لا يمكن تفسيره ، بل نعرف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا إلى واحد مؤلف من كليهما ، لا يهدم الطبيعتين ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف في الغاية ، ثم بوجه عجيب) .
- وعلى هذا المنوال سارت الخلافات والصراعات الديموية على شخصية السيد المسيح مما أدى إلى انقسام المسيحيين على أنفسهم وتكفير بعضهم بعضا ومقاتلة بعضهم لبعض .
وانتهى الأمر بانفصال اليعاقبة ، في مصر والشرق عن الكنيسة المملكانية .

(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله)

التوبة : ٣٤

٢ = الصراعات الداخلية في المسيحية من ظهور الإسلام حتى الحروب الصليبية :

الخلاف على وسائل التقرب من السيد المسيح :

- من المنطقي أن تكون هناك وسائل للتقرب من الله سبحانه وتعالى تهدف إلى مرضاته والحصول على عونه في الدنيا وفي الآخرة . . . فالصلاة والدعاء والعمل

بنظام الله سبحانه وتعالى بقلب سليم . ومساعدة الضعيف والمحتاج إلخ
هذه وغيرها وسائل قربى من الله جل شأنه

- وكان (المفترض) أن لا تتغير هذه الوسائل فى المسيحية ، إلا أنه حدث أن
اتخذ الإنسان وسائل أخرى لعلها تضاعف من تقربه إلى المسيح للاستجابة إلى دعواته
وآماله .

- وكانت أهم هذه الوسائل (الأخرى) هى التقرب إلى المسيح بالأيقونات
والصور والتماثيل ورفات القديسين والشهداء

- وذلك أنه بمرور الزمن ، وبحكم الانتصار على الوثنيين ارتفع الإجلال
للشهداء فى العهد الذى تلا تحول قسطنطين إلى المسيحية ، كان الأباطرة
والقناصل وقواد الجيوش يزورون فى خشوع أضرحة صناع الخيام وصائدى الأسماك
الذين دفنت عظامهم المبعجلة تحت هياكل المسيح ونقلت رفات (القديسين)
إلى كنائس القسطنطينية وروما .

واستقبل الإمبراطور والشعب والقساوسة الموكب الحامل لرفات صمويل نبي
اسرائيل الذى اتوا به من فلسطين إلى القسطنطينية .

وثوطدت أجماد القديسين والشهداء فى كل مكان ، وفى عصر أمبروز وجيرونم
كانت قدسية أية كنيسة مسيحية تعتبر مفتقرة إلى ما يكملها ، حتى تقدسها قطعة من
رفات مقدسة تدعم ولاء المؤمنين وتلهمه . .

- ودلت التجربة على أن بهما القديسين كانت أكثر قيمة من الذهب
أو الاحجار الكريمة وأغرت هذه التجربة رجال الدين على مضاعفة أموال الكنيسة ،
وابتدعوا للأسماء أعمالا ، ولو ثوا شهرة الرسل وأتقياء الرجال . . ومارس الناس
الخرافة التى ضاعفها الغش والتصديق . . . وأخذ ، دون أن يشعر أحد ، نور
التاريخ والعقل فى العالم المسيحى .

- وتكلم الأساقفة وكبار رجال الدين كثيرا عن الكرامات وعن المعجزات .
- وكانت قبور الشهداء هى المسرح الدائم للمعجزات التى تفوق الحصر .
واتجه الناس بتضرعاتهم وبأمالهم وبطلباتهم الدنيوية والروحية إلى القديسين .
وهكذا ترى أن الديانة المسيحية قد حققت فى أقل من قرن واحد ، انتصارا كاملا

نهائيا على الإمبراطورية الرومانية ، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا دون أن يحسوا إلى فنون منافسيهم المقهورين (الوثنيين) .

- وكان المسيحيون الأولون يمتقون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية واساءة استخدامها ، وقد ترجع هذه الكراهية إلى أنهم كانوا من نسل اليهود وإلى عداوتهم لليونان . وكانت الشريعة الموسوية قد حرمت كل ما يمثل الله .

- ومن الجائز أن بعض الغنوصيين ، وكانوا قد تحولوا حديثا إلى المسيحية والذين لم يكن إيمانهم كاملا ، كانوا يتوجون تماثيل المسيح والقديس بولس بالكرامات الدنيوية التي أضفوها على تماثيل أرسطو وفيثاغورس .

- وتمثلت أول عبادة للرموز في تمجيد الصليب وبقايا القديسين ، وتصور الناس أن القديسين والشهداء الذين يطلبون شفاعتهم كانوا يجلسون إلى يمين الله ، غير أن الكرامات والأفعال الخيرة ، الخارقة للطبيعة في كثير من الأحيان ، والتي كانوا يعتقدون أنها تنهمر حول الأضرحة ، كانت تبرر بصورة أكيدة مسلك الحجاج الأتقياء الذين كانوا يزورون تلك الآثار الخالية من الحياة ، ولمسونها ويقبلونها ، على أنها آثار فضائلهم وآلامهم . غير أن الأثر التذكاري الأهم من جمجمة الراحل صاحب الكرامات هو وجود صورة صادقة لشخصه وملاحه من خلق فن الرسم أو النحت .

- وفي بادىء الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل في حرص وتورع ، واتجه استخدام الصور المقدسة في شىء من الحكمة إلى تهذيب الجهلة ، وأيقاظ ذوى الأيمان الفاتر واشباع تحيز المهتدين الوثنيين . ثم تطور الأمر تطورا بطيئا ، وإن يكن حتميا ، فأنتقلت أجداد الأصل إلى الصورة ، وأخذ أتقياء المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القديس ، وتسربت إلى الكنيسة الكاثوليكية شعائر الوثنية المتمثلة في الركوع ، وإيقاد الشموع ، وحرق البخور . وصمت صوت العقل أو التقوى أمام دليل قوى جاءت به الرؤى والمعجزات ، وسرى الاعتقاد بأن الصور التي تتكلم ، وتتحرك ، وتنزف الدم ، لا بد أن تكون وهبت قوى إلهية ، ويمكن اعتبارها موضعا صحيحا للعبادة الدينية .

- ورسوموا صورا للمسيح والملائكة والحواريين والقديسين والشهداء اخترع ملاحها بعض رجال الدين ، واخترعوا وصف الصورة التي نتجت من مسح

المسيح وجهه على قطعة من القماش وعبدت وعملت عنها أبيات شعر ديني .
وقصص عن الصورة المنقذة للمدن من الغزوات والهزيمة .

- وفي بدء القرن الثامن ، حين كان سوء استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته ، أيقظ اليونان الأكثر تهيبا خوفهم من أنهم ، تحت ستار المسيحية ، قد أعادوا ديانة آبائهم وأجدادهم وسمعوا في حزن وملل وصمهم بالوثنيين - وهى تهمة وجهها اليهم بصورة مستمرة اليهود والمسلمون الذين استمدوا من شريعة موسى ومن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوتة ولكل عبادة لغير الله . ومن الجائز أن عبودية اليهود كبحت حماسهم وأضعفت سلطاتهم ، غير أن المسلمين الظافرين ، الذين حكموا دمشق وهددوا القسطنطينية ، القوا في نيران التفريع والتأنيب وزنا ثقيلًا متراكما ، هو وزن الحق والنصر . . .

وكانت مدن سوريا وفلسطين ومصر محصنة بصور وتماثيل المسيح وأمه ، وقديسيه وعللت كل مدينة نفسها بالأمل في دفاع معجز أو أنها وعدت بذلك الدفاع وفي غضون سنوات استغرقتها فتوحات العرب السريعة ، أخضعوا تلك المدن وتغلبوا على تلك التماثيل ، وأصبحت صورة المسيح الالهية ، بعد تغلب الاسلام على مدينة اذاسا ، أسيرة في أيدي الذين لا يؤمنون (بالوهيته) وشاهدا على انتصارهم .

. . . . واستخدم الرهبان فصاحتهم لمقاومة تحطيم التماثيل التي لم تنجح في صد الغزو الإسلامي بسبب خطيئة الجزء الأكبر من الشرقيين والشقاق الذي حدث بينهم .

- وواجه هؤلاء الرهبان آراء معارضة مستمرة من النصوص والحقائق وما كان يجري في عصور المسيحية الأولى .

- وبحكم اتصال الأب ليو بالعرب ، كل أولئك بعث في الفلاح العسكرى الكراهية للتماثيل . ونجح في القضاء على هذه العادة بمساعدة الإمبراطور ورجال الدين واشتهك الشرق المسيحي والغرب المسيحي في صراع صاحب دام ١٢٠ سنة .

- وحدث اجتماع لرجال الدين - وجاء في قرار تحريم الصور (كل الرموز المرتبة ، إلا في القربان المقدس ، تعتبر الحادا أو هرطقة ، وأن عبادة الصور هي

افساد للمسيحية وتجديد للوثنية ، وأن الذين يرفضون تسليم الأشياء التي تعبدونها خرافاتهم الخاصة ، إنما يقتربون جريرة عصيان سلطان الكنيسة وسلطة الإمبراطور .

- وقد وجه أول هجماته العدائية الى تمثال للمسيح في مدخل القصر وفوق بابه ، وأعد سلما للقيام بهذا الهجوم ، غير أن جمهورا من المتحمسين والنساء طوحوا بالجند في عنف وقسوة ، وشاهد هؤلاء الناس في نشوة دينية زبانية التدنيس وهم يسقطون من ذلك الارتفاع ويرتطمون بالأرض .

... وقام الناس بالهياج والثورة في القسطنطينية وفي الولايات لمقاومة تنفيذ القرارات الامبراطورية ، وتعرض شخص الإمبراطور للخطر وذبح ضباطه ... وقامت الحروب الداخلية الشعبية بقيادة الرهبان (ذوى المصالح المادية في الصور والتماثيل والكرامات) .

- واستولى أسقف اخر على كرسى الدين ، وأعاد الصور إلى مكانتها - ثم عاد الإمبراطور المهزوم ليعيد محاربة الصور .

- واشتعلت نار العداء بين الامبراطور والرهبان بسبب الصور ... وأنزلت على رأسه اللعنات الدينية والشعبية .

- وقتل الكثيرون .

- وانتقل الإمبراطور من معاقبة الأفراد إلى معاقبة الجماعات ، فألغى طائفة الرهبان (مثيرى الفتن) .

- وكان الاسم المخيف (التنين) الذى أطلق على رجل يتولى مهمة التفتيش العام ، مصدر فزع وكراهية للرهبان ، وقد حُلّت الجماعات الدينية ، وحُولت مبانيهم إلى مخازن وثكنات ، وأمر ملك الروم بمحو الصور من الكنائس وأن لا تبقى صورة في كنيسة وسبب ذلك أنه بلغه عن قيم كنيسة أنه عمل في صورة مريم عليها السلام شبه ثدى يخرج منه لبن ينقطر في يوم عيدها فكشف عن ذلك فاذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال فضرب عنقه وأبطل الصور من الكنائس .^(٩٥)

ولما نبذ الشرق الصابر صوره وتماثيله مرغما كارها ، فقد حرص الايطاليون المستقلون على تقبل هذه العبادة بشغف .

وقامت الحرب بين الإمبراطور في القسطنطينية وبين شعبه في إيطاليا بقيادة البابا .

وأرسل الإمبراطور الجيوش إلى إيطاليا التي تجمعت قواها الشعبية ضده .
وُقتل الرجال والنساء . . . وهدمت البيوت وأحرقت وسائل الانتاج .
وتلوثت مياه نهر البو بالدماء إلى درجة أن الناس امتنعوا عن أكل سمك النهر
طوال ستة أشهر .

وانتصر البابا الكاثوليكي على جيوش امبراطوره وجمع مجلسا من اساقفته أصدر
حرمانا عاما ضد هراطقة محطى التماثيل الدينية وتماثيل القديسين سواء بالكلام
أو الأعمال، وانطبق هذا الحكم بصورة ضمنية على الإمبراطور .
وأخيرا قادت الإمبراطورة أيرين في الإمبراطورية البيزنطية حملة القضاء على أعداء
التماثيل الدينية بصورة أكثر جدية وخطورة .

أصدرت مرسوما عاما يقضى بحرية الضمير .
وعاد الرهبان إلى مراكز القوة مع صورهم وتماثيلهم التي اخترعت لها آلاف
القصص عن آلامها ومعجزاتها .
ودانت لها الكنيسة الشرقية وأصبحت هي التي تعين الأسقف . . . أى خضعت
السلطة الدينية للسلطة الدنيوية .
وكان لابد من عمل مجمع لاصدار قرار بإلغاء القرار السابق بمقاومة الصور
والأيقونات .

وكان أعداء التماثيل الدينية الذين جمعهم يتسمون بالجرأة في الدفاع عن
آرائهم ويكرهون المناقشة . ومع أن صوت الأساقفة كان ضعيفا إلا أن جنود
القسطنطينية وشعبها رددوا ذلك الصوت في صخب أعظم قوة وأشد بأسا . . . غير
أن المماثلة والدسائس وعزل القوات المتمردة أزال العقبات وأصبح ضمير الأساقفة
مرة أخرى في يد الحاكم . وجاء أعداء التماثيل والصور الدينية لا كقضاة بل
كمجرمين تائبين ، وأعلنوا بالاجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع
الكتاب المقدس ، ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجالسها .

وجاء راهب كان قد عقد هدنة مع شيطان الزنا ، شريطة أن يعترض الشيطان صلواته اليومية التي كان يقدمها لصورة معلقة في صومعته . غير أن شكوكه دفعته إلى استشارة الكاهن ، فأجاب المفتي قائلاً (من الأفضل لك أن ترتاد كل ما خور في المدينة ، وتزور كل عاهرة ، على أن تتخلى عن عبادة المسيح وأمه في صورهما المقدسة) .

وكان ثاني هذين الاجتماعين قد عقد ونفذت قراراته تنفيذاً صارماً بموافقة الملكة إيرين وبحكم سلطانها المطلق ، وأبت هي على خصومها ذلك التسامح الذي منحته في بادئ الأمر لاصدقائها . وخلال العقود الخمسة التالية - التي استغرقت ثمانية وثلاثين عاماً ، ظل النزاع محتدماً على أشده ، وكان النجاح حليف أنصار عبادة الصور الدينية مرة ، ومحطى تلك الصور مرة أخرى

في انقسام كنيسة القسطنطينية (اليونان) عن كنيسة روما (اللاتينية)

قبل نهاية القرن الثامن ألف كاتب رسولى ، قصة الأحكام التي أصدرها قسطنطين والهبة التي منحها ، وهى العمودان السحريان اللذان تركز عليهما مملكة البابوات الروحية والدينية .

وتقول القصة ان قسطنطين ، أول الأباطرة المسيحيين شفى من مرض الجذام وتطهر بماء المعمودية ، على يد الأسقف الرومانى القديس سلفستر . فكافأه بأن انسحب من مقر القديس بطرس فى روما ومن أرضه الموروثة وأعلن عزمه على تأسيس عاصمة جديدة فى الشرق ، وترك للبابوات السيادة المطلقة الدائمة على روما وإيطاليا ، وولايات الغرب .

ولقد أثمرت هذه الرواية أنفع الثمار ، فاتهم ملوك اليونان فى القسطنطينية بجريمة الاغتصاب لحكمهم أوربا بدون وجه حق وأصبحت ثورة جريجورى - بابا روما - حقا يطلب بمقتضاه ميراثه الشرعى على روما وإيطاليا وولايات الغرب .

ومن أسباب الخلافات الدينية بين كنيسة بيزنطة وكنيسة روما مما أدى إلى استمرار العداء بين أتباع كل منهما واستحلال أتباع كنيسة روما فى أوروبا استباحة

غزو امبراطورية بيزنطة ونهبها وتدنيس مقدساتها وهتك أعراض نسائها وقتل مئات الألوف من النساء والأطفال وغيرهم وبطريقة وحشية .

هذه الخلافات ترجع إلى عدم الاتفاق على الموضوعات التالية :

١ - استخدام الخبز بدون خميرة في تقديم قربان جسد المسيح (في العشاء الرباني) .
٢ - طبيعة المطهر .

٣ - سيادة البابا (على جميع الشعوب المسيحية في أوروبا وامبراطورية بيزنطة أيضا) .

٤ - انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج .

وكان لكل طرف حججه . . وأيا كان الحال ، فانه رغم المحاولات المتكررة لتحقيق الوفاق بين الكنيستين ، فأنهم لم يتفقوا ، ولم يتحدوا لصد الهجوم الناجح للمسلمين الأتراك على الامبراطورية البيزنطية .

وساء الناس في القسطنطينية ما لرجال الدين في الكنيسة اللاتينية من سلطة زمنية ، وما تتسم به حياتهم من روح حربية ، وأذكت الحملات الثلاث الأولى إلى الأرض المقدسة والتي عبرت أراضي الامبراطورية البيزنطية روح الكراهية بين اليونانيين واللاتين ، فغدت البغضاء سافرة واضحة ، وتآمر الأباطرة على القضاء على أعظم أمراء الفرنجة بمعاونة المسلمين وقد عاونهم في سياستهم كل فئات رعاياهم في طاعة جادة راضية . ويمكن أرجاع جزء كبير من هذا المزاج العدائي إلى الاختلاف في اللغة واللباس والعادات ، وهي التي تفرق بين أمم العالم وتباعد بين بعضها بعضا .

وأصاب كبرياء الملك جرح عميق لاقتحام جيوش أجنبية مملكته أثناء اتجاهاهم إلى الشام وبيت المقدس وادعائهم حق المرور في ممتلكاته وعبور أسوار عاصمته . وقد أهين رعاياه ونهبوا ، وسلبهم الأجانب المتوحشون القادمون من الغرب . وزاد من شدة الكراهية التي أضمرها اليونانيون حسدهم الدفين لمشروعات الفرنجة الورعة . ولكن هذه الأسباب الدنيوية للعداء القوى دعمها والهمها مظاهر الحماس الديني عند اللاتين. وبدلا من أن يستقبلهم إخوانهم المسيحيون في الشرق بمظاهر المودة والعطف والكرم ، درب كل لسان على أن يردد اسم المنشق والهرطيق ، وهي

كلمات أقسى على أذن المؤمن صحيح الايمان من لفظى الوثنى والكافر . وبدلا من الشعور بالمحبة نحوهم ، لاتفاقهم فى الدين والعبادة بصفة عامة . أظهروا لهم البغضاء لاختلافهم فى بعض القواعد التنظيمية أو المسائل اللاهوتية ، مما يمكن أن يختلفوا فيه هم أو معلموهم عن الكنيسة الشرقية . ففى الحرب الصليبية التى قام بها لويس السابع ، غسل رجال الكنيسة اليونانية مذابحهم وطهروها لأن قسا فرنسا دنسها بتقديم قربان عليها . وقد شكوا رفاق فردريك مما احتملوا من اساءات على أيدي اليونانيين والسنتهم بسبب الحقد الغريب الذى أظهره الأساقفة والرهبان اليونان الذين أثارت دعواتهم وعظاتهم الأهالى ضد المتبربرين الملحدون (اللاتين) . وقد اتهم البطريرك البيزنطى بأنه أعلن أن المؤمنين يستطيعون أن يحظوا بغفران جميع ذنوبهم بالقضاء على المنشقين قضاء مبرما .

وتعرض اللاتين بالقسطنطينية للقذف كأجانب وهراطقة . . . وقام الأهالى بثورة مسلحة ولم تؤد مقاومة الأجانب اليائسة إلا إلى اثاره جنون السفاحين وشحن خناجرهم . ولم يكن فى استطاعة السن أو الجنس أو صلات القرابة أن تنقذ ضحايا الكراهية والقومية والحماس الدينى . فذبح اللاتين فى بيوتهم وفى الطرقات وتحول حيهم إلى رماد ، وأحرق رجال الدين منهم فى كنائسهم ، والمرضى فى مستشفياتهم ويمكن تقدير عدد القتلى إذا عرفنا عدد من شملتهم الرأفة فبيعوا إلى الأتراك كرقيق ، وكان عددهم يقرب من أربعة الاف ، وكان القساوسة والرهبان أكثر الناس صخبا ونشاطا فى القضاء على المنشقين . وكانوا يرتلون صلاة الشكر لله عندما تفصل رأس كاردينال رومانى نائبا للبابا ، عن جسده وتربط إلى ذيل كلب وتجرف فى طرقات المدينة وسط السخرية الوحشية . أما أكثر الأجانب يقظة وانتباها ، فقد تراجعوا إلى سفنهم عند أول أنذار ، وهربوا من مشهد الدم مخترقين البسفور . وفى أثناء فرارهم أحرقوا وسلبوا مائتى ميل إلى الساحل ، وأنزلوا انتقاما قاسيا برعايا الامبراطورية الأبرياء ، وأختصوا القساوسة والرهبان بأشد الانتقام ، وعوضوا عن فقد أملاكهم وأصدقائهم بما جمعوا من أسلاب ، وعادوا إلى بلادهم ليؤلبوا اللاتين على فتح القسطنطينية .

وبهذا الانقسام (الثانى) تخرج القسطنطينية واليونان عن دائرة الصراعات الدينية الداخلية كما خرجت مصر والشام من هذه الصراعات بعد الغزو الإسلامى ، حيث استولى على هذه البلاد الأتراك العثمانيون .

٣ - الصراعات المسيحية الداخلية من الحروب الصليبية إلى الإصلاح الدينى

غلبت على الصراعات المسيحية الداخلية قبل ظهور الاسلام الصراعات على شخصية السيد المسيح مما أثمر فى النهاية انفصال المذاهب المسيحية فى مصر وشمال أفريقيا والشام عن المذهب المسيحى السائد فى الامبراطورية البيزنطية . وبعد ظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، ومع اختلاط المسلمين بالمسيحيين فى الحروب أو فى التعايش السلمى فى الشام وهو مجاور للامبراطورية البيزنطية دخلت فى المسيحية الكثير من عقائد الاسلام الداعية إلى تكفير كل من يقدس أو يؤله الصور أو التماثيل أو الأيقونات أو غيرها دون الله . ومن هنا غلبت على الصراعات فى هذه المرحلة ، الصراعات الخاصة بتقديس أو عبادة الأيقونات والصور ورفات ومخلفات القديسين والشهداء . وكان هذا الصراع من العوامل التى فصلت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عن الكنيسة الكاثوليكية .

وتجىء الحروب الصليبية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان حيث أنهزم الغرب عسكريا ولكنه انتصر ثقافيا إذ لم يلبث أن بدأ يعير الكثير من أفكاره وعقائده بعد أن تعرف على المسلمين وعلى ديانتهم وثقافتهم . وقبل أن نتعرض لأشكال الصراعات الدينية فى هذه المرحلة فإنه من المهم التعرف أولا على مذهب الروم الكاثوليك فى الفترة من ١٠٩٥ - ١٢٩٤ .

مذهب الروم الكاثوليك

كانت عقيدة يوم الحساب أساس المسيحية واليهودية والاسلام ، وبقي الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيدا ليوم الحساب الأخير وظل هذا الاعتقاد قائما حتى ما بعد مرور ألف عام على وفاة المسيح وكانت كل ظاهرة غير عادية فى الأرض أو فى السماء أو فى الأوبئة تؤكد للناس نهاية العالم .

وكانت تمجيش في صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكن رجال الدين كثفوا دعايتهم على الحساب وعلى الجحيم وعلى أهواله حيث البسوا المسيح ثوب القاضي وأشاعوا الرعب في شكل الشيطان وفي قدراته .

وكان تصوير العذاب وهوله هو أساس الدعاية الدينية حتى إنه يقال إن ملك بلغاريا الوثني أقتنع بالمسيحية بعد أن صور له الراهب صورا رهيبة للجحيم حيث يلقي الأثمون جزاءهم .

وكان الشيطان في نظرهم جسما حقيقيا من لحم ودم يغشى العالم في أى مكان وفي أية لحظة ليغري الناس بضروب من المغريات - وكان من المستطاع عادة طرده بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب وفي هذه الحالة يخلف وراءه رائحة خبيثة هى رائحة الكبريت المحترق . . . وكان الشيطان يتخذ النساء عادة وسيلة ليحقق أغراضه .

وقد وصف الراهب ريكالم أولئك الأبالسة بأنهم (يملأون) العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا في كل مكان ومن أعجب العجائب أن يبقى منا واحد حى ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم .

وسادت عقيدة أن الأطفال غير المعمدين يلقون في النار ثم خفت هذه العقيدة إلى الإلقاء في مهبوس حيث لا يلقون عذابهم إلا ما يشعرون به من الألم لأنهم حرموا من الجنة .

وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعا - سيلقون في النار .

ودخلت العقيدة فكرة المطهر ، حيث يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيرا كافيا بعد موتهم .

وصدق الناس عام ١١٥٣ بوجود عالم سفلى في الأرض (حيث النار والمطهر) ومن هنا كانت الصلاة على أرواح الموتى للتكفير عن الذنوب . وهى عادة متوارثة قبل الأديان السماوية .

وكانت الغالبية مؤمنة ، ولكن كان هناك الشكاكون الذين اعترضوا على كل عقيدة وعلى كل شعيرة من الشعائر على أساس أنها اختراع وأوهام ووسائل للكسب .

وكانت كل حادثة تقع في التاريخ ، تفسر على أساس من الدين .

الأسرار المقدسة

حددت الأسرار المقدسة في القرن الثاني عشر بسبعة أسرار : التعميد ، تثبيت العماد ، الكفارة ، القربان المقدس ، الزواج ، رتبة الكهنوت ، المسح بالزيت قبل الوفاة .

أما الشعائر الصغرى التي تمنح البركة الألهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب فسميت بمتعلقات الأسرار .

التعميد وتثبيت التعميد

كان التعميد أهم الأسرار المقدسة كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولدا جديدا يستقبل على أثره في حظيرة الدين المسيحي . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما في هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس في المستقبل شفيع الطفل وقدوته ، وحاميه ، وهذا هو اسمه المسيحي أو الخاص . وقبل أن يحل القرن التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى - طريقة غمر الطفل في الماء كله - قد استبدلت تدريجيا بطريقة الرش لأنها أقل خطرا على الصحة من الطريقة الأولى في الأجواء الباردة الشمالية .

الكفارة

إذا كانت عقائد الكنيسة تلقن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفارات وقد ورد في الانجيل (من الآية ١٩ من الإصحاح السادس عشر والآية ١٨ من الإصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا ، وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها - وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن عشر .

العشاء الربانى

كان القداس يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع: 'سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن ، (إلى الله الذى يصفى البهجة على شبابى) ثم يصعد القس المذبح ويقبله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديسين . و يترنم بالدعاء الذى مطلعته كبرى اليسون (ارحمنا يا الله) ويتلو بعدئذ دعاء المجد (المجد لله فى العلا) والدعاء الأساسى الذى مطلعته (نؤمن بالله واحد) ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى) .

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة - أى ابن الله - لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله واحياءً لذكرى التضحية على الصليب . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : (انا نرفعها إلى الرب) ويتلو القسس بعدئذ (القداس المثلث) و (حمل الله) و (ابانا الذى) ، ويقدم العشاء الربانى للحاضرين .

وبعد أن يؤدى عدة صلوات اضافية ، يتفرق الحاضرون وينصرفون . هذه هى شعائر العشاء الربانى كوسيلة من وسائل التقرب من السيد المسيح . ولكن - هل المسيح موجود فى الخبز ودمه موجود فى الخمر الذى أكله وشربه الجميع ؟ . . . أم لم يكن موجوداً ؟ . وهل يصلح هذا العشاء الربانى بالماء بدلاً من الخمر ؟ . . . وهل يجب أن يكون الخبز مخمراً أو غير مخمر ؟

وهل العشاء الربانى نفسه شعيرة من صلب الدين يجب أداؤها؟ وماهى الصفات الشخصية للقائمين بالعشاء الربانى . هذه أسئلة سألها الكثيرون ودارت عليها صراعات وحروب وقتل وعذب بسبب الخلاف عليها مثات الألوف وكانت من ضمن الأسباب التى أدت إلى انفصال الكنيستين الشرقية والغربية .

صكوك الغفران

فكر البابا ليو العاشر في انشاء كنيسة بطرسية جديدة تحل محل القديمة التي لم تعد صالحة. للترميم ، ولم يكن مفر من اصدار صكوك الغفران لانجاز هذا العمل من حصيلتها ، ولما احتج الملوك على تدفق المال من بلادهم وعد باعطائهم جزءاً من حصيلة بيع الصكوك .

وانتشر مندوبي بيع صكوك الغفران في كل مكان لبيعها للمؤمنين بمبالغ حسب ما تسمح به مواردهم .

صك الغفران

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقي من آلام مقدسة ، وأنا بتفويض منه ومن رسوليته المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لي وعهد به إلى في هذه الأجزاء أن أحلك أولاً من كل لوم ديني مهما كانت الطريقة التي تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل افراط في الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى اثم تحتفظ بتقريره وادراكه للسدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه في المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما في العماد ، ولهذا فأنك عندما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل في أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الآب والابن والروح القدس .

وكان لصكوك الغفران التي تمنح لأرواح الموتى ، أثر لا يخيب في نجاتها من المطهر (ما أن ترن قطع النقود في الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر) .

ورفض لوثر أن يشهد بفاعلية هذه الصكوك وحاز غضب البابا .
وكان لوثر ، كعادة غيره من المصلحين ، من رجال الدين الأتقياء ومن أساتذة اللاهوت في الجامعة .

وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حق التجاوز عن العقاب . وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحي يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسماً صغيراً من كنوز

البركة التي تجمعت من تعذيب المسيح وموته ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ، وأعطى بعضها في القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة . وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه اربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادة سنة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسى ، أو حرب مسيحية .

واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ولكنها فتحت الأبواب للمطامع البشرية ، فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها المطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وانتهى الأمر بصكوك الغفران لتكون وسيلة لا بتراز المال من الناس ، تحت عنوان الشعارات الدينية ، بينما كانت حصيلتها تنفق على ملذات دنيوية للبابا ولرجال الدين ولمحصلى مقابل هذه الصكوك . ومن هنا بدأ الاصلاح الدينى بمهاجمتها

عبادة القديسين ورفات الشهداء

قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى ، كانت الكنيسة الكاثوليكية قد اعترفت بخمسة وعشرين ألف قديس .

ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم واحياء ذكراهم ، أو لأن مكانا ما قد أصر على هذه العبادة على الرغم من معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المباني

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم - عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم وكان المفروض أن كل مذبج يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذه المخلفات فكانت

بأسلكا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسد القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت روما بفضلها كعبة للحجاج من جميع أنحاء أوربا .

وكانت كنيسة في سانت أومر تدعى أن فيها قطعا من الصليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، وقطعا من مهده ، وقطعا من قبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون - ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شعر تومس ابكت وقلنسوته ، وقميصه المنسوج من الشعر والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سجلت عليها الوصايا العشر وعليها أصبح الله نفسه ، وتحتوى كنيسة أمين رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية ، وتدعى واحدة من ثلاث كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الوحيد الباقي من ختان المسيح . وتعرض كنيسة إكستر أجزاء من الشمعة التى استعملها ملاك الله لاضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه .

ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها ، وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكانت فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لا تزال حمراء بدمه ، والعصا التى ضرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . . وسرقت هذه المخلفات حتى نهبت القسطنطينية على أيدي المسيحيين الكاثوليك ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تنتقل من كنيسة إلى أخرى فى بلاد الغرب لمن يؤدون أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل اثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما ، كخيطة من ثوب قديس وقليل من تباب علبه مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح ، وكانت

الأديرة تتنافس وتتنازع في جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدر على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلاً لهذا أن نذكر أن (نقل) عظام تومس إلى ضريح جديد في كنيسة كنتر برى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل ما يقدر بنحو ٥٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي ، واجتذب هذا العمل الرابع كثيراً من ممارسيه فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ (كشف) مخلفات جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساويء هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته . ومن هنا قاوم الإصلاح الديني الاتجار في الأشياء المقدسة . . . ووجد مقاومة عنيفة من الكنيسة ورجالها لأن مكاسب كثيرة كانت تعود عليهم من هذه المتاجرات وقالوا بتحريم تناول السر المقدس على القسيس الذي يتاجر في المخلفات .

مراسم الزواج والمسح الأخير .

رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم انسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التي ورثها عن الرسل والتي يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفي آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير يستمع القس الى اعترافات المسيحي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة . ويمنحه المغفرة التي تنجيه من النار ، ويمسح أعضائه حتى تتطهر من الخطيئة ، وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل ، ويدفنه الأحياء من أهله دفنه مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون .

نشأة الأحزاب الدينية

ولكن كل هذه العقائد بدأت تهتز في عنف بعد اختلاط معتنقيها بالمسلمين (الكفرة) في الحروب الصليبية حيث بدأ الغرب يتعرف على الكثير من ثقافة وحضارة هذا الشعب المنتصر .

إنه الإعجاب بحضارة الغالب . . .
ثم يضاعف من هذه النظرة تغلب المسلمين الأتراك على الإمبراطورية البيزنطية
وأحتلالهم لشرق أوروبا حتى أحاطوا بفينيكا في النمسا .
ودهش المسيحيون وصدمت مشاعرهم لأن الله نصر (الكفرة) المسلمين ولم
ينصر المسيحيين المؤمنين .

إنها نفس الصدمة التي صدمها الصحابة من نصرة الفرس الكفرة على أهل
الكتاب من الروم وهو قياس مع الفارق . . .
وبدأت أوروبا تفيق من توالى هذه الصدمات وتراجع نفسها تجاه معارف وعلوم
وعقائد الطرف الغالب .
وكان يجاورهم علوم المسلمين في إسبانيا ، فقرأوها وتعلموا منها الكثير بعد أن
ترجموها إلى لغتهم . .

وأختلط المسلمون والمسيحيون في جنوب فرنسا وإيطاليا وشرق أوروبا وغيرها .
وكان المسلمون يقدسون التوراة ، فعمل المسيحيون نفس الشيء
وأعادوا قراءته . . . وتعرفوا منه ومن القرآن ومن علوم المسلمين ما جعلهم يعيدون
النظر في كثير من العقائد الدينية التي استقروا عليها .

وانه وإن كان يقال ان الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر قد
فتقت الأذهان بما أدخلته من علوم ومعارف . . . فان نفس الشيء قد حدث
لمسيحي أوروبا باختلاطهم بالمسلمين ودينهم وعلومهم . . .

لذلك فانك ستري أن الصفة الغالبة في صراعات هذه المرحلة لها صفة العمومية
أي تشمل كل العقائد الدينية المتوارثة ، سواء عن شخصية السيد المسيح ، أو عن
وسائل التقرب إليه أو عن نظامه في الكون وبين البشر أو عن (رجال الدين)

ومن هنا تشكلت الأحزاب الدينية التي حكمت عقلانية ابن رشد وغيره في كل
أمور الدين .
(وانتشرت آراء الفلاسفة الإسلاميين في أوروبا فانعكس ذلك كله على ثورات
الإصلاح الديني)

وكان بعض أصحاب التفكير الحر ، وبعض القساوسة أنفسهم ينكرون تحول العشاء الرباني إلى جسم المسيح وقال البعض إنه أشبه بالوثنية .

وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد (ولفكر بعض فلاسفة الإسلام) أن يسترضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة ، فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أو حسب التعليل الطبيعي ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحي .

وأدى انتشار فلسفة ابن رشد (الالحادية) إلى أن أمر البابا بتأليف كتاب (في وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد) .

وانتشر الأساتذة الذين يؤمنون بفلسفة ابن رشد ويعلمونها .

وكان تعذيب وقتل وحرق الأحياء ، ونش قبور الأموات وحرقتهم ، وحرقت كتبهم ، ومحاربة أنبأهم .

ومن الوجهة الدينية ، كان الإصلاح الديني رجوعا إلى أصل العقيدة البسيطة والأخلاق الصارمة في صدر المسيحية اليهودية .

وكما رجعوا إلى القرآن وعلوم المسلمين ، رجعوا للتوراة . . . وذلك أن عدااء البروتستانت للصور الدينية والتماثيل ، كان عودا إلى عدااء (اليهودية والإسلام) (للصور المنحوتة) . واحتفلت بعض الفرق البروتستانتية بيوم السبت (مثل اليهود) وان إنكارهم عبادة العذراء وعبادة القديسين ليقترّب كثيرا من التوحيد الصارم عند اليهود (وعند المسلمين) .

أن نقاد رجال الإصلاح الديني اتهموا زعماء الإصلاح (بالتهود) ، وأسموهم (أشباه اليهود) أو (أنصاف اليهود) . وقال كارلستاد نفسه إن ملانكتون (من رجال الإصلاح اللوثرى في ألمانيا) أراد أن يرجع إلى موسى وشريعته .

وأعاد حكم كلفن في جنيف إلى الأذهان تسلط الكهنة في إسرائيل القديمة . واتهم زونجلي بأنه متهود لأنه درس العبرية مع اليهود . وبني كثيرا من عظاته وتعليقاته على النص العبري للتوراة ، واعترف أنه مفتون باللغة العبرية .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعد قرون من التعويض والاضطهاد في دوامة تقذف بأوروبا في أعظم ثورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بانقساماتها وصراعاتها وانحيار النظام في الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذي تنعم فيه البطارقة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالاقبال على الدنيا للبابوات وأخلاق الكسندر السادس وحروب يوليوس الثاني والمرح المستهتر الذي عرف به ليو العاشر والاتجار في المخلقات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الاسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية ، وتدفق العلم العربي والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية وفشل حركة التوفيق في الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين والاحتجاج على تدفق الأموال الوطنية إلى روما ، وفتوة الملكية وتقوية القوميات . . . واصلاحات وبتكليف مع المطالبة الصوتية بالتخفيف من الطقوسية في سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحانية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان كل هذا تلاحم في ثورة عارمة ليقضى على المسيحية التقليدية ليحل محلها العقل بعد التحرر من سلطانها^(١٤) .

صراعات رجال الدين

أدت الكنيسة ، في بداية أمرها ، دورها الديني والأخلاقي والنظامي ولكي هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية ، ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية قد أثبتوا أنهم من طبيعة البشر وأنهم متحيزون جشعون بل نهمون يبتزون الأموال ، وأن الملوك والشعوب أيضا كانوا بشرا مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمتهم . وقام فيليب الرابع (فرنسا) يتحدى سلطان البابا بوني فاسي الثامن على أملاك الكنيسة وكلل هذا التحدي بالنجاح ، وزج مندوبو الملك بالبابا الكبير السن في السجن في أتيان حيث قضى ثلاثة أيام لم يلبث

بعدها أن وافته المنية (١٣٠٣) وهنا وفي تلك الساعة بدأ الإصلاح الديني من إحدى نواحيه الأساسية ، وهي خروج الحكام المدنيين على سلطان البابوات .

كتب الأسقف وليام ديوراندي سنة ١٣١١ : (أن رجال الدين يضربون لجميع الشعب المسيحي أسوأ المثل في النهم ، وهذا واضح لا خفاء فيه معروف في جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماسا في الترف . . . من الملوك والأمراء) .

وقد رفع الأسقف الاسباني الفارو بلايسو عقيرته بقوله (إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحي) . وقد ذكر ادوارد الثالث ملك إنجلترا كلمنت السادس بأن (خليفة الخواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجز صوفها) .

وفي المانيا كان جبابة الضرائب البابوية يطاردون ويسجنون وتقطع أطرافهم ويخنقون وفي عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين في كولوني وبون ، وغيرها ألا يدفعوا مال الصدقات الذي فرضه عليهم جريجوري الحادي عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادي على ملوك الأرض ، وحدث حوالي سنة ١٣٢٤ أن كتب دفاعا عن البابوية « ان سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه في الأرض ، وأن طاعته واجبه وأن أثم أشد الاثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره والحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فمهما يكن ذنبه فان سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وان عارض في ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بديساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاما من الملائكة وهو خالق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا وأنه في رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقدونه الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله » .

ولما مات جريجوري في عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة ، وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ، (وكان يخشى غضبه روما) ، اختار بابا ايطاليا وهو ارمان

السادس ، واكتشفوا فيه حدة الطبع والعنف والاصرار على الاصلاحات التي لا يرتضيها رجال الكنيسة . وبلغ هذا الاصرار حدا أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكبرى البابوية لم يكن قانونيا لأنه تم تحت ضغط الارهاب ، ونادوا لمربرت من أهل جيف بابا . وتولى مربرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ أفينيون مقرا له ولكن أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وهذا الانقسام البابوي (من ١٣٧٨ - ١٤١٧) السبيل لكثير من القوى التي هيأت العفول للاصلاح الديني وقيام الدول القوية ، فقد كان هذا الانقسام في واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التي تمدها بها البابوية في حربها ضد إنجلترا وحذا حذو فرنسا في هذا نابلي واسبانيا وأسكتلنده ، ولكن إنجلترا ، وفلاندرز والمانيا ، بولندا ، بوهيميا ، المجر ، ايطاليا ، البرتغال اعترفت بأربان وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحا في أيدي المعسكرين المتنازعين وضحية لهما .

ونادى نصف العالم المسيحي بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف في حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التي يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وأن الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التي تتم على أيديهم ، والموت الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين آثمين ، مآثم الجحيم - أو المطهر على أقل تقدير .

وكان الاسلام الأخذ وقتئذ في الانتشار يسر من هذا الانحلال الذي يدب في جسم العالم المسيحي* .

وكان لأسباب ضعف الايمان الاختلاط بالاسلام في الحروب الصليبية فقد خلف في النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول اصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الاسلام ، وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك . ثم يجيء رجال ليؤكدوا أن هبة قسطنطين زيف وزور فيحطون مكانة

(*) كما يسر اليوم العالم المسيحي الغربي من الانحلال الذي يدب في جسم العالم الإسلامي (وتلك الأيام بدا لها في

الناس)

الكنيسة وما تدعيه لنفسها من سلطان زمني ثم اكتشاف أمريكا واكتشاف شعوب لا تؤمن بالمسيحية ولكن أديانها لا تقل إيجابية عن المسيحية ثم يعود الرحالة من بلاد (الكفرة) ومعهم عقائد وطقوس أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية .

وتنبأ ميكافيلي بأن انهيار الكنيسة أو يوم القصاص منها آت لا ريب فيه لما أدخلته على الدين من بعد مؤسسة من أشياء غريبة .

وامتلكت الكنيسة نصف ثروة المانيا (١٥٢٢) - أو ثلثها وفي قول آخر خمس أموال فرنسا أو ثلاثة أرباع أموالها في قول آخر - وفي إيطاليا ملكت ثلث شبه الجزيرة فضلا عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات . وأصبح المال هو الشرط الأساسي لغفران الذنوب وكل على حسب قدراته المالية .

وطلبت الكنيسة المال والهبات والوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التي يقولون إنها تقصر المدة التي تقضيها روح الميت لتعاقب من ذنوبها . . . وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءا كبيرا لهذا الغرض لتنجوبه روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقتصروا المدة عن أنفسهم في المطهر بعد موتهم أو يلغوها الغاء تاما . وأخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياح صكوك الغفران يجعل الأغنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كوليس حصيفا حين امتدح المال لأن (من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة) (١٥) .

وحدث صراع حربي بين الإمبراطور وملك فرنسا حيث انتصر الإمبراطور وأسر ملك فرنسا وطالب بالاستيلاء على كثير من أراضي فرنسا وعلى أن ينضم ملك فرنسا إليه في غزوة ضد الأتراك .

ولكن ملكة فرنسا رفضت المطالب كلها ، وأعدت جيشا لمحاربة الإمبراطور ، وحتى تجعل الإمبراطور ينشغل عن حربها ، استعانت بسلطان الأتراك طالبة منه تأجيل غزوته لبلاد فارس ومحاربة الإمبراطور ، ففعل ذلك وهُزم الإمبراطور من الأتراك هزيمة جعلت الإمبراطور شارل يؤمن بأن أي أغارة على فرنسا خيانة على العالم المسيحي .

وذعر الأمبراطور عندما علم - من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا أن حصار الأتراك لفيينا عام ١٥٢٩ ، انما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويس وكليمينت السابع لمساعدتهم ضد الأمبراطورية التي كانت تطوقهم . وفضلا عن هذا فان الملك فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسي خير الدين باربا روسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى المسيحيين إلى سوق النخاسة .

ولاستغلت السداجة بجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزا من الأمراض وشكا أحد الأساقفة من (الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقززة والموحى بها للجهلة من الناس ، باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين .

وكان فردريك الأول (١١٥٢ - ١١٩٠) ملك المانيا يتوق لأن يتوج امبراطورا ولم يكن ذلك متيسرا إلا بمساعدة البابا ، وقدم الشاب إلى رومه لنيل التاج ولكنه أغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول ونزل البابا هادريان إلى الأرض من غير معونة وأبى على فردريك (قبله السلام) وتاج الامبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة وبعد محاولات ستمرت يومين خضع الملك .

وأصر بكت رئيس الأساقفة فى انجلترا على أحقية الكنيسة فى محاكمة رجالها أمام محاكمها الخاصة . . . وأصر ملك انجلترا على عكس ذلك . . . وكانت اضطهادات وتدخل البابا ، فأمر هنرى أن يعيد بكت إلى كرسيه ، وأنذر إذا رفض بأنه سيحرم اقامة الصلوات والخدمات الدينية فى انجلترا . . . وخضع الملك .

وارتفع شأن البابا وعلت مكانته على ملوك أوروبا حيث أصبح هو الموجه لسياستها الدنيوية وكذلك أصبح المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا .

وأضحى جمع المال سنة متبعة عند البابوات بعد الحروب الصليبية لانجاز أغراض أخرى .

وكثر بيع صكوك الغفران . . . لمن يقوم بالخدمة في فلسطين أربعين يوما ، ولمن يتكفلون بنفقات محارب ، والذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، والذين يحاربون مع البابا ضد الأمراء والملوك المسيحيين . . . والذين نكصوا عن قسمهم بالاشتراك في الحروب الصليبية ، ولكل المحاربين للهراطقة (المسيحيين) .
(ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار) .

وقام المتشككون الجريثون يقولون إن اخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو مثله في أرضه .

ولما أراد الامبراطور فريدريك أن يستولى على الأقاليم التابعة للبابوية ليسيظ سلطانة الزماني على كل أنحاء الامبراطورية ، وقعت معارك كلامية وعسكرية بين الطرفين حيث انقسمت أوربا فريق يؤيد هذا وفريق يؤيد ذاك .

وفي هذا الوقت كان الكثير من (الملحدون) من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التي تحمل صورة المسيح .

وأصبح البابا قائد الجيوش ضد جيوش الامبراطور .

وأصدر البابا منشورا شديدا للهجة ، اتهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف والاستبداد ، وبالرغبة في القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه في عام ١٢٣٩ وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التي أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة بعث بها إلى ملوك أوربا ينفي فيها تهمة الكفر(*) ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية . وأخذ النزاع الأخير بين الامبراطورية والبابوية يجري مجراه .

وسجن وأسر الكثير من رجال الدين في الحرب .

وارتفعت أوربا للاعتداء على رجال الدين .

* لعل القارئ يلاحظ أن قيام البعض ، من أتباع الدين الواحد بالاسراف في تكفير الغير ليس جديدا على الانسان

ويلاحظ أن بعض الجماعات (الاسلامية) في العالم الاسلامي قد ورثت حق تكفير الغير عن باباوات روما .

يكرر البابا قرارات حرمان الامبراطور وأضاف إليها خلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق عاق - كما أصدر قرارا بحرمان كل من يساعد فردريك - ومنح الذين خاضوا الحروب الصليبية ، إذا حاربوا الامبراطور نفس المزايا السابقة .

وأصدر الامبراطور (منشور الاصلاح) يعلن فيه أن رجال الدين عبيد للعالم ومنهم من في مملكتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شيء من تقواهم ، ثم بدأ في مصادرة أملاك الكنيسة ليستخدم ثمنها في حربه .

وكان أهم مصدر لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها هو الكنيسة ، وذلك بفضل جمعها المال من كل مسيحي أوروبا ، فأصبح عندها مال فائض مع ما كان يردعه الأفراد عندها من أمانات ، وأقرضت الكنيسة للملوك وللأمراء وللقرويين ورهنت عندها الأملاك وحصلت على فوائد للقروض .

وكانت هذه القروض تستخدم عادة في الاستهلاك أو في الأغراض السياسية وقلما كانت تستخدم في تمويل التجارة والصناعة .

وقاوم البابا ورجال الدين جماعات الشعب المطالبة بالحكم الذاتي للمدن طمعا في استمرار مكاسبهم المالية والسلطوية .

وحدثت الثورات والحروب بين رجال الدين والشعب ، حيث قتل الكثير من الطرفين واستعمل البابا صكوك الغفران مع من حارب في صفه ، وصكوك الحرمان لمن تصدى لمحاربه من أهالي المدن المعادية .

ولما أوشكت القسطنطينية أن يستولى عليها الامبراطور من الامبراطور البيزنطي ، طلب البابا من المغول الزاحفة غربا الاغارة على بلاده من جهة الشرق ، (١٢٤٨) ولكن المغول رفضوا بسخرية قائلين إنهم لا يرغبون في إثارة الأحقاد بين المسيحيين وبعضهم وبعض) .

وعين البابا استيفن لانجن ليكون كبيرا للأساقفة (١٢٥٧) واعترض جون ملك إنجلترا وانذر رجال الدين في بلده (المؤيدين للبابا) بحرق الأديرة فوق رؤوسهم وأقسم (بأسنان الله) بأن ينفي كل قس كاثوليكي من إنجلترا إذا أصدر البابا قرارا بحرمانها وبسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقا لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) وأمتنعت كل الخدمات الدينية

فى انجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة وأغلق القساوسة الكنائس وسكنت
الأجراس ، ودفن الموتى فى أرض لم تدشن ورد جون بمصادرة جميع أملاك الكنائس
والأدبرة وأعطاهما لغير رجال الدين وحرّم البابا انوسنت الملك من حظيرة المسيحية
ولكن حوّن لم يعبأ بقرار الحرمان . .

ولما تم اقرار مبدأ عدم مشروعية الضرائب إلا بموافقة البرلمان الذى كان رجال
الدين أعضاء فيه (فى انجلترا) امتنعوا عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات
للاقتراع على الأموال المطلوبة - وقال ادوارد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية
الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها - وأمر ألا تنظر المحاكم المدنية فى القضايا التى
يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى القضايا التى يكون المدعى عليه
فيها رجلاً من رجال الكنيسة ثم حرّم على الكنيسة تملك أرض إلا بموافقة
الملك .

ومنح البابا للملك هنرى الثانى (انجلترا) (١١٥٤) حق الاستيلاء على أيرلندا
فى مقابل إعادة الحكومة النظامية وأن يجعل رجال الدين الايرلنديين أكثر تعاوناً مع
روما وأن يفرض بنساً واحداً فى كل عام على كل بيت فى ايرلنده يؤدى إلى الكرستى
البابوى .

ولما حاولت ايرلنده التحرر من سيطرة الانجليز ، انضموا لاسكتلندا
(١٣١٥) فأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قراراً بحرمان كل من يساعد الاسكتلنديين
ولكن الايرلنديين جميعهم تقريباً لم يبالوا بذلك وارتضوا ملكاً اسكتلندياً .

وكثرت زيجات فيليب ملك فرنسا ، وأقنع مجلس أساقفته الفرنسيين بجواز
طلاقه من زوجته ، ولم يوافق البابا على الطلاق ، فتحدى فيليب البابا وتزوج فى عام
١١٦٩ بزوجه أخرى ، وحرّم البابا وأمره أن يرجع إلى زوجته الأولى فرفض فحرّم
البابا جميع الخدمات الدينية فى كل أملاك الملك .

وثار الملك وخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة
(ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا) .

وهدد باعتناق الاسلام - وواصل حربه الدينية مدة أربع سنوات .
وطلب البابا من الامبراطور فردريك تجهيز حملة صليبية لاستعادة بيت المقدس
رغم مرض الامبراطور وتفشى الوباء فى جيشه .

ولما تراخى الملك أعلن البابا على العالم حرمان الأمبراطور .
وبمجرد أن أبحر الامبراطور إلى فلسطين ووصله عكا قامت الحرب بين البابا
وبين نائب الامبراطور لرغبة الأول في الحصول على أملاك الثاني .

وسقطت فعلا الكثير من أملاك الامبراطور في أيدي البابا . في الوقت الذي
تمكن فيه الامبراطور من إجراء صلح مشرف مع السلطان الكامل ملك مصر ، وفي
أجواء من كراهية ومقاومة وتحقير الكاثوليك ورجال الدين التابعين للبابا في الشام .

وعاد الامبراطور ليقود حربا ضد البابا ويسترد أملاكه وينتهي الأمر بالصلح
(١٢٣٠) والغاء قرار الحرمان

وبمناسبة استيلاء بعض الملوك على بعض أملاك البابوية أو الحصول على
ما تفرضه البابوية من أموال على الناس ، أصدر البابا منشوراً يقرر عقوبة الحرمان
للمعتدى .

ونشر مرسوم (استمع يا ولدى) الصادر من البابا إلى ملك فرنسا على الناس
حيث يطلب البابا في المقدمة من الملك أن يستمع إليه في خشوع بصفته ، أي البابا ،
خليفة المسيح بوصفه الملك الروحي على جميع ملوك الأرض ، ثم احتج على محاكمة
رجل دين أمام المحاكم المدنية ، وعلى الاستيلاء على أموال الكنيسة لاستخدامها في
أغراض مدنية .

ولكن الملك أمر بأن يحرق هذا المرسوم في حضرته وأمام جمهور كبير من الناس .
ودافعت جميع القيادات الفرنسية عن حقوق الملك الزمنية .

واليك نص المرسوم البابوي الصادر من البابا نقولاس الثالث (١٢٨٠) :
« نعلن بهذا حرمان جميع الضالين ونصب عليهم اللعنة ، الكاثاري ، البتارين
رجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذي يسمون به فاذا
أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضي الزماني لمعاقبتهم الخ »

محاكم التفتيش

كان الشعب نفسه ، إلا في جنوبي إيطاليا وفرنسا لقربيها من العالم الاسلامي ،
أشد الناس حماسة في اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لاعتناقه أوامر رجال الدين

دون أن يكون في ذهنه (الجاهل) صورة واضحة لها ، أو أن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل غريب ، أو لمزاولة التفتيش عن النفس بسبب ما كانوا فيه من متاعب وأحزان أضفاها الدين والفقر والطغيان السياسى .
وحدث الحرق ، والقتل ، ومصادرة الأموال للضالين .

كان اختصاص محاكم التفتيش مقصورا على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين^(١٩) .

وفي عام ١٤٨١ أحرق ستة من الرجال والنساء ، وما أن جاء العام الرابع حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصا .

وعندما اغتال أحد المنتصرين أحد رجال محكمة التفتيش (١٤٨٥) احتجاجا على وجود المحكمة في مدينتهم ، قبض على جميع المتآمرين وأعدموا وسط نداء الأهالى باحراق المنتصرين .

وسجن وعذب الكثير من المسيحيين وأحرقوا لمجرد شهادة مريبة من أعدائهم وطمعا في حصول المحكمة والمبلغ على أموالهم .
وقد عد البابليو ، القول بعدم أحراق الهراطقة ، من الهراطقة التى تستوجب اللوم .

وقد بلغ الذين أحرقوا حتى عام ١٧٥٨ أربعة آلاف نفس ، وفاخر أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف في أشبيلية وحدها .

ولكل من يشعر بأنه اقترف اثم الهراطقة ، فله في خلال (مهلة الصفح) أن يأتى إلى المحكمة ويعترف ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين .

وفي المحكمة ، على (المذنب) اثبات براءته لأنه قد ثبت عليه الاتهام من قبل مثوله أمامها وتستمر القضية شهورا في تعذيب مستمر لا كراه (المتهم) على الاعتراف ، ويكون التقييد بالسلاسل في السجن الانفرادى غالبا للحصول على أى اعتراف .

ويلجأ إلى التعذيب إذا وافقت المحكمة عليه .

وكان من وسائل التعذيب أن توثق يد الضحية خلف ظهرها أو يعلق منها أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماما ، ثم يقطر الماء في حلقه حتى يشرف على الاختناق ، وقد تربط يده ورجلاه بالحبال ربطا وثيقا حتى تقطع اللحم إلى العظام .

وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة وحكم عليهم بعد الموت بالمصادرة فيفقد الورثة ميراثهم ، ويحصل المبلغ على ٣٠ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل .

وخافت الأسر الثرية من المبلفين، فدفعت (مصالحات) لهم تأميناً لهم عن مصادرة أموالهم ، ثم أصبح قضاة محاكم التفتيش يسعون لجمع المال بدلا من الحفاظ على الدين الصحيح وانتشر الفساد .

وفي احتفال رسمي وشعبي كبير . . . يسير الموكب وراء (الدجالين والمجذفين في الدين والمتزوج من امرأتين ، والهرطقة المرتدين وفي الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت أو دمي المحكوم عليهم غيابيا أو صناديق تحمل رفات الموتى المحكوم عليهم بالهرطقة .

ويعطى المسجونون فرصة الاعتراف قبل الاعدام وفي هذه الحالة تقتنع المحكمة بجلده ومصادرة أمواله ويسجنه مدى الحياة الا إذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه فانه يغنم الرحمة بشنقه قبل احراقه .

. وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير عظام (الهرطقة) رمادا ، ينشر في الحقول والجداول ، ثم يعود القساوسة والمشهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهرطقة .

وهاجم جوهانس مساوىء كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء وطالب بتحريم القداس ، ورفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن (خلاصنا يأتي من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا) .

واصبحوا اعداء

وزاد العداوة بين زونجلى ولوثر والكنيسة بقوله إن الجنة يوجد فيها الكثير من اليهود والوثنيين الأجلاء .

ونشب قتال بين جيش زونجلى وجيش الكاثوليك . . . وهزم زونجلى وقتل مع ٥٠٠ من أتباعه ومزق جسده أربعة أجزاء ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث . وقال لوثر (أن هذا حكم السماء على كافر) .

ورغم ذلك أنتشرت تعاليم زونجلى اللوثرية وساد مبدأ التسامح بين المذاهب المختلفة فى بعض مقاطعات سويسرا .

وتناقضت أقوال لوثر بين التسامح الدينى وبين القضاء على الهرطقة . . . وكان ذلك سببا فى نشوء طوائف دينية على أساس الفكر الحر والتسامح ثم نحد لوثر قد عاد وشن هجوما عليهم . فهو يقول :

(لا يجوز اكراه انسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضررا ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة فى الكنيسة والتلاؤم معها فى ظاهر السلوك* . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية فى التعبير عن الرأى والعقيدة بين الاثراك أكثر مما يوجد فى الولايات اللوثرية .

وفى آخر أيام لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح وقال : يجب تحمل الكتالكة واللامعمدانين فى صبر حتى يوم القيامة ، وعندما يتولى أمرهم المسيح . وأثناء صراعات الكاثوليكية مع البروتستانتية الناشئة فى المانيا كان لهجوم السلطان سليمان التركى على غرب أوربا حتى فيينا أثر فى ايقاف الصراعات بين المذهبين المسيحيين لانشغال الكاثوليك بالحرب ، ولكن لما فشل سليمان فى غزو فيينا وعاد إلى بلاده ، دخل أتباع المذهبين فى صراع مرير . وانقسمت اللوثرية على نفسها فى ألمانيا حتى قال لوثر إن هناك طوائف وعقائد بعدد الرؤوس تقريبا .

وكان الانقسام يرجع إلى سيادة الضمير ومبادئ الحكم الفردى . وفرح الكاثوليك بهذا الانقسام حيث تنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤدى إلى فوضى دينية .

(*) لم يعمل أى حاكم مسلم ، مهما اشتهر عنه من العلم ، مثل هذا (الحرم) مع أى من أهل الكتاب

وانضم البروتستانت للكاتوليك في حرب الأتراك ولما عاد السلطان دون الاشتباك في حرب (١٥٣٢) عاد الجيش إلى سلب ونهب المدن والبيوت . وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر : (وأوقع المسيحيون بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم) .

وأنشأت اللوثرية (البروتستانت - المحتجون) ، كنيسة لهم باسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح لوثر .

وفي عام ١٥٢٥ صدر أمر من أمير ساكسونيا بأداء الصلاة وفقاً للمذهب الإنجيلي وكل من يرفض الامتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، وينفى العلمانيون المتشبهون بأرائهم بعد فترة يمهلون فيها - وحذا حذوه امراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلاً^(٢١) .

وقاوم الجهاز الحاكم (الكاثوليكي) بفرنسا العنف الهيجونوتي (البروتستانتى) ، وليوقفه عند حده بحظر الخدمات الهيجونوتية .

وثار الشعب الكاثوليكي . بينما هاجم الهيجونوت المواكب الكاثوليكية في مختلف المدن ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل ونهبت بعض الكنائس والأديرة وقتل كثير من القساوسة وداسوا القربان المقدس بأقدامهم (١٥٦٢) وكانوا إذا ملكوا زمام الأمر في أى جهة هاجموا الكاثوليك وطقوسهم وكنائسهم وأديارهم .

كما منعوا أبناءهم من الكاثوليك وهكذا لم ير أحداً من الطرفين أى معنى للتسامح .

وأقرض رجال الدين الكاثوليك الملكة بعض المال لتعرض عن الاقتراحات الهيجونوتية بخصوص تأمين الكنائس .

وثارت ثائرة الكاثوليك عندما حضر شيخ كبير مندوباً لكالفن وقال في خطبته الدينية إن (جسد المسيح في القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض) صاح المتدينون الكاثوليك وألحوا في نفى كل من يتشككون في (الوجود الحقيقى) . وانضمت الحكومة للكاتوليك لمقاومة اعتداءات الهيجونوت واضطهادهم قانوناً وبالقوة المسلحة .

وبدأت الحرب بين الهيجونوت والكاثوليك حين جاء حجر من الهيجونوت في وجه دوق جيز (كاثوليك) فأدماه فهاجم رجاله (٢٠٠ رجل) الهيجونوت أثناء تجمعهم (٥٠٠) بين رجل وطفل وامرأة وأعملوا فيهم القتل والذبح . واستعد كل فريق للقتال .

وحصل كل على مساعدة مادية وعسكرية من الدول التي تدين بمذهبه خارج فرنسا ، الكاثوليك من اسبانيا والبروتستانت من انجلترا والمانيا وذبحت جيوش كل طرف ودمرت وأحرقت المدن التي تستولى عليها من الطرف الآخر . وبذلت محاولات التسامح وانتهكت من الطرفين . وأعد كل طرف قواته لحرب ثانية .

وانتصر الهيجونوت وهم في طريقهم إلى باريس ، وهنا منحهم الملك صلحا ومنحهم حرية العبادة إلا في باريس وحقهم الكامل في تقلد المناصب العامة . وخشية من الهيجونوت من الاستيلاء على السلطة قريبا ، وافقت الملكة (كاترين دي مديتس) على قتل زعماء الهيجونوت .

ولما لم يقتنع الملك بهذا الاغتيال ، ضغطت عليه أمام المستشارين (الكاثوليك) بطلب موافقته فصاح قائلا في ثورته (قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال (الهيجونوت) - فأنا موافق . ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت في فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد يلومنى اقتلوهم جميعا اقتلوهم جميعا) .

وأخذوا هذا الأمر في ساعة الغضب والانهايار العصبى ونفذوه بحذافيره . ونجحت بداية المؤامرة في قتل قائد الهيجونوت وهو يصلى ، فقد طعن بالخنجر في قلبه ثم ألقي جسده من النافذة إلى الشارع وهو حى وفصلت رأسه عن جسده وأرسل إلى الملكة أو إلى روما ومزقت الجماهير باقى الجسد .

وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى في جنون الحرب التي بدأت شرارتها يوم ٢٤ أغسطس .

ودخلت الجماهير المعركة ، فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف واقتحم كل بيت اشتبه في ايوائه

للهيجونوت وذبح كل من يرغب فى قتل غريمه والتخلص منه أو من منافسته . . .
أو للثأر ، وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت
الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا . وتناثرت الجثث فى الشوارع وأخذ
الصبية يلعبون فوقها . . . وشارك الجيش والحرس والأهالى فى المذبحة فى باريس
وانطلق السلب والنهب دون قيد ، وانتهت المذبحة وزار الملك والملكة عدة كنائس
لشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحدث فى الأقاليم مثلما حدث فى باريس ، فارتكبت المذابح بالآلاف . . .
وأرخى كثير من الأساقفة العنان للذبح بل نددوا ببطء الحكام فى إصدار
أوامر القتل .

وفرّح البابا بانباء المذبحة التى راح ضحيتها عشرات الألوف من الأنفس .
وكتب ممثل البابا (أهنيء قداسة البابا من أعماق قلبى على أن الله جل جلاله
شاء فى مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيهها غاية فى التوفيق والتبل ،
وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من
الحكمة ، وفى اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردىن محبوسين فى القفص
واهتز البابا طربا حين وصله نبأ المذبحة ونفخ المبشر مبلغا ضخما من المال ، وسرعان
ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدافع وقرعت الأجراس فى ابتهاج . . . وعملوا
قداسا مهيبا لشكر الله على (هذا الرضى الرائع الذى أبداه للشعب المسيحى)
والذى أنقذ فرنسا والكرسى البابوى المقدس من خطر عظيم - وأمر البابا بضرب
مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم - وعهد إلى رسام كبير بأن يرسم فى
الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة (البابا يوافق على قتل
كوبنى) زعيم الهيجونوت .

واحتجت أوربا البروتستانتية على المذبحة ودمغتها بأنها همجية كلها جبن
ونذالة .

ولكن . . . ما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب
الدينية الرابعة ، وأغلقت لامروستيل وعدة مدن أخرى أبوابها فى وجه جيش الملك
وأفلحت فى مقاومة الحصار . (٢٢)* .

* لعل القارىء يلاحظ عبث فرض دين أو مذهب ديفى معين على الناس بالقوة فالحرية جزء لا يتجزأ من
صميم النفس والفطرة الانسانية -

الفصل الثالث

الصراعات الإسلامية الداخلية

كان أول صراع بعد وفاة النبي محمد ﷺ مباشرة هو الصراع الديني السياسي ،
أو السياسي الديني . . .

وذلك ان الانصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة عقب التأكد من وفاة النبي ﷺ
ليختاروا من بينهم حاكما للمسلمين . . .

ثم جاءت قيادات الصحابة من قريش (المهاجرون) ليقتنصوا ميزة الحكم من
الانصار وليستأثروا بها دونهم .

ووجد القرشيون ، بقيادة ابوبكر وعمر سُندهم الديني في مطالبهم السياسية في
الحكم في ما اكده من وجود قول للنبي ﷺ بأن (الأئمة) من قريش .

كما فسروا، انابة النبي ﷺ لابي بكر في امامة المسلمين في الصلاة فترة مرضه بأنه
وصية بخلافته له في أمور المسلمين . . . وإلى غير ذلك من أدلة مما هو موجود في كتب
التاريخ .

ولما تنازع سيدنا علي ومعاوية على حكم المسلمين ، وجد كل فريق ما يؤيد
موقفه من أسانيد دينية .

ثم لما تنازع العباسيون مع الامويين على الخلافة ، وجد كل فريق سنده في
الاحاديث النبوية .

ولما ظهر مذهب الشيعة لينفصل دينيا ثم سياسيا عن أهل السنة ، وجد ضالته
في الأحاديث والادلة الدينية

وحتى في العصر الحديث ، حينما تطالب جماعات تطلق على نفسها الاخوان المسلمون او تنظيم الجهاد ، أو التكفير والهجرة ، او الناجون من النار . . . الخ فان هذه الجماعات تسعى إلى الحكم ، وهذه عملية سياسية ، ثم تجد سندها الديني أيضا في القرآن والاحاديث النبوية .

وليس هنا المجال لبحث وتقييم هذه المستندات والادلة (الدينية) المؤيدة للمطالب السياسية لبعض الطوائف والجماعات ، ولكن ما يهمنا في هذا المجال ان المسلمين تصارعوا دينيا لتحقيق اهداف سياسية . . . فهنا نجد صورة صريحة وواضحة من الصراع . . . وهو الصراع الديني السياسي .
ونشأ نوع آخر من الصراع الديني داخل الإسلام ، وهو الصراع في تفسير بعض احكام الدين .

وذلك ان المسلمين يستقون احكام دينهم من القرآن الكريم ومن السنة النبوية .
والسنة النبوية هي أقوال وتصرفات النبي عليه الصلاة والسلام وتخص التشريع الإسلامي .

ومرجع ذلك إلى ما جاء في القرآن الكريم من أن السنة النبوية المتصلة بالتشريع الإسلامي ان هي (الا وحى يوحى) من الله سبحانه وتعالى .
وعندما تظهر مشكلة من مشاكل الحياة الدنيا ، او عندما يتساءل البعض عن تفسير بعض الآيات المتعلقة بالله سبحانه وتعالى أو بالآخرة او بالغيبات بصفة عامة فإن المرجع في وضع الحلول لأي مشكلة او في الرد على اى تساؤل هو ما جاء في القرآن وما ثبت عن الرسول ﷺ من السنة .

ولكن الفقهاء اختلفوا في تفسير الكثير من آيات القرآن الكريم كما اختلفوا في تفسير السنة ، كما اختلفوا في الثقة ببعض الاحاديث المنسوبة إلى الرسول (ﷺ)

فمن الفقهاء من أخذ بحكم ورد في حديث ثبت عنده انه حديث صحيح ، ومن الفقهاء من رفض الأخذ بنفس الحديث لأنه لم يصح نسبه إلى الوصول ، ويختلف الفقهاء تبعاً لاختلافهم في تفهم اللغة العربية ثم يختلفون تبعاً لأسباب نزول الآيات والاحاديث ، وذلك ان الكثير من آيات القرآن لها أسباب للنزول ، وقد اختلف معاوية مع أبي ذر الغفاري في الآية التي تقول (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليهم في نار جهنم

فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، وهذا ما كترتم لأنفسكم فوقوا ما كنتم تكتزون) .

٩ : ٣٤ ، ٣٥

ورأى معاوية أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ، بينما رأى ابوذر ان هذه الآية نزلت للمسلمين واهل الكتاب جميعا .

ولهذه الأسباب اضطهد معاوية ابوذر الذي كان يعيب عليه اكتناز أموال المسلمين .

ولا أريد ان اكثر عليك ببيان اسباب اختلاف الفقهاء ، فهو موجود بتوسع في الكتب المخصصة لذلك ، وانما لزم التنويه بشرح هذا الموضوع ، حيث انبثق عن هذه الاختلافات نشأة المذاهب الفقهية الاربعة المعروفة .

وكان هذا الاختلاف ، في بداية الامر ، اختلافا سلميا . . . والجميع كانوا يجتهدون ويختلفون تحت شعار (المجتهد ان اصاب فله اجران ، وان أخطأ فله أجر) . . . وذلك ، ان اختلاف الرأى في الموضوع الواحد ، كان يقابل برحابة صدر من المخالفين .

الا ان الامور تطورت مع انتشار الجهل . . ودخلت هذه الاختلافات الفقهية في حلبة الصراعات الدموية .

والنوع الاخير المهم من الصراعات الدينية الإسلامية هو-صراعات العقل والجمود

ففى كل عصر من العصور تجد المجددين والمفكرين وتجد ايضا المحافظين المتمسكين بالقديم والمقاومين لكل تيار فكرى جديد . وكل له اسلحته . . .

وكان أهم فئة دعت إلى تمكين العقل في امور الدين هي فئة المعتزلة ، وقد وقف الى جانبها وساندها الخليفة المأمون في العصر العباسى الأول ثم الخليفة المعتصم . غير أن جماعة السنة قاومت المعتزلة ، ودخلت المقاومة في مجال الصراعات الكلامية والدلموية .

وكان من الممكن ان نجعل صراعات المعتزلة مع اتباع السنة تحت بحث الصراعات الفقهية ، إلا أنه بمراعاة أن موضوع صراع العقل مع الجمود يمثل أهمية

قصوى للمسلمين في عصرهم الحديث ، فقد فضلنا ان نفرده بحثا خاصا لعل ان يكون في ذلك افادة .

الصراعات الدينية السياسية — الشيعة :

كان الشيعة يرون ان علياً اولى بالخلافة ممن سبقوه (ابوبكر ، عمر ، عثمان) ويحتجون في ذلك بأن سيدنا على وأهل بيته الشجرة وقريش الشجرة ، والشجرة خير ما في الشجرة .

وعقب التأكد من وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، أبدى كل من طائفتي المهاجرين والانصار رغبتهم في ان يكون الحاكم منهم . . . ثم عُرض ان يُنصب حاكمان للمسلمين احدهما من الانصار والآخر من المهاجرين ولولا ان انهى عمر هذا الخلاف بمبايعته أبا بكر واقتداء الآخرين به ، لنشبت صراعات دموية بين المسلمين ولم يتم دفن رسولهم بعد .

ويروى البخارى عن ابن عباس ان عليا رضى الله عنه خرج من عند النبي ﷺ في وجعه الذي توفي فيه ، فقال الناس يا ابا الحسن كيف اصبح رسول الله ، فقال : اصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله لأرى رسول الله سيتوفى من وجعه هذا ، انى لا عرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فان كان فينا علمناه . وان كان في غيرنا كلمناه فاوصى بنا : فقال (على رضى الله عنه) والله لئن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعدها ، وإنى والله لا أسأله .

وكان جمع من الصحابة يرى ان عليا افضل من أبى بكر وعمر وغيرهما . ونرى بعد هذا العصر ان الفكرة تطورت فقال شيعة على ان الامامة (تعيين الحاكم الدينى السياسى) ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى الامة ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفالها ولا تفويضها إلى الامة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر . وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة . بل أكثرها موضوع او مطعون في طريقته ، او بعيد عن تأويلاتهم . . . ، ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب على بالوصى يريدون ان النبى اوصى لعلى

بالخلافة من بعده ، فكما وصى رسول الله ، فعلى ليس الامام بطريقة الانتخاب ، بل بطريق النص من رسول الله ، وعلى اوصى لمن بعده ، وهكذا كل امام وصى لمن قبله وانتشرت كلمة وصى بين الشيعة واستعملوها .

وقد اداهم هذا النظر إلى أمور منها القول بعصمة الاثمة على ومن بعده فلا يجوز الخطأ عليهم ولا يصدر منهم الا ما كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى ابو بكر وعمر .

يقول ابن ابي الحديد في على وهو من معتدلى الشيعة (يقول اصحابنا وقد سلكوا طريقة مقتصدة - ان عليا افضل الخلق في الآخرة ، واعلاهم منزلة في الجنة ، وافضل الخلق في الدنيا واكثرهم خصائص ومزايا ومناقب وكل من عاداه او حاربه او ابغضه فانه عدو الله سبحانه وتعالى وخالد في النار مع الكفار والمنافقين الا ان يكون ممن ثبتت توبته ومات على تولى حبه) .

... وقد ثبت ان رسول الله قال (لعلى) حريك حربي وسلمك سلمى ، وانه قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه وقال له : لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق وانا لم نجعل بينه وبين النبي ﷺ الا رتبة النبوة ، واعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه) .

لم يكتف غلاة الشيعة بتفضيل على على جميع الخلق بعد الرسول ، وانه معصوم وانه موصى له بالخلافة في ذريته الى يوم الدين ، بل الهوه ، فمنهم من قال : (حل في على جزء الهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب اذ انخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النصر والظفر وبه قلع باب خيبر ، وعن هذا قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية قالوا : وربما يظهر في بعض الازمان والرعد صوته والبرق تبسمه الخ) وذكروا ان اول من قال بتأليه على عبد الله بن سبأ اليهودى ، وكان ذلك في حياة على وعبد الله بن سبأ كان يهودياً واسلم وعمل على هدم الاسلام واتخذ الاسلام ستارا لاغراضه .

ومن تعاليم عبد الله بن سبأ الرجعة . وقد بدأ قوله بأن محمدا يرجع ، وكان مما قاله : (العجب لمن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع) ثم نراه تحول - ولا ندرى لاي سبب الى القول بان عليا يرجع - وقال ابن حزم ان ابن سبأ

قال - لما قتل على - : (لو أتيتمونا بدماعه الف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً) . وفكرة الرجعة هذه اخذها ابن سبأ عن اليهودية ، فعندهم ان النبي (الياس) صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون . . . وهكذا كان الحال في المسيحية عن عودة المسيح .

وتطورت هذه الفكرة عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الاثمة ، وان الامام المختفى سيعود فيملاً الأرض عدلاً ، ومنها نبعت فكرة المهدي المنتظر .

وقد نسب غلاة الشيعة الكثير من المعجزات (لعلی) كما نسبوا اليه العلم بكثير من الغيب . . . وقالوا انه كان يعلم كل شيء سيكون ، ووضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة : (اسألوني قبل ان تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن تهدي مائة وتفضل مائة الا انبأكم بناعقها ، وقائدها وسائقها وما في ركبها وخط رحالها ، ومن يقتل من اهلها قتلاً ، ومن يموت منهم موتاً . . . الخ) ورووا له انه أخبر بمقتل الحسين واخبر ببني بويه وایام دولتهم ، واخبر عبد الله بن عباس بانتقال الامر الى اولاده ، (فانه لما ولد لعبد الله بن عباس ابنته على اخرجها ابوه الى علي بن ابي طالب فثحبها وتفل في فيه وحنكه بشمرة قد لأكها ورفعها اليه وقال : خذ - اليك - ابا الاملاك) وهذه الاخبار وامثالها انتشرت بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون انه اخبر بما كان وما سيكون الى يوم الدين .

وهناك نوعان من العلم : علم الظاهر وعلم الباطن - وقد علم النبي ﷺ هذين النوعين لعلی ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره ، واطلعه على خفايا الكون والمغيبات ، وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن بعده وكل امام يعلم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من الاسرار ، ولذلك كان الامام معلماً . ولا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث الا اذا روى عن هؤلاء الاثمة .

واساس نظرية الشيعة - الخليفة او كما يسمونه هم (الامام) فعلى هو الامام بعد محمد ، ثم يتسلسل الاثمة بترتيب من عند الله .

والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، وهو أكبر معلم ، ورث علوم النبي ، وليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لانه معصوم من الخطأ . . .

وقد اختلفوا في الاثمة وتسلسلها . . . واهم فرق الشيعة الزيدية ، والامامية .

فالزيدية اتباع زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ومذهبهم اعدل مذاهب الشيعة واقربها الى اهل السنة . . . فهم يقرون بصحة امامة ابي بكر

وعمر . . . وليست هناك امامة بالنص ولم ينزل وحى يعين الائمة بل كل فاطمى زاهد شجاع سخرى قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة يصح ان يكون اماما . . . ولهذا كانت الامامة عندهم عملية لا سلبية ، كما هى عند الامامية تنتهى بالامام المختفى .

وهم لا يؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالامام فجعلت له جزءا إلهياً ، . . . ولازال الزيدية فى اليمن الى الآن .

والامامية سموا كذلك لان اهم عقائدهم أسست حول الامام ، وقد قالوا ان محمداً (ﷺ) نص على خلافة سيدنا على ، وقد اغتصبها ابو بكر وعمر ، وتبرأوا منها ، وقدحوا فى إمامتيهما ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان ، والامامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الائمة .

فمن اشهر فرقهم الاثنا عشرية ، سموا كذلك لانهم يسلسلون ائمتهم الى اثني عشر اماما ، وعقيدتهم هى العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم .

والاسماعيلية سميت كذلك لانهم يقفون بائمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبتدىء تعاليمهم باثارة الشكوك فى الاسلام كسؤالهم ما معنى رمى الجمار ؟ وما العدو بين الصفا والمروة ، وتنتهى بهدم الاسلام والتحلل من قيوده واولوا كل ما فيه فقالوا ان الوحى ليس الا صفاء النفس وان الشعائر الدينية ليست الا للعامة ، اما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها ، وان الانبياء سواس العامة واما الخاصة فأنبياءهم الفلاسفة ، وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن ، فهورموز لأشياء يعرفها العارفون . انما يجب ان يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز ، وللقرآن ظاهر وباطن ، ويجب ان نخترق الحجب المادية حتى نصل الى اظهر ما يمكن من الروحانية ، ومن ثم سموا (الباطنية) ولايزال لهم بقايا الى اليوم فى الشام والعجم والهند وكان رئيسهم اغاخان الزعيم المشهور .

والامامية - على العموم - تقول بعودة امام منتظر وان اختلفوا - باختلاف طوائفهم - فيمن هو الامام المنتظر - ففرقة ينتظرون جعفر الصادق - واخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابي طالب ، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية وتزعم انه حى لم يميت وانه بجبل رضوى الى أن يأذن الله له بالخروج . . . وانه بين اسد وثمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، ويعود بعد الغيبة فيملأ العالم عدلا كما ملأ جورا .

وأيا كان سبب نشأة الشيعة . فإنها قد نشأت فعلا وكان لشوئها وانتشارها آثار مهمة في مجال صراعات المسلمين ضد انفسهم .

ولقد بدأت الصراعات الدموية بمقتل على واشتد لهيبتها بمقتل الحسين بطريقة وحشية خالية من الرحمة مما جعل الشيعة يقيمون سنويا ماتمهم على مقتله بالبكاء والصياح حتى الآن .

وكان الحسين قد خرج في سبعين نفرا اكثرهم اولاده واقاربه وأهل بيته حين تقابل مع عبيد الله بن زياد وهو في اربعة آلاف مقاتل عام ٦١ هـ وعلم الحسين انه ليس به طاقة فنفذ اليه وقال : انا معك بين ثلاثة امور اما تدعني اذهب من حيث جئت واما ان تعين لي موصعا آخر اقصده راعيش به واما ان اسلم نفسي اليك نازلا على حكم يزيد بن معاوية فتحملني اليه ليفعل في أمري ما يشاء . فقال عبيد الله : اما الافراج لك عن الطريق لتذهب من حيث جئت فلا سبيل اليه ، واما تعيين موضع تقصده فليس ذلك إلى واما نزولك على حكم يزيد فلا والله ما تنزل إلا على حكمي . فقال الحسين - الموت تحت ظلال السيوف احب إلى من النزول على حكمك ، وتواعدوا للقتال فحين التقى القوم لم يرم احد من عسكر عبيد الله سهما ولم يسلم سيفا . فقال عبيد الله بن زياد : من أتاني برأس الحسين فله الرى فتقدم إليه عمر بن سعد بن اب وقاص وقال له : ايها الامير اكتب لي عهد الرى حتى افعل ما تأمر في الحال فكتب وسلم الى عمر فتقدم وانتزع سهما من كنانته . ورمى به الحسين فوق في نحره فسال دمه على صدره ولحيته فأخذ الدم بيده ورمى به وصاح اللهم هذا افعالهم بابن بنت نبيك : ثم تكاثروا عليه وجاء الشمر - فاجتز رأسه ووضعوه في مثلاة فيها تبين وحمله إلى عبيد الله بن زياد فنفذه عبيد الله على هيئته إلى يزيد (٢٥) .

ولعل هذه الصورة هي التي اشعلت الصراعات للاطاحة بالاسرة الاموية الحاكمة التي تسببت في مقتل على والحسين ونسب اليها مقتل الحسن مسموما ومن هنا وجدت الشيعة المجال النفسى الشعبى للتعاطف معها .

- الخوارج

بعد تولى على رضى الله عنه الخلافة ، دان بالولاء له الجميع بصفة عامة ما عدا الشام بقيادة معاوية .

فقد كان معاوية هو أقوى الأعداء في المنافسة على الخلافة .

ولما كان معاوية غير قادر على الانتصار عسكريا على فريق علي ، فقد امر جنوده برفع المصاحف على أسنة الرماح طالبا اللجوء إلى التحكيم لايقاف اراقة دماء المسلمين .

ورغم مقاومة على لخديعة خصمه ، الا ان غالبية جنوده رفضوا قتال جيش كف عن القتال ورفع المصاحف تفضيلا للسلم .

وخضع على وهو مكره للتحكيم ، وارسل عنه انا موسى الاشعري ليمثله في مجلس التحكيم كما أرسل معاوية عمرو بن العاص ليمثله في هذا المجلس .
واتفق كل من ابي موسى وعمرو على أن يعلنوا على الملأ خلع كل من معاوية وعلى من الخلافة حقنا للدماء ، وتولية غيرهما .

ولما كان ابو موسى هو الاكبر سنا ، فقد دفعه عمرو إلى البدء باعلان حكمهما على الملأ وامتثل ابو موسى واعلن خلع كل من علي ومعاوية ، ثم جاء عمرو بن العاص واعلن موافقته على خلع علي من الخلافة والابقاء على معاوية .

ومن هنا بدأت الفرقة بين جيوش المسلمين وبين المسلمين بعضهم وبعض ففريق حكم بتكفير معاوية وعمرو . . . وفريق نفى عنها هذا الاتهام . . . الخ . .

ويهمنا في هذا الصراع على السلطة الذي اتخذ الشكل الديني فائمه فرقة الخوارج التي عارضت في موافقة على على التحكيم ، لأن هذا القبول يتضمن اعترافه رضي الله عنه ، بالشك في أحقيته في الخلافة ، ورفعت الخوارج شعار (لا حكم الا لله) وكفرت على لأنه لم يحكم بما انزل الله . وحاول سيدنا على رضي الله عنه اعادة الخوارج الى طاعته مبينا خطأهم في تفسير احكام الدين وأنه ، رضي الله عنه ، قد تشرب بالاسلام منذ صباه مما ينفي عنه الكفر الا أنهم أصروا على موقفهم من تكفيره لأنه رضي بالتحكيم ولم يحكم بما انزل الله .

وحاربهم سيدنا على لخروجهم على الجماعة وهزمهم في موقعة النهروان وبعدها قام أجد الخوارج وهو ابن ملجم فقتل سيدنا على . . .
وتشدد الخوارج في العمل بما فهموه من تفسير لبعض احكام الدين مما أدى بهم الى تكفير عامة المسلمين واستحلال قتلهم .

وترى الخوارج ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فلا يصح ان يتنازل او يحكم ، وليس بضروري ان يكون الخليفة قرشيا بل يصح ان يكون من قریش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب ان يخضع خضوعا تاما لما امر الله - والا وجب عزله .

واهم ما قرره الخوارج ان العمل باوامر الدين - من صلاة وصيام وصدق وعدل - جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد وحده فمن اعتقد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر . ولهذا استحلوا قتل مخالفينهم .

وقد شغلت حروب الخوارج كل عصر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية وراح ضحيتها مئات الألوف من أرواح المسلمين

صراعات الشيعة :

اتفقت تعاليم الخوارج والشيعة على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون فاشتركوا في مناهضتهم ولكن الخوارج كانوا ظاهرين في حروبهم ، غلبت عليهم الطبيعة البدوية في الصراحة ، فاکثرهم لا يقول بالتقية ، اما الشيعة فكانوا يحاربون جهرا إذا امکن الجهر ، فإذا لم يستطيعوا فسرا ؟ وقال اکثرهم بالتقية ، فكانوا بهذا اشد على بنى امية ، وهم ادعى إلى الحذر منهم ، فبشوا العيون والارصاد على الشيعة ، واضطهدوهم اضطهادا شنيعا ، فهدسوا للحسن حتى طعن بخنجر في جنبه ولكن لم يمته ، ووقعوا الفشل في جيشه حتى وادعهم - ثم قتلوا الحسين في كربلاء ، ثم تتبعوا اهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وارجلهم على الظنة - وكل من عرف بالتشيع لهم ، سجنوه ونهبوا ماله او هدموا داره واشتد بهم الامر في ايام عبد الله بن زياد قاتل الحسين واتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتله ، واخذهم بكل ظنة و تهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق او كافر احب اليه من ان يقال له شيعة على ، حتى يروى ان رجلا - يقال انه جد الاصمعي - وقف للحجاج فقال له - ايها الامير ان اهل عقوفى فسمونى عليا ، واني فقير بائس ، وانا الى صلة الامير محتاج فتضاحك له الحجاج ، وولاه عملا ، ويقول المدائني : (ان زياد بن سمية كان يتبع الشيعة في الكوفة وهو بهم عارف ، لانه كان منهم ايام على فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، واخافهم وقطع الايدي والارجل ، وسمل العيون ،

وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم من العراق فلم يبق به معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله في جميع الافاق الا يجيزوا لاحد من شيعة علي واهل بيته شهادة - وكتب اليهم ان انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه واهل ولايته والذين يرددون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم ، وقربوهم واکرموهم واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم واسم ابيه وعشيرته ، ففعلوا حتى اكثروا من فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه اليهم معاوية من الصلوات . وقال انه كتب إلى عماله ان (انظروا إلى من قامت عليه البيعة انه يحب عليا واهل بيته فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه) . والعباسيون كانوا ابلغ في التنكيل بهم لانهم اعرف بخباياهم ، لما كانوا يعملون معهم في عهد بنى أمية .

هذه الاضطهادات (الاموية) كان من نتائجها إحكام الشيعة للسرية ونظامها فهم اقدر الفرق الإسلامية على العمل في الخفاء ، وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم . وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء إلى الرموز والتأويل ونحو ذلك وكان من اثر هذا الاضطهاد ايضا صيغ ادبهم بالحزن العميق والنوح والبكاء وذكر المصائب والالام

وفي عهد عبد الملك بن مروان سلب الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق والحرمين وخراسان فقتل وقتك وهدم الكعبة ورمأها بالمنجنقات ، وصلب عليها عبد الله بن الزبير (امه اسماء بنت ابي بكر الصديق) ، وبقي سنة مصلوبا الى أن حج عبد الملك بن مروان فوقفت له اسماء على الطريق وقالت له - أما آن لهذا الراكب ان ينزل ؟ فأمر بحله وتسليمه اليها .

وفي عهده قتل الحجاج الف الف وستمائة الف مسلم في ولايته ومات وفي حبسه ثمانية عشر الف نفس يسقيهم السرجين المداف في بول الحمير .

وكان بنو امية كلهم يلعنون عليا - على المنبر ومنذ ولي عمر بن عبد العزيز ابطال تلك اللعنة

ولما كان في عهد ابي جعفر المنصور وكان واليه على مصر سنة ١٤٤ هـ يزيد بن حاتم بن المهلب . . ظهرت دعوة ابن حسن بن علي بمصر وتكلم الناس بها وبابيع

كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله وهو اول علوى قدم مصر وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد .

وظلت شيعة على بمصر الى أن ورد كتاب من المتوكل على الله إلى مصر يأمر فيه باخراج آل ابي طالب من مصر إلى العراق فأخرجوا واستتر من كان بمصر على رأى العلوية حتى إن يزيد بن عبد الله امير مصر ضرب رجلا من الجند لحد وجب عليه فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين درة ولما بلغ الخبر الخليفة المتوكل زاد عدد الضربات إلى مائة سوط وحمل بعد ذلك إلى العراق سنة ٢٤٣ هـ وتتبع يزيد (امير مصر) الروافض (الشيعة) فحملهم إلى العراق ودل في شعبان على رجل يقال عنه انه حفيد لعلى بن ابي طالب وانه بويج له فأحرق الموضع الذى كان به وأخذ فافر على جمع من الناس بايعوه فضرب بعضهم بالسياط وأخرج العلوى هو وجمع من آل ابي طالب إلى العراق حيث كان المتوكل قد مات وخلفه الخليفة المنتصر - فورد كتابه إلى مصر بان لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين احد من الطالبين (العلويين) خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينه . . وقبض على كثيرين وارسلوا إلى العراق .

وفي اماره هارون بن خماروية بن أحمد بن طولون (فى مصر) انكر رجل من اهل مصر ان يكون احد خيرا من اهل البيت فوثبت عليه العامة وضرب بالسياط يوم الجمعة سنة ٢٨٥ هـ .

ومازال امر الشيعة يقوى بمصر إلى ان دخل سنة ٣٥٠ هـ ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند ومع جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكر السلف والنوح ، قتل فيها من الفريقين وتعصب السودان ضد الرعية فكانوا إذا لقوا احدا قالوا له من خالك فان لم يقل معاوية والا بطشوا به وشلحوه ثم كثر القول (معاوية - خال على) - وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة يناديان كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص والعام معاوية خالى وخال المؤمنين وكاتب الوحى ورديف رسول الله وكان هذا احسن ما يقولونه والا فقد كانوا يقولون معاوية خال على من ها هنا ويشيرون إلى اصل الاذن ويلقون ابا جعفر مسلما الحسينى

فيقولون له ذلك في وجهه - وكان بمصر اسود يصيح دائما معاوية خال على فقتل بتنيس ايام القائد جوهر .

ولما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة ومحاربتهم الحاج ونهبهم خرج خلق من المصريين في شوال فلقوا كافور الاخشيدى بالميدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا معاوية خال على وسألوه ان يبعث لنصرة الحاج من الطالبين وفي شهر رمضان سنة ٣٥٣ هـ اخذ رجل يعرف بابن ابى الليث الماطى ينسب إلى التشيع فضرب مائتي سوط ودره ثم ضرب في شوال خمسمائة سوط ودره وجعل في عنقه غل وحبس وكان يتفقد كل يوم لثلا يخفف عنه ويبصق في وجهه فمات في محبسه فحمل ليلا ودفن فمشت جماعة إلى قبره لينبشوه وبلغوا إلى القبر فمنعهم جماعة من الاخشيدية والكافورية فأبوا وقالوا هذا قبر رافضى فثارت فتنه وضرب جماعة ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس .

ولما دخل جوهر القائد بمساكر المعز لدين الله إلى مصر وبني القاهرة اظهر مذهب الشيعة واذن في جميع المساجد الجامعة وغيرها حتى على خير العمل واعلن بتفضيل على بن ابى طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء .

وفي سنة ٣٧٢ هـ « في عصر الشيعة الفاطمية » ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة من اجل انه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن انس - وفي ٣٩١ قبض على رجل من اهل الشام سئل عن على بن ابى طالب فقال لا اعرفه فاعتقل وبعث له في الحبس اربعة شهود سألوه فأقر بالنبي وانه نبي مرسل وسئل عن على بن ابى طالب فقال : لا اعرفه وحاول القائد الحسين بن جوهر ليرجع عن انكاره معرفه على فلم يرجع ، فضربت عنقه وصلب . . . وفي سنة ٣٩٣ هـ قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة ايام من أجل انهم صلوا الضحى (٢٨) .

وفي سنة ٢٤٦ هـ . امر (الخليفة) المتوكل بهدم قبر الحسين بن على ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وان يذروا ويسقى موضع قبره ، وان يمنع الناس من اتيانه فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق فهرب الناس وتركوا زيارته وخرب وزرع . وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن ابى

طالب ولأهل بيته ، وكان يقصد من يبلغه عنه انه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم . وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث ، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو اصلع ، ويرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون . (قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين) يحكى بذلك عليا عليه السلام ، والمتوكل يشرب ويضحك . وقيل ان المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق في محبة علي وأهل بيته وانما كان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالبغض لعلي .

ورد ان المتوكل كان قد اتصل يعقوب بن اسحاق النحوي المعروف بابن الكميت فسأله المتوكل ايما احب اليك ، المعتز والمؤيد (ابنا المتوكل) او الحسن والحسين ؟ فنقص من ابنيه ، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما اهل له ، فامر الاتراك فداسوا بطنه فحمل الى داره فمات .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة اضطهاد الشيعة ، لازمت الاتراك السنيين المسيطرين على الخليفة ، طوال عهدهم ، فكل تاريخهم مملوء بكراهيتهم للتشيع والشيعة وبالحروب المتصلة بينهم وبين الفرس وهم شيعة .

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سببا كبيرا من اسباب تدبير الشيعة للمؤامرات والدسائس للخروج على الدولة العباسية في بغداد . واقامة حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق .

وفي القرن الرابع الهجري ، كانت المملكة الاسلامية مسرحا للعصبيات الجنسية والعصبيات المذهبية ، ووضح الامثلة على ذلك حالة العراق في عهد الدولة البويهية ، فقد كان مملوءا بالاتراك والديلم ، والاولون سنيون والآخرين فرس شيعة ، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينها وقد ذهب في سبيل ذلك ضحايا كبيرة من الوزراء والكتاب والعلماء حتى حكى مسكويه في حوادث سنة ٣٦٠ ان بختيار البويهى . رأى لمعالجة هذه الفتنة ان يعقد بين رؤساء الاتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التى نشأت بينهم وفعل ذلك بجماعة من القيادات واصلح بين الديلم والاتراك واستحلف كل فريق منهما لصاحبه فحلفوا جميعا فزال الظاهر ولم يزل الباطن وقال ابن الاثير في حوادث سنة ٤٤٣ (في هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة وعظمت اضعاف

ما كانت عليه قديما وسببها ان أهل الكرخ عملوا ابراجا كتبوا عليها بالذهب «محمد وعلى خير البشر» وانكر السنية ذلك وادعوا ان المكتوب محمد وعلى خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن ابى فقد كفر ، وانكر أهل الكرخ الزيادة . فانتدب الخليفة القائم بأمر الله من حقق فكتبوا بتصديق أهل الكرخ . وحمل الحنابلة العامة على الإغراق فى الفتنة . وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحووا (خير البشر) . فقالت السنية لا ترضى الا أن يقلع الأجر الذى عليه محمد وعلى وألا يؤذن على (حى على خير العمل) وامتنع الشيعة عن ذلك . وقتل رجل هاشمى من السنة فحمله اهله على نعش وطافوا به فى الحربية وباب البصرة وسائر محلة السنة واستنفروا الناس للاخذ بثأره ، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل ، فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة ، فلما كان الغد اجتمعوا واضرموا حريقا فاحترق كثير من قبور الأئمة وما يجاورها من قبور بنى بويه ، وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه ، وقتلوا مدرسا الحنفية ابا سعد السرخسى واحرقوا الخان ودور الفقهاء ، وامتدت الفتنة إلى الجانب الشرقى وقال فى حوادث سنة ٤٤٤ : (فى هذه السنة زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة وكان ابتداءها اواخر عام ٤٤٤ : فلما عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طائفة من الاتراك ، واشتد الامر ، اجتمع القواد ، واتفقوا على ركوب المحال واقامة السياسة بأهل الشر والفساد ، واخذوا من الكرخ انسانا علويا وقتلوه فثار نساؤه ونشرن شعورهن واستغثن فتبعهن العامة من أهل الكرخ ، وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم قتال شديد ، وطرح الاتراك النار فى اسواق الكرخ فاحترق كثير منها والحقت بالارض) .

وهكذا انقسمت البلاد إلى شيعه وسنية ، بل تقسم البلد الواحد للتشيع والتسنن ويقتتلون (٢٩) .

وفى عصر الشيعة الفاطمية بمصر كتب فى صفر من عام ٣٩٥ هـ على المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهرة وباطنه من جميع جوانبه وعلى ابواب الجوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء سب السلف ولعنهم ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب وعمل ذلك على ابواب الدور والقياسر واكره الناس على ذلك وتسارع الناس إلى الدخول فى الدعوة .

ولما وصلت قافلة الحاج مر بهم من سب العامة وبطشهم مالا يوصف ، فإنهم - ارادوا حمل الحاج على سب فحل بهم مكروه شديد .

وعندما استولى على وزارة مصر امير الجيوش عام ٥٢٤ هـ أعلن مذهب الامامية والدعوة للامام المنتظر وضرب دارهم نقشها (الله الصمد الامام محمد) ورتب في سنة ٥٢٥ هـ اربعة قضاة ، احدهما امامي والاخر اسماعيلي واثان احدهما مالكي والاخر شافعي فحكم كل منها بمذهبه وورث بمقتضاه واسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق وابطل من الأذان «حى على خير العمل» وقولهم «محمد وعلى خير البشر» فلما قتل في الحرم عام ٥٢٦ هـ عاد الامر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية وما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود زنكى من دمشق عليها اسد الدين شيركوه وولى وزارة مصر . . . ثم وليها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب عام ٥٦٤ هـ فظهر مذهب مالك والشافعي واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من ارض مصر كلها .

واستمر الحال على عقيدة الاشعري (اهل السنة) بديار مصر وبلاد الشام وارض الحجاز واليمن وبلاد المغرب ايضا حتى انه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد بحيث ان من خالفه ضرب عنقه .

وسادت المذاهب الاربعة في اقطار الاسلام (الشافعية ، والحنفية ، والمالكية والحنابلة) وعودى من تمذهب بغيرها وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس احد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب وافق فقهاء هذه الامصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها

وفي بخارى ، ثار شريك بن شيخ المهدي حيث دعا إلى مبايعة خليفة من صلب الامام على ، غير ان الخلافة العباسية افلحت بفضل ابو مسلم ومن جاؤا بعده في القضاء على فتن الشيعة في تركستان

وفي عصر البويهيين اشتد النزاع بين الشيعة والسنية فقد كان الخليفة سنيا والبويهيين شيعيين ، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع ، ففي سنة ٣٥٤ هـ في عهد المطيع ملأت كتب الشيعة ببغداد على ابواب المساجد بلعن معاوية ولعن من غصب

فاطمة حقها في فذك ومن منع الحسن ان يدفن مع جده ولعن من نفى اباذر ، فمحاها
اهل السنة بالليل ، فاراد معز الدولة ان يعيده فاشار عليه الوزير المهلبى ان يكتب
مكان ما محى : لعن الله الظالمين لآل رسول الله (ﷺ) وصرحوا بلعن معاوية .

وفي سنة ٣٥٢ أُلزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء بغلق الاسواق ومنع
الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب في الاسواق ، وعلقوا عليها المسموح ،
واخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين ،
وهذه اول مرة نبح فيها على الحسين ببغداد ، واستمر هذا سنين .

وفي سنة ٣٩٨ ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة في بغداد ، فأرسل الخليفة
القادر الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة وهكذا .

وجهد السلاجقة في ايران على تأييد أهل السنة ومحاربة (الملاحدة) من الباطنية
حتى اشتبكوا في جملة معارك مع فرق الاسماعيلية المعروفين باسم الحشاشين . وهم
اتباع حسن الصباح الذي استطاع ان يستولى على جملة حصون في كوهستان . ومنها
قلعة الموت التي اتخذها عام ٤٨٣ هـ مقرا له بعد عودته من لدن الفاطميين الذين
كانوا يحكمون في مصر وقد اطلق هؤلاء (الملاحدة) جماعة من فداويتهم لاغتيال كل
من يقف في سبيل نشر دعوتهم بعد ان اخذوا يعيشون في الارض فسادا .
وكان أول ضحاياهم هو الوزير القدير نظام الملك السلجوقي الذي فضح
أباطيلهم في كتابه (سياست نامه) وحرص سلاطين السلاجقة على حريمهم .

وفي الدور الثاني من الغزو المغولي وفدت جموعهم إلى ايران والعراق يقودهم
هولاكو . . . وكان هدفهم القضاء على الاسماعيلية واقتحام منازلهم وتدمير
حصونهم وقلاعهم ثم دخول بغداد بعد ذلك . وكان هؤلاء الاسماعيلية قد رحبوا
من قبل بقدوم جنكيز خان إلى البلاد الاسلامية وهاذنوه إلا انهم ما لبثوا بعد رحيله
عنهم ان خافوا مغبة اتساع سلطان المغول فراحوا يحضون الناس على الخروج عليهم
والعمل على طردهم من بلادهم حتى كاتبوا الفرنجة في ذلك .
وظل الاسماعيلية يمارسون في الوقت نفسه عداوتهم الشريرة لأهل السنة واشاعة
الدعر بينهم بفداويتهم وما كانت ترتكبه من الاغتيالات المعروفة المشهورة .

وعندما تولى الشاه اسماعيل الصفوى حكم ايران اعلن عزمه على اعلاء مذهب الشيعة حتى راح يحمل الناس قسرا على الدخول فى هذا المذهب لا يتردد فى افناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والاعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته مستمسكين بمذاهبهم السنية القويمة .

وإدى بشاه فارس تعصبه الشديد لأرغام الناس على التشيع قسرا ، ان لأمه مؤرخو الفرس أنفسهم على ذلك ، ودخوله فى حروب متواصلة مع العثمانيين وغيرهم .

وعمل نادر شاه فى ايران على الحد من الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ودعى لهذا السبيل مؤتمرا للتقريب بينهم فى بغداد ولكنه لم يوفق فى ذلك .

وفى الفترة من (١٥٠٠ - ١٥٩٧ م) كان اسماعيل الصفوى (ايران) وهو من اصل تركى ، يزعم نسبته إلى الامام السابع موسى الكاظم - واعلن هذا الشاه نفسه اماما للشيعة وحاميا لها وتحدى بذلك كل جيرانه من السنيين والعثمانيين فى الغرب والاوزبك فى الشرق . ونجد شيبانى خان يحذر شاه ايران من مسلكه هذا ويدعوه للعودة إلى المذهب السنى .

ودارت الحروب بينهما حيث انهزم شيبانى زعيم الاوزبك (السنى) وقتل الرجل وهو فى الواحدة والستين من عمره - ويقال ان الشاه امر بجمجمة عدوه فاتخذ منها كأس شراب . وفى رواية اخرى انه بعث بها إلى السلطان بايزيد فى القسطنطينية وكان على صلات مودة وصداقة بحاكم ما وراء النهرين.(شيبانى) .

وامد الشاه الصفوى (فى بلاد فارس) حليفه بامير (ملك المغول) بفرق من جنده ليستعين بهم على استرداد املاكه الضائعة ببلاد ما وراء النهر ولئن رحب الاهلون اول الامر باميرهم القديم حتى دخل بخارى وسمرقند الا ان المذابح الرهيبة التى ارتكبها جنود الشاه الفارسى لأرغام الناس على اعتناق مذهب الشيعة - تلك المذابح التى يقر مؤرخو الفرس أنفسهم ببشاعتها ادت آخر الامر إلى ائتلاف الاهلين مع الاوزبك لطرد هؤلاء الغزاه عن بلادهم ومعهم بامير نفسه الذى حاول ان يمنع قواد الفرس عما ارتكبوه من آثام فلم يستمع له منهم احد .

ولو كان رجال العالم الاسلامى الكبار فى ذلك العصر ، من الفرس والعثمانيين والمصريين - وكانوا جميعا اولى قوة وبأس - كانوا قد نبذوا هذه الخلافات المذهبية البشعة واثقفوا يدا واحدة لأمكن لهم دون شك الاضطلاع بنهضة اسلامية قوية جديدة كانت جديرة بالوقوف فى وجه اوربا التى كانت قد انتزعت اذذاك الاندلس من ايدى اصحابه المسلمين وشردتهم - وقيادات المسلمين مشغولون بمنازعاتهم - بل ولتاخر كذلك ظهور روسيا على مسرح التاريخ - تلك الدولة التى سرعان ما استغلت هذا الصراع المذهبى بين الدول الاسلامية المتاخمة لها .

ونفذت روسيا الى قلب آسيا الاسلامية وشردت من سكانه ملايين عديدة بعد ان لبثت سنين عديدة من قبل تلتزم بدفع الجزية لهم ولا يرقى اميرها العرش الا بموافقتهم .

وقام بيرم خان فى الهند بتقريب ابناء مذهب من الشيعة ومضايقه السنين اصحاب الغلبة فى البلاد مما اثار النفوس عليه وانتهى الامر بقتله . وهال السلطان سليم نجاح دعوة الشيعة من لدن سلطان فارس الشاه اسماعيل الصفوى ، فى نشر مذهبهم فى كثير من ولايات الدولة العثمانية الشرقية فتعقب معتنقى هذا المذهب فى كثير من ولايات الدولة العثمانية الشرقية حتى قتل اربعين الفا منهم .

والمؤسف ان الشاه الصفوى كان بدوره لا يقل عن سليم عنفا فى معاملة من يرفضون الدخول فى مذهب حتى قتل من هؤلاء الرافضين مئات الالوف فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وفيهم جملة من اعلام العلماء والائمة الفقهاء

والتقى الجيش العثمانى (السنى) مع الجيش الصفوى (الفارسى الشيعى) فى اواخر عام ١٥١٤ فى معركة رهية انتهت بفوز السلطان سليم ، وقد سارع الاوربيون بامداد الصفوى بالاسلحة الحديثة التى هزمهم بها العثمانيون حتى ينشغل المسلمون فى صراعاتهم الداخلية عن غزو اوربا .

وتغلب الشريف عويس (السنى المذهب) على الرافضة (الشيعة) ناحية العجم ، فلما مات تغلبت الرافضة على بلاده ، وتشبتت عسكره . . . والجنود منهم من راح الى اليزبك حيث مقر المسلمين من أهل السنة - ومنهم من قعد وصار يحط

الجزية إلى الارفاض - وكان محمود ابن عويس يرغب في استعادة بلاد والده لتكون تحت حكمه السنى بدلا من حكم الرافضة الذين اذاقوا أهل السنة صنوف العذاب - واجتمع له الكثيرون من الناس بلغوا نحو الثلاثمئة مقاتل ، وساروا نحو القلعة في أول اكتوبر ١٧٢٣ م ، وصاروا يسرون الليل ويكمنون بالنهار ، إلى أن وصلوا إلى القلعة آخر الليل ، فكمنوا عندها إلى أن فتحوا القلعة عند طلوع الشمس فهجموا عليهم على حين غفلة فاعانهم الله فملكوها . ودخلوا معلنين بالتكبير والترضى على الصاحبين ، وأوقعوا فيهم قتلا وساعدتهم السنة الذين فى القلعة وكانوا فى الذل ، فما جاء وقت العصر ، حتى لم يبقوا فيها رافضين غير النساء . ولا حظوا ان السنة التى كانت فى داخل القلعة تحط الجزية الى الارفاض ، حكم الذين يؤدون الجزية إلى الإسلام .

ثم إن الشريف محمود ملك القلعة بجميع ما فيها وقتل ما بقى فيها من الارفاض رجالا ونساء ، وفرق جميع ما اخذه إلى الرجال الذين كانوا صحبته ، ثم نادى فى الاقليم : كل من يريد الثواب والمال فليأت إلى الشريف محمود فجاءه خلق كثير من اليزبك ، فركبواهم إلى أن ملك ثلاثة وعشرين قلعة من قلاع الارفاض ، وكلما ملك قلعة ، فرق جميع ما يغنمه على العساكر ، الى أن كملت عساكره اربعون الفا ، ثم إنه حط على قلعة اصفهان وهى تحت الشاه الكبير ، الذى يحكم جميع الاعجام فحاصرها ثمانية اشهر ، وفى اول يوم من التاسع ملكها . . . فتحصن الشاه فى القلعة الداخلة هو واولاده واقاربه . . . واربعة آلاف مملوك له . . . وقبض على الشاه والاربعة آلاف مملوك . . . وهرب ابن الشاه ثوم .

ثم ان المماليك ترضوا عن الصحابة وصلوا اتباعا إلى محمود . . . ثم انه عن له ان يدخل مرحاض السراية ، فدخله فوجد الكرسي من الرخام الابيض مطعماً فيه بالرخام الاسود ، تحت رجل الجالس اليمنى ابوبكر ، وتحت الرجل اليسرى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم - فلما رأى ذلك المرحاض امر باحضار الشاه بعد ان طار عقله وغاب عن الصواب ، فلما حضر الشاه قال : ما هذا يا ملعون ، فتكلم الشاه كلام من يعلم انه لا حياة له بعد هذا الأمر ثم ان الشريف امر ان تؤمد النار ، فأوقدت ثم امر ان يأتوا بسيخين من حديد فحماهما فى تلك النار ، ثم انه كحل بهما

عينيه كما كحل عنز الاسد الرميض ففرقت عيناه في الحال ، وعاش بعد ذلك ثلاثة ايام وهلك إلى حيث شاء الله تعالى (٣٥)

٢ - الصراعات الفقهية

(يقول المقرئ):

اعلم ان الله عز وجل لما بعث نبينا محمد رسولا إلى الكافة كان من امره مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة إلى المدينة فكانت الصحابة من حوله يجتمعون اليه في كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة وقلة القوت فمنهم من كان يحترف في الاسواق ومنهم من كان يقوم على نخله ويحضر الرسول في كل وقت ومنهم طائفة عندما تجد فراغا مما هم بسببه من طلب القوت فإذا سئل الرسول عن مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشيء أو فعل شيئا وعاه من حضر عنده من الصحابة وفات من غاب عنه علم ذلك - وكان يفتي في زمن النبي من الصحابة ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وابى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وابو الدرداء وابو موسى الاشعري وسلمان الفارسي رضي الله عنهم، ولما مات الرسول واستخلف ابو بكر تفرقت الصحابة . فمنهم من خرج لقتال مسيلحة واهل الردة ومنهم من خرج لقتال اهل الشام ومنهم من خرج لقتال اهل العراق وبقى من الصحابة بالمدينة مع ابى بكر عدة فكانت القضية إذا نزلت بأبى بكر قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسوله ، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ولا سنة رسوله سأل من بحضرته من الصحابة عن ذلك فإذا وجد عندهم علما من ذلك رجع إليه والا اجتهد في الحكم . ولما مات ابو بكر وولى من بعده امر الامة عمر بن الخطاب ، فتحت الامصار وزاد تفرق الصحابة فيها فتحوه من الاقطار فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد فان كان عند الصحابة الحاضرين لها في ذلك اثر عن الرسول حكم به والا اجتهد امير تلك البلدة في ذلك وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي موجود عند صاحب اخر حضر نفس القضية عند النبي ولكنه موجود في ذلك الوقت في بلد آخر .

ثم خلف الصحابة التابعون الآخذون عنهم . وكل طبقة من التابعين في البلاد التي فتحها المسلمون تفقهوا على من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاواهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة ، فاتبع اهل

المدينة في الاكثر فتاوى عبد الله بن عمر واتبع اهل الكوفة في الاكثر فتاوى عبد الله بن مسعود واتبع اهل مكة في الاكثر فتاوى عبد الله بن عباس واتبع اهل مصر في الاكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص ثم اتى من بعد التابعين فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن ابي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة ومالك وابن الماجشون بالمدينة . . . وهكذا انتهى الامر إلى المذاهب الاربعة المعروفة (مالك وابو حنيفة والشافعي وابن حنبل) .

وكان الاساس في التعامل بين المسلمين ، على اختلاف مذاهبهم وآرائهم الدينية هو التسامح - وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به - وهكذا دخل التسامح في كل بيت من بيوت العلم ليجد الجميع - على اختلاف مذاهبهم في اى بيت ، يتحادثون ويتباحثون - والامام البخارى (حافظ السنة) بين يدي عمران بن حطان (الخارجي) يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس (المعتزلة) بين يدي الحسن البصري شيخ (السنة) من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن فقال قال للسائل (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربه ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان امر بشيء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شيء كان اترك الناس له ما رأيت ظاهراً اشبه بباطن منه ، ولا باطناً اشبه بظاهر منه) .

والامام ابو حنيفة تعلم من الامام زيد بن علي (صاحب الزيدية من الشيعة) اصول العقائد والفقه ، ولا يجد احدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة ، وهما من اهل بيت واحد .

ولكن الصراع نشب بين اتباع المذاهب الفقهية ، فقد كان الخلاف ايام اصحاب المذاهب ، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، خلاف الرأي والبرهان غاية التعصب ان يعتقد ان مذهبه حق يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب - وقل ان نرى بين أئمة المذاهب عداء حاداً الا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . وازداد بعض الشيء أيام اتباعهم ، ولكنه قل ان يتعدى ذلك إلى ضرب او قتال . فلما انتهى هذا الطور اخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال ، ففي القرن الثالث والرابع الهجري اخذ الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة ، ومن امثلة ذلك ما رواه ابن الاثير في حوادث سنة ٣٢٣ اذ قال :

(وفيها عظم امر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم يكبسون دور القواد والعامة . وان وجدوا نبذا أراقوه ، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو ، فان أخبرهم والا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأوهجوا ببغداد وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد لا يجتمع من الحنابلة اثنان ، ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاء فلم يفد فيهم ، وزاد شرهم وفتنتهم . واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون بالمساجد . وكانوا اذا مر بهم شافعي المذهب اغروا به العميان فيضربوه حتى يكاد يموت ، فخرج عليهم توقيع الخليفة الراضى بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره . (فما جاء بهذا التوقيع) : تارة تزعمون ان صورة وجوكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذلة على هيئته ، ونذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين ، والشعر الققطط ، والصعود إلى السماء ، والنزول إلى الدنيا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، ثم طعنكم على خيار الامة ونسبتكم شيعة آل محمد (ﷺ) إلى الكفر والضلال . ثم استدعأؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وانتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب لرسول الله وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء ، فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما اغواه ، وامير المؤمنين يقسم بالله جهرا يلزمه الوفاء به ، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتمكم ليوسعنكم ضربا وتشديدا ، وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف في رقابكم ، والنار في منازلكم ومحالكم) .

..... وامثال هذه الحادثة كثير في كتب التاريخ .

وكان الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية يؤدي في بعض الاحيان إلى خراب البلد ويقول ياقوت عند الكلام على (اصفهان) بعد ان ذكر مجدها القديم : (وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله في نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية والحروب المتصلة بين الحزبين فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة

الآخري وأحرقها وأخربتها . لا يأخذهم في ذلك إل ولاذمة ، ومع ذلك فقل أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيعلم فاسدها) .

ويقول عند الكلام على (الرى) : كان أهل المدينة ثلاث طوائف : شافعية وهم الأقل ، وحنفية وشيعة وهم السواد الأعظم لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة وأهل الرستاق فليس إلا شيعة وقليل من الحنفية ، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتضافر عليهم الحنفية والشافعية وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف ، فلما افنؤهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ووقعت بينهم حروب كان الظفر فيها للشافعية ، هذا مع قلة عددهم ، إلا أن الله نصرهم عليهم ، وكان أهل الرستاق - وهم حنفية - يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون أهل نحلتهم فلم يغنهم ذلك شيئا حتى افنؤهم إلى غير ذلك) .

وكان من مظاهر هذا العصر الخلاف الشديد بين الفقهاء بعضهم وبعض وبين السنة والشيعة حتى جروا البلاد إلى الخراب . فكل مملكة تقسمها المذاهب المختلفة ، وكان النزاع شديدا بين بعضهم وبعض . وكان الشافعية مشهورين بالشغب والتآلب على خصومهم ، ومن مثل ذلك ما حكى بعض المؤرخين من أن الحنابلة قد بنوا مسجدا ببغداد ، استعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون في هذا المسجد فإذا مر بهم شافعي ضربوه بعصيهم حتى يكاد يموت .

وانتشر مذهب الشافعي في مكة والمدينة . واشتهر مذهب ابن حنيفة في العراق . وكان أكثر الفقهاء في مصر من اتباع مالك ، وكذلك انتشر مذهب مالك في المغرب والاندلس . ويحكى أن لما توفي ابن جرير الطبري المؤرخ الكبير ، دفن بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهارا ، لتآلب الحنابلة عليه ، إذ ألف كتابا في اختلاف الفقهاء مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، ولم يذكر فيه خلاف الحنابلة ، فلما سئل عن أحمد بن حنبل قال أنه محدث لا فقيه . ويحكى لنا ياقوت في معجم البلدان أن بلادا كثيرة خربت بسبب الخلاف في المذاهب وتعصب كل لمذهبه . هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الخلاف شديدا بين الشيعة والسنة . فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون متعصبون للسنة . والفاطميون في مصر والشام

والمغرب والحمدانيون في ديار ربيعة وبكر ومصر ، وبنو بويه في العراق وغيرهم يتشيعون . وكانت الكوفة وبها قبر على اكبر مركز للشيعة . حتى قال بعضهم : (من اراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة ، وليقل رحم الله عثمان .

وروى ان ابا بكر الثوري المتوفى ٣٣٠ هـ روى خبرا يمس الامام عليا ، فطلب ليقتل فاستتر . واشتهرت (قم) في ايران بالغلو في التشيع . حتى ليحكون أن واليا سنيا ولي عليهم ، فعجب من انه لا يسمى فيهم احد ابا بكر او عمر وكان يناهضهم اهل اصبهان اذ يتعصبون للسنية . فثارت مرة فتنة بين اهل اصبهان وقم ، لان رجلا من اهل قم سب الصحابة الخ .

فهذا الخلاف بين اتباع المذاهب من جهة وبين الشيعة والسنة من جهة جعل البلاد الاسلامية نارا مشتعلة فكل يوم نسمع هياجا من الشنئين لان شيعيا سب صحابة ، ونسمع هياجا من الشيعة لان احدا مس عليا او احد الائمة حتى ان بعض العلماء الكبار من علماء بغداد حرم على نفسه المشي بالكرخ لانه كان يسمع فيها سب الصحابة . وعاقب احد الفاطميين رجلا اشد عقوبة لانه وجد عنده كتاب الموطأ للامام مالك وهذا مما كان سببه ضيق العقل واراد الفاطميون ان يمدوا ملكهم إلى العراق وما حولها فكان القتال الشديد والخصومة الشديدة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وليس بعجيب ان يكون الخلاف بين الشيعة والسنة والمذاهب المختلفة في تلك العصور المظلمة انما العجيب ان يبقى هذا الخلاف على مدى التاريخ إلى اليوم .

ولما قام هارون الرشيد بالخلافة ، ولي القضاء ابا يوسف يعقوب (على مذهب الامام أبي حنيفة) فاختر لولاية القضاء في العراق وخراسان والشام من هم على (مذهبه الديني) - كما تم نشر مذهب الامام مالك في الاندلس بنفس الاسلوب .

وكان مذهب ابي حنيفة منتشرا في افريقية ، ولكن لما ولي سحنون قضاء افريقيا نشر فيهم مذهب مالك وصار القضاء في اصحاب سحنون .
وحدث فرض مذاهب في اماكن اخرى على حساب اضطهاد المذاهب المخالفة .

وكاد هارون الرشيد أن يبطش بالامام الشافعي لتهمة انه يميل إلى اولاد علي كما أمر المعتصم بضرب الامام احمد بن حنبل، لإنكاره القول بخلق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في ايام المنصور لقوله ليس لمكره يمين .

وقد وصل الخلاف بين اتباع المذاهب الفقهية الى انهم اعتبروها وراثية لا يجوز التحول عنها فمن ولد لاب شافعي فهو يظل على هذا المذهب طوال حياته ليورثه لابنائه من بعده .

٣ - صراعات العقل والجمود :

لم يكن شائعا في عصر بني أمية الا العلم الديني من جمع الحديث وتفسير القرآن واستنباط الاحكام منه .

ولم يكن ثمة مجال لظهور الحرية في الفكر الديني في عصر بني أمية خاصة وان هذه الدولة لم تشجع النقل والترجمة عن علوم الحضارة اليونانية والرومانية .

اما في العصر العباسي ، فقد ظهر الاختلاط بالاجناس والثقافات والاديان والمذاهب المختلفة ، كما ترجمت العديد من كتب الحضارات القديمة وبدأ العقل الإسلامي يفتح على علوم الفلسفة والمنطق والطبيعات وغيرها .

وكان (الاعتزال) هو ثمرة الاختلاط بين الاسلام وبين غيره من الديانات والثقافات الأخرى .

ولا يهم ، في هذا البحث ، تتبع اصل كلمتي الاعتزال والمعتزلة ، ولكن المهم انهم شكلوا حزبا دينيا اتجه الى تحكيم العقل في كل المسائل الدينية (وأولوا) نص الدين بما يتفق مع ما ارتآه العقل والمنطق

وسنقصر الكلام على فرقة المعتزلة لأنها هي التي خاضت صراعات دموية مع مخالفيها .

المعتزلة :

تكلم المعتزلة في مسائل العدل والتوحيد واثبات افعال العباد وان الله لا يخلق الشر وجهروا بان الله لا يرى في الآخرة وانكروا عذاب القبر على البدن ، واعلنوا بان القرآن مخلوق محدث

وطالبوا بعرض الاحاديث على العقل ونفى ما لم يقبله العقل منها .
ومن اهم تعاليم المعتزلة التي أخذها عنهم الفكر الأوربي وأثارت عليهم عداء
أتباع السنة قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما
شرع ، وللشئ صفة فيه جعلته حسنا او قبيحا ، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته
حسنا ، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا ولذلك يشترك العقلاء في حسن
الاحسان الى الفقير وانقاذ الغريق ويستقبحون نكران الجميل وايلام البريء ولو لم
يصلهم في ذلك شرع ، بل ولو كانوا ملحدين والشرع لم يجعل الشئ حسنا بامره به
ولا القبح قبيحا بنهيه عنه بل الشرع انما امر بالشئ لحسنه ، ونهى عن الآخر لقبحه ،
ولا يستطيع الشرع ان يعكس ، لان امره ونهيه نابعان لما في الشئ ذاته من حسن
وقبح .

ربما دعاهم الى وضع هذا المبدأ ما رأوا من مغالاة قوم وجهودهم على ما ورد من
حديث ولو موضوعا ، ووقوفهم عند النص ، فإذا لم يجدوا نصا لم يجرؤوا على ابداء
رأى فاحس المعتزلة بالخطر الذى يصيب الانسان من شل العقل الى هذا الحد
فوضعوا هذا الاساس ، ولذلك كان علماء الحديث من اشد خلق الله كرها
للمعتزلة ، والعكس .

ولما كانت الدولة للمعتزلة في عهد المأمون والمعتصم نكلوا باهل الحديث تنكيلا
في فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون .
وابدى المعتزلة آراءهم في النواحي السياسية بكل حرية وشجاعة بما يتفق مع
مذهبهم .

وكان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة
اسلامية والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم

وقد شوهت سمعة الجهم والحارث بن سريج (اضل المعتزلة) تشويها كبيرا
خصوصا على يد المحدثين ، وعلى يد الساسة لانها اعلنا الثورة على الدولة الاموية
وطالبوها بالعمل بالكتاب والسنة والشورى . وارادت الدولة الاموية ان تعطيها مالا
كثيرا لقاء سكوتها عنها فأبيا ، وألحافى طلب العدل وكانا من اول الخارجين عليها ،
وتكوين الجيوش ضدها في الحركة التي انتهت بسقوط الدولة الاموية وقد
قتلا في عهد مروان بن محمد أواخر الدولة الاموية .

وتصدي ابو الحسن الاشعري للدفاع عن مذهب اهل السنة والهجوم على المعتزلة واحيانا تشتد الخصومة كالذي روى ان السلطان السلجوقي طغرل بك كان له وزير اسمه الكندري ، وكان شيعيا معتزليا متعصبا للتشيع ، وكان يعقد في داره مجالس للمناظرة كما كانت دور غيره ايضا مكانا للمناظرة . فاوعز للسلطان طغرل بك بلعن المبتدعة على المنابر ، ودس عنده ان الاشعرية من ضمن المبتدعة ، واتخذ ذلك ذريعة إلى اهانة اتباع ابي الحسن ومنعهم من الوعظ والتدريس وعزلهم من خطبة الجامع واستعان بالحنفية على الشافعية واكثر الشافعية اشعرية ، حتى حكى بعضهم ان اضطهاد الاشاعرة في هذه الحادثة يشبه اضطهاد الامويين للعلويين ، وفي هذه الفتنة امر طغرل بك بسبب هذه الدسائس ان يقبض على كثير من كبراء الاشعرية كامام الحرمين وابي القاسم القشيري ، وابي سهل بن الموفق . ولما قرىء الكتاب بنفيهم تحرشت بهم العامة والاولباش ، وقد حبس بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن هرب امام الحرمين ، فقد هرب إلى الحجاز . ولم تخمد هذه الفتنة الا بتغيير الاحوال ، فقد قتل الكندري وخلف الب ارسلان طغرل بك .

الزندقة

الملاحظ في هذا العصر تردد كلمة (الزندقة) على الالسنه وكثرة اتهام الناس بها حقا وباطلا .

والزندقة في بعض معانيها . وهو الشك او الالحاد تقترن عادة بالبحث العلمي وهو في العصر العباسي ابين واظهر . ولم يكن شائعا في عصر بني امية الا العلم الديني من جمع الحديث وتفسير القرآن واستنباط الاحكام وهذا لا يؤدي إلى شكوك الزندقة .

انما المثير للزندقة مذاهب علم الكلام والجدل الديني حول المسائل الاساسية في الاديان والبحث الفلسفي .

ولما جاء المهدي كان من اظهر المسائل في تاريخه تنكيله بالزندقة والفحص عنهم ، فقد عين رجلا وكل اليه امرهم سماه (صاحب الزنادقة) يقول صاحب الاغانى : (لما نزل المهدي البصرة كان معه حمويه صاحب الزنادقة فدفع اليه بشارا ، وقال : اضربه ضرب التلف) .

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل في منح شتى من الحياة وتحريره من كثير من القيود بعد الايمان بالله ورسوله ، والايمان بالقرآن وحصر الحديث في دائرة ضيقة واشعار الانسان بالمسئولية لان اعماله صادرة عنه ، ولكنهم مع الاسف . . . آمنوا بهذه الحرية وارادوا ان ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان فكانت حرية بالاكراه .

وطبيعة المحدثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها وتضييق دائرة العقل واحترام الرواية الى اقصى حد ، والبحث وراء الفاظ الاحاديث ومعانيها واسانيدها ، وهذا - مع اعترافنا بما له من مزايا - يستتبع نمطا في التفكير خاصا يسود فيه تقديس النقل أكثر من تقديس العقل ، والتقليد دون الاجتهاد والوقوف عند النصوص دون التعمق في مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلي في الكليات بنظر البغض والكراهية . وعد المفكر على هذا النمط ملحدا او زنديقا . . . الخ . وهذا هو الذي ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترمت نقد العقل ، واحترم العالم الواسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية ، أكثر مما احترمت قليل الحفظ واسع افق العقل ، واکرم العالم المقلد أكثر مما اکرم العالم المجتهد ، ونظر الى المحدث والفقيه بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد ، وضاعت دائرة التفلسف اذا قيست بدوائر العلم ثم الفروع الأخرى .

وكان من اكبر مظاهر هذا العصر (القرن الرابع الهجرى) سد باب الاجتهاد ولم يكن سده بناء على مجلس اجتماع فيه الفقهاء وقرروا فيه اقفال (باب الاجتهاد) وعمل بذلك محضر وزع على جميع الامصار . وانما كان شعورا عاما بالضعف والنقص ، ونوعا من التقديس للفقهاء السابقين . ومن ذلك الحين ، اعنى القرن الرابع الهجرى ، وقف سير التشريع الاسلامى ، ومضى عصر الابتكار ، وبدأ عصر التحجر ، واصبح اصحاب المذاهب الأولون كأنهم معصومون ، واصبح الفقيه لا يستطيع الحكم في مسألة الا إذا كانت مسألة جزئية تطبيقا لقاعدة كلية ، قاله امامه من قبله . وهذا هو الذى يسمى اجتهاد المذهب . اما قبل ذلك فكان الاجتهاد مباحا ، ولم يكن مقصورا على المذاهب الاربعة فكان هناك مذهب ابي سفيان الثوري ومذهب الاوزاعي ، ومذهب الظاهرية وغيرها من عشرات

المذاهب . بل حكى ان بعض العلماء كان لا يرضى ان يتبع مذهباً من المذاهب ، بل يجتهد لنفسه ، ففي اوائل القرن الرابع تجمدت المذاهب ، واقتصر فيها على المذاهب الاربعة وأبطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب . ولذلك وقف التشريع تقريباً من هذا التاريخ ؛ ورمى الاسلام بالجمود .

بل ان ذلك اعدى العلوم والفنون الاخرى . حتى كأن الاجتهاد الذى منع هو الاجتهاد فى كل علم وفن . فلم يكن ادب غير الادب القديم . ولا لغة غير الألفاظ القديمة حتى كأن العالم الاسلامى كله أصيب بالعقم

ولعل الواقعة التالية توضح لك مدى التغير الذى لحق بالانسان المسلم حتى القرن الثامن عشر الميلادى

ففى الفترة من ١٧١١ - ١٧١٤ - جلس رجل فى شهر رمضان رومى (عثمانى) الجنس بجامع السلطان ابو النصر المؤيد بالقاهرة يعظ الناس خمسة أيام ، فتسامعوا به ومن جملة وعظه ان كرامات الاولياء تنقطع بالموت وما يذكرهم من كرامات بعد موتهم فباطل ، وما نقله الشعراى فى طبقاته بان الاولياء لهم اطلاق على اللوح المحفوظ فباطل لا أصل له ، ومن يقول بذلك كافر لأن اللوح لا يطلع عليه الا الانبياء ، فكيف ما تيسر للأولياء . حتى انه انكر رؤية - اى اطلاق - للنبي ﷺ على اللوح ، وان جميع ما يوقد فى مقامات الأولياء من شمع وزيت لا يجوز ، ويخشى من قبل اعتبارهم ومقامهم الكفر . ويجب على المسلمين وولاة الامور السعى فى إبطال ذلك ومن جملة ما ذكره انه يجب على المسلمين ان يهدموا القبر المبنية على الموتى ، والتى على التكايا واضرحة الاولياء ، وحرص على منع الاولياء الفقراء الذين يذكرون الجلالة فى رمضان عند باب زويلة بعد العشاء .

فلما سمعت العامة منه هذا القول ، كمنوا لما صلت الناس العشاء ، وخرجت بالنابيت والسيوف ، على الذين يذكرون الجلالة فضربوهم فهاجت الناس وهربت وصاروا يقطعون الاكر التى على الباب والجوخ ويقولون اين الاولياء .

وتوجه بعض الناس إلى الشيخ احمد النفراوى من المالكية والسيد على من الحنفية والشيخ احمد الخليفى والشيخ عبده الدوى من الشافعية فانكروا كلام الواعظ وقالوا انه (معتزلى) .

ولما بلغ الواعظ فتوى المشايخ قال: ايها الناس ، ان علماؤكم اولاد العرب
افتوا بخلاف ما ذكرته لكم بجواز قتلى ، واني اريد المباحثة معهم في مجلس شيخ
الاسلام ، فهل منكم من يساعدني على ذلك ، ويقوم معي لنصرة الحق وتأييده
واخماد شوكة هؤلاء الكفرة الزنادقة الذين افتوا بالباطل .

وانتهى هذا الموضوع عند اجماع جميع المشايخ ببطلان فتاوى ومحاضرات الواعظ
ووصل الامر إلى ولاية الأمور فخشوا الفتنة والثورة فطاردوا الواعظ واتباعه
بعساكرهم حتى انتهى الامر .

واخيرا قام الشيخ محمد عبده بثورة فكرية في العصر الحديث تهدف إلى استعادة
حكم العقل في امور الدين وفتح باب الاجتهاد لكل مسلم عنده من العلم ما يمكنه
من ابداء الرأي .

إنها محاولة لاستعادة حرية الفكر عند المعتزلة .

الباب الرابع

ثمرة الصراعات الدينية

الفصل الأول

أوروبا في ظل المسيحية – قبل الإصلاح الديني

عندما ظهرت المسيحية في الامبراطورية الرومانية ، كان الجيش قد اصبح هو صاحب السلطة العليا في القرن الثالث الميلادي .

وبالرغم ان روما بدأت حياتها ، مثلها مثل اثينا ، بالديمقراطية والشورى الا ان حياتها انتهت ، مثل حياة اثينا ، بالديكتاتورية وبحكم الفرد ، رغم وجود اشكال للمجالس النيابية الخاضعة خضوعا تاما للامبراطور .

ولسنا نريد ان نذكر بالتفصيل أسماء الاباطرة الذين جلسوا على العرش في هذا العصر الدموي الذي سادته الفوضى وحسبنا ان نقول ان سبعة وثلاثين رجلا نودي بهم اباطرة في الخمسة والثلاثين عاما الواقعة بين حكم الكسندر سيفيرس واورليان - وقتل جرديان جنوده وهو يحارب الفرس (٢٤٤) .

وعجلت الفوضى السياسية تدهور الامبراطورية الاقتصادية ، كما عجل التدهور الاقتصادي انحلال البلاد السياسي ، وتضاعفت الضرائب على الفلاحين وانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وخصصت مساحات كبيرة من الاراضي الخضبة لقصور ومنتزهات الاثرياء . وازدهرت العمائر الفخمة والالعب الرياضية في المدائن في الوقت الذي أفقر فيه الريف ، واشتدت حرب الطبقات لأن الجيش المجند من فقراء الاقاليم كثيرا ما كان ينضم إلى من يهاجمون اصحاب الثروة .

واقام الاباطرة سلطاتهم معتمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن والفلاحين يشتركونهم بالهبات والاعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .
وتجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والاباطرة الذين استعملوا الجيوش لحربهم .

وعانت الامبراطورية من البلاء ما عانته ايطاليا . . . نعم ان قرطاجنة وشمال افريقيا البعيدتين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ، ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشىء من تعدد الاحزاب ومن مذابح كركلا ، ومن غزوزنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخي في العمل ، وما كانت تبتزه روما من الحبوب كل عام .

وفي بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة في النقصان وكانت بيوت الريف آخذة في الاتساع ، ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة او اضطرتها إلى الاختفاء في الريف . وقصارى القول ان الامبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وها هي ذى تختم حياتها بالعودة إلى الريف والهمجية .

وكانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية . ذلك ان دستور قسطنطينية ، الذى لم يكن فى واقع الامر الا استمرارا لدستور دقلديانوس ، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة . وقد كان فى وسع مجلس الشيوخ فى القسطنطينية وفى زومة ان يناقشا المسائل المعروضة عليهما وان يشرعا ، ويفصلان فى بعض القضايا ، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للامبراطور . وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشارى المعروف باسم المجلس التشريعى . يضاف إلى هذا أنه كان من حق الامبراطور ان يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه كما ان ارادته كانت هى القانون الاعلى . وكان الاباطرة يرون أن الديمقراطية قد أخفقت فى تحقيق أغراضها وأنها قضت على الامبراطورية التى ساعدت هى على اقامتها . نعم انه قد يكون فى وسعها ان تحكم مدينة . ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الاوضاع . ولقد اسرفت فى الحرية حتى جعلتها اباحية ؛ ثم اسرفت فى الاباحية حتى اصبحت فوضى ، وحتى هددت حروبها الاهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم . . البحر المتوسط . وانتهى دقلديانوس وقسطنطين الى أن النظام لا يمكن ان يعود الا بقصر المناصب

العليا على الاشراف ما بين كنت ودوق ، لا يختارون على اساس مولدهم ، بل يعينهم الامبراطور الذي يتحمل تبعه الحكم كاملة ، ويتمتع بالسلطة كاملة ، والذي تحيط به حالة رهيبه من المهابة ، والترفع ، والعزلة عن الشعب والابهة ، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج والتقدیس ، والتأييد ولم يفرض هذا النظام على الحاكم قيودا الا مشورة اعوان يهتم ان يرضوه ، والا خوفه من الموت المفاجيء ، نعم ان هذا النظام اوجد اداة ادارية وقضائية قديرة الى اقصى حدود القدرة ، واطال حياة الامبراطورية البيزنطية نحو الف عام كاملة ، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسى وبالجُمود فى كل مناحى الحياة العامة ، وبمؤامرات الحاشية ، ودسائس الخُصيان وحروب الوراثة ، وبعشرات الثورات التى شبت نيرانها فى القصر ، والتى رفعت الى العرش اباطرة كفاة فى بعض الاحيان ، ولكنها قلما رفعت اليه اباطرة ذوى استقامة خلقية ، وما اكثر ما رفعت اليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم ، او من العصابات الاجركية او من الحمقى البلهاء .

وكانت الطبقات الوسطى قبل القرن الرابع عماد حياة المدن فى ايطاليا اما الآن فقد ضعفت هى الاخرى من جراء الانحلال الاقتصادى والاستغلال المالى فقد كان كل ذى مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لاعالة بيروقراطية آخذة فى الاتساع ، اهم ما تقوم به من الاعمال هو جباية الضرائب ، وكان الهجاؤون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون ان (الذين يعيشون على الاموال العامة اكثر عددا من الذين يمدونهم بهذه الاموال) .

وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبى من الضرائب ، وشن الف قانون وقانون لمقاومة اختلاس ايرادات الحكومة او املاكها ، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها وكان الكثيرون من الجباة يفرضون على البسطاء اكثر مما يجب ان يؤدوه ، ويحتفظون بالزيادة لانفسهم ، وكان فى وسعهم فى مقابل هذا ان يخففوا الضرائب عن الاغنياء نظير جعل يأخذونه منهم

على أن اقل ما يقال عن الفترة من ٥١١ - ٦١٤ ان الحكومة ظلت تؤدي واجبها . وان غالة لم تكن كلها تطبق وحشية ملوكها وتعدد زوجاتهم وان ما يبدو من استبداد الملوك كان محددًا بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم . وكان الملك

يكافئهم على ما يؤدونه من خدمات في الادارة والحرب بأن يهبهم ضياعا ويكونون فيها سادة مستقلين وفي هذه الاملاك الواسعة بدأ نظام الاقطاع الذي حارب الملكية الفرنسية الف عام ، وكثر ارقاء الارض ، وبدأ الاسترقاق يجا مرة اخرى بسبب الحروب الجديدة ، وانتقلت الصناعات من المدن الى بيوت الريف ، فضاعت رقعة المدن ، وخضعت لسيطرة السادة الاقطاعيين ، وكانت التجارة لاتزال نشيطة ، ولكن كان يقف في سبيلها عدم ثبات النقد ، وكثرة اللصوص وقطاع السطرق ، وارتفاع الضرائب الاقطاعية ، وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الآدمية .

وتزوج زعماء الفرنجة بمن بقى من نساء اعضاء الشيوخ الغاليين الرومان ونشأ من هذا التزاوج اشراف فرنسا ، وكانوا في ذلك الوقت اشرافا يتصفون بالقوة ، يحبون الحرب ، ويحتقرون الآداب ، ويتباهون بلحاهم الطويلة واثوابهم الحريرية ، وكثرة من يتزوجون من النساء ولسنا نجد في التاريخ طبقة عليا لا تعباً بالمبادئ الاخلاقية كما لم تعباً بها هذه الطبقة ، ولم يكن لاعتناقها المسيحية اثر فيها على الاطلاق ، فقد بذت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهذبة الشعب ، ولما انتصرت البربرية وانتصر الدين ، كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون ، وكان الاغتيال وقتل الآباء والاخوة والتعذيب وبترا الاعضاء والغدر والترف ، ومضاجعة المحارم ، كان هذا كله هو الوسيلة التي يخفون بها من ملل الحكم : فقد قيل ان كلبريك امر بأن يكوى كل مفصل من مفاصل سجيلا القوطى بالحديد المحمى ، وان ينزع كل عضو من اعضائه من موضعه ، وكان لكاربيرت عشيقتان اختان واحداهما راهبة ، وجمع جوبرت (٦٢٨ - ٦٣٩) بين ثلاث زوجات في وقت واحد ، وربما كان الافراط الجنسي هو السبب فيما اصاب الموفنجيين من عقم منقطع النظر : ومن امثلة هذا العقم ان واحدا لا اكثر من ابناء كلوفيس الاربعة هو كلوتار كان له ابناء ، وان واحدا من ابناء كلوتار الاربعة كان له طفل . وكان الملوك يتزوجون في الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون قوتهم متى بلغوا سن الثلاثين ، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين ، ولم يحل عام ٦١٤ حتى كان بيت الموفنجيين قد استنفد جميع حيويته وتاهب لان يخلى مكانه لغيره .

وفي غمار هذه النوضى لم يكن للتعليم وجود ، فلم يحل عام ٦٠٠ حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفا لا يتمتع به الا رجال الدين . اما العلوم الطبيعية فقد انمحت او كادت . اما الشعب فقد كان السحر والصلاة عندهم خير من الدواء .

وفي اسبانيا ، ظل استغلال الاقوياء والمهرة للبائسين والسذج يجري مجراه في عهد القوط الغربيين كما كان يجري في عهد سائر الحكومات القديمة فكان الامراء والاحبار يجتمعون في حفلات دينية او دنيوية فخمة ، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم ؛ ويدبرون وسائل للارهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر الجماهير ويهدموا افكارهم . وتركزت الثروة في ايدي عدد قليل من الافراد ، وكانت الثغرة الواسعة التي تفصل الاغنياء عن الفقراء والمسيحيين عن اليهود ، تقسم الامة ثلاث دول مختلفة ، فلما ان جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهر شيئا من الاهتمام بفقرتهم وسامتهم كثيرا من انواع الاضطهاد الديني

وكان الاقتصاد البيزنطي في الفترة من ٣٣٦ - ٥٦٥ مزيجا من المشروعات الفردية ، والتنظيم الحكومي ، والصناعات المؤتممة ، شبيها بما يجري به العمل في هذه الأيام .

وكان امتلاك الفلاحين للاراضي التي يزرعونها لا يزال في عصر جستنيان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة . ولكن الضياع كانت آخذة في الاتساع وكان كثير من الزراع يضطرون شيئا فشيئا الى الخضوع الاقطاعي لكبار الملاك وكان الذي يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف ، والفيضانات ، والتنافس والعجز عن فلاح الارض ، والضرائب ، والحروب .

وكان اعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بشراء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بها امثالهم من قبل في رومة وذلك بفضل ما كان يمتلكه الاولون من اراض واسعة ، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية في اقطار نائية تتناسب ارباحها مع ما كانت تتعرض له اموالهم من الخطر .

وعندما تلاشت سيادة الاباطرة اليونان من القسطنطينية تمثلت في انقاض روما صورة محزنة للتدهور ونقص السكان واصبح استرقاقها عادة ، وحربتها عابرة تجيء

بها الصدفة ، وكان ذلك كله وليد خرافتها الدينية ، وموضع دهشتها وفزعها واندثر من ذاكرة الرومان ، ومن حياتهم العملية آخر اثر من مواد الدستور ، بل ومحييت اشكاله نفسها ، ولم تعد لديهم المعرفة ، او الفضيلة التي تمكنهم من بناء صرح دولة لها كيانه . وكانت بقيتهم الضئيلة ، وهى ذرية العبيد الغرباء ، موضع الازدراء والاحتقار فى اعين المتبربرين ، وكثيراً ما كان الفرنجة او اللمبارد يعبرون عن احتقارهم الشديد المرير لعدو من اعدائهم بتسميته رومانى ، وتحت هذا الاسم ، كما يقول الاسقف ليوتبراند ، (ينضم كل ما يتسم بالحقارة والجبن والخيانة ، وكل ما يتصف بالتطرف فى الجشع والترف ، وكل رذيلة تحط من قدر الطبيعة البشرية) .

وشاهد العالم لأول مرة اسقفا مسيحيا يمتلك امتيازات ملك دنيوى — كاختيار الحكام ، وممارسة القضاء ، وفرض الضرائب ، والتحكم فى ثروة قصر رافنا وعندما تفككت مملكة اللمبارد ، حاول سكان دوقية سبوليتو أن يتجنبوا العاصفة ، فحلّقوا شعر رؤوسهم على الطريقة الرومانية ، وجاهرُوا بأنهم خدام القديس بطرس ورعاياه ، واكملوا بهذا الاستسلام الاختيارى الحلقة التى تحيط بالدولة الكنسية ، واتسعت تلك الدائرة الغامضة الى حدود لا نهاية لها .

ونشأ نظام الاقطاع حيث القلة المميزة المرفهة المتسلطة تمتلك مساحات كبيرة من الارض وما عليها من انسان وحيوان ونبات . . وكل شىء . . وكانت اديرة غنية مثل دير تروستا سرجيفسكى بالقرب من موسكو وأدير سانت سيريل على البحر الابيض أكثر مراكز التجارة نجاحا فى تلك الفترة التى كانت تمثل بداية فرض التزامات العمل على انفلاحين فى مزارعهم (كبديل عن دفع الضرائب نقدا أو عينا) . ويصدق نفس الشىء على الاديرة الالمانية ، والكنائس التى كانت تمارس التجارة شرقى الالب التى حولت اناء اللاد الى أقنان أو حتى الى عبيد ، يعملون فى فلاحة اراضيم التى كانوا يزرعونها يوما ما كفلاحين احرار ، واقاموا نظاما للارتباط بالارض فى اراضى الكنيسة اشد وطأة من النظام السائد فى الضياع الاخرى .

وكان القرن الثامن عشر فى روسيا — وهو القرن الذى شهد حكم بطرس الاكبر وكاترين المستنيرة وكان بمثابة العصر الذهبى للنبل الروس — والحقة التى شهدت

ازديا القنانة في روسيا ، على نحو جعلها أكثر اقترابا من العبودية من حيث كان القرن يعد الاداة الطبيعية لسيده ، الذى كان يستطيع بيع الفلاحين دون ان يبيع الارض ، كما كان باستطاعته ان يسومه سوء العذاب (او حتى يقتله) دون ان يؤخذ على ذلك فى اغلب الاحوال .

وتبين لنا كتابات المعاصرين بجلاء — سوء الاحوال الذى كان عليها المتجوعون المسحوقون والتي بلغت حدا ليس هناك ما هو ادنى منه مثل ذلك الرجل الذى كان (يقود أربعة عجول عجاف بلغوا من الضعف حدا يجعل من السهل ان يحصى المرء عدد ضلوعهم ، وكان شكلهم يدعو إلى الرثاء) . . (ولا يكاد يطأ الارض حتى تطل اصابعه من حذائه الممزق ولا يكاد يغطى سرواله ركبتيه) بينما تسير زوجته بجواره (حافية القدمين فوق الجليد حتى ينبثق الدم من أقدامها) وكان الاعتقاد السائد بين رجال الاقطاع ان (الفلاح كنبات الصفصاف ، ينمو بصورة احسن عندما نزرعه) وهو اعتقاد — على افتراض صحته ، لم يوضع موضع التنفيذ الا على نطاق ضيق ، ولم تدعو الحاجة اسقف بورنون الى تذكير اقنانه بان سيدهم ليس فظا

واتسم القرن الثالث عشر فى انجلترا — بزيادة واجبات العمل فى المزارع الكبيرة وخاصة فى اراضى الاديعة ، فيشكو مصدر معاصر من ان سادة الاقطاع (حملوا الفلاحين عن طريق السخرة — فسخروهم فى حراثة الارض بالقوة وبلاستبداد

الشخصية الأوربية فى القرنين ١٤ ، ١٥ :

عاش الانسان الاوروبى فى جحيم الصراعات الدينية لقرون طويلة ، سواء صراعاته الخارجية مع الوثنية واليهودية والاسلام ، او صراعاته الداخلية والتي سبق بيانها فى الابواب السابقة من هذا الكتاب .

وطوال هذا العهد ، وما قبله تعرضت الغالبية الشعبية لكل صنوف الإفقار والاذلال والمهانة بل والتعذيب والقتل — والتي سبق بيانها فى الاوراق السابقة .

ومع الجهل وكبت الحريات وانتشار الاكاذيب الدينية التي روجها اصحاب المصالح ، اثمر ذلك كله هذه الشخصية المتواكلة ، المستسلمة للمقادير والتي غلب عليها التشاؤم واليأس والتي وجدت لها متنفسا في التصرفات الشاذة المنسوبة خطأ الى الدين المسيحي .

ولعل في العرض التالى ما يوضح لك ثمرة الصراعات الدينية والسياسية والاقتصادية على شخصية الانسان الاوروبى .

(كان الوعاظ المتجولون يقدمون لثيروا أفئدة الناس بفصاحة السنتهم ، فقد ظل الراهب الفرنسيسكانى فى الاخ ريشاريلقى المواعظ بباريس فى ١٤٢٩ على مدى عشرة ايام متعاقبة . فكان يبدأ فى الخامسة صباحا ولا يزال يتكلم بلا انقطاع حتى العاشرة أو الحادية عشرة ، وأكثر ما كان يفعل ذلك فى (مقبرة الانوسنت (الاطهار) . حتى اذا اعلن فى نهاية عظته العاشرة انها ستكون موعظته الاخيرة ، لانه لم يؤذن له بالمزيد من الوعظ ، (بكى العظيم والحقير بصورة مؤثرة وبمرارة كأنما يشهدون اعز اصدقائهم يوارى التراب وكذلك فعل هو) . وظن الناس انه سيعود إلى الوعظ مرة اخرى فى سان دنى فى يوم الاحد ، فتقاطروا اليها مساء السبت وقضوا الليل فى العراء ليحصلوا على المقاعد الحسنة

وثمة راهب فرنسيسكانى آخر هو انطوان فريه . منعه حاكم باريس من الوعظ لانه ندد بسوء الحكم بعنف فتصدت بعض النساء لحراسته ليلا ونهارا فى دير (كورديلبيه) فانتشرن حول المبنى وقد تسلحن بالاحجار والمراوات وفى جميع المدن التى يتوقع وصول الواعظ الدومينيكانى الشهير فنانسان فريه ، كان الناس والحكام ورجال الدين بل حتى المطارنة والأساقفة ، يخرجون لتحيته بأهازيج الفرحة . وانه لينتقل فى البلاد ومعه حاشية غفيرة متزايدة دائما من المريدين الذين يطوفون بموكبهم كل ليلة بأرجاء المدينة مترنمين بالأناشيد ضاربين أجسادهم بالسياط (تقربا وزلفى إلى الله) . وتصدر الأوامر بتعيين الموظفين الذين يتولون إيواء هذه الجماهير الغفيرة وإطعامها . ويصحبه أينما ذهب عدد جم من القساوسة ينتمون إلى هيئات دينية مختلفة . ليعاونوا فى إقامة القداس وفى تلقى الاعتراف من المؤمنين . وكان يرافقه كذلك عدة موثقين ، يقومون على الفور بصياغة صكوك الصلح الذى يتمه هذا الواعظ التقى فى كل مكان يصل إليه . وكان لابد من حماية منبره بسياج قوى يقيه من

ضغط الجماهير المصلين الذين يريدون تقبيل يده أو ثوبه . ويتوقف كل عمل طوال المدة التي يعظ اثناءها . وقلما اخفق في ان يحرك نفوس سامعيه حتى تفيض اعينهم بالدمع . وكلما تحدث عن يوم الحساب او جهنم او آلام السيد المسيح ، كان هو وسامعوه يبكون بدمع هتون حتى ليضطروا إلى ايقاف موعظته حتى يتوقف الناس عن النحيب . وكان الخطاه يرمون عند قدميه ، امام الناس جميعا ، معترفين بخطاياهم الكبرى . وبينما هو يعظ الناس ذات يوم ، شاهد شخصين ، رجل وامرأة حكم عليهما بالاعدام يقادان إلى مكان التنفيذ . فرجا ان يؤجل التنفيذ فيهما قليلا . وامر بهما ان يوضعا تحت منبره ، وواصل موعظته متحدثا عن خطاياهما . فلما ان انتهت الموعظة لم يعثر في المكان الذي كانا فيه الا على بعض العظام واقتنع الناس ان كلمات القديس قد استهلكتهما وغسلت خطاياهما في الوقت ذاته .

وكانت انتقادات الوعاظ العنيفة ضد الفجور والترف تنتج في الناس انفعالا عارما كثيرا ما كان يتحول الى عمل ايجابي . وعندما بدأ الراهب سافونارولا باشعال النار في (الوان الباطل الغرور) بمدينة فلورنسا ، فانزل خسارة بالفنون لا سبيل إلى تعويضها إذ كانت عادة اشعال النار في التحف وادوات الترف والتسلية منتشرة بكل من فرنسا وايطاليا وذلك على سبيل التقرب إلى الله . وكان الرجال والنساء ، تلبية لنداء واعظ ذائع الصيت يسارعون إلى احضار ورق اللعب وزهر النرد والملابس والخلي ويحرقونها في مهرجان فخم عظيم . واتخذ التخلي عن خطيئة الباطل والغرور على هذا النحو شكلا ثابتا ووقورا من العلنية والاظهار . طبقا لميل العصر إلى اختراع اسلوب لكل شيء .

وينبغي ألا يغيب عن البال شيوع تلك الظاهرة الخاصة بسرعة الانفعال وذرف الدموع والثورات الروحية لكي نتصور كم كانت الحياة في تلك الفترة عنيفة شديدة التوتر .

وكانت عادة الامراء في القرن الخامس عشر من التماس المشورة في المسائل السياسية في كثير من الاحيان من مجاذيب الوعاظ الحالمين تؤدي إلى استمرار وجود نوع من التوتر الديني في شئون الدولة قد يتجلى في ايه لحظة عن قرارات من نوع غير متوقع اطلاقا .

وفي هذه المرحلة ظهر الانشغال المتزايد بالخطر التركي ، وبدأت الذكرى التي لم تبرح قوية في الأذهان عن وقعة نيقوبوليس التي هزم فيها الاتراك العثمانيون الدول المسيحية في ١٣٩٦ ، بقيت هذه الذكرى ماثلة في الأذهان ، حيث انتهت محاولة طائشة لانقاذ عالم المسيحية بالقضاء التام على الفروسية ذبحا وتقتيلا . ويأتى أخيرا ، الانشقاق أو الصدع الاكبر (١٣٧٨ - ١٤٠٩) الذي اصاب الغرب وذلك عند ما قام في غرب اوربا اثنين من الباباوات احدهما في روما والآخر في أفنيون ثم أنقسام المجتمع الأوربي الكاثوليكي تبعا لذلك .

التشاؤم والمثل الاعلى للحياة الرفيعة

خيم على ارواح الناس ، عند نهاية العصور الوسطى ، سوداوية قائمة ، فسواء قرأنا مدونة تاريخية او قصيدة شعرية ، او موعظة دينية ، بل حتى وثيقة قانونية ، تولد فينا انطباع الحزن العميق ، وربما بدا ان هذه الفترة يريم عليها الشقاء والتعاسة بوجه خاص ، وكأنما لم تخلف وراءها إلا ذكرى العنف والجشع والبغضاء القاتلة ، وكأنما لم تعرف متعة الا متعة عدم الاعتدال ، والكبرياء والقسوة .

... ولم يكن من اللائق طوال القرن الخامس عشر ، وكذا حقبة الحركة الرومانتيكية اطراء العالم والحياة علنا ، إذ كانت الاصول الكريمة المرعية تقضى بأن لا يرى الناس الا ما في الحياة من آلام وتعاسة وان يجحدوا في كل مكان بحثا وراء دلائل الانحلال والنهاية الدانية او بايجاز : ذم الزمان المعاصر او احتقاره . كانت نغمة اليأس والابتئاس العميق هي السائدة الغالبة ليس عند الرهبان الزاهدين فحسب ... بل عند شعراء البلاط ومؤرخي الاخبار .

يقول يوستاش ديشان :

زمن الآلام والاغراء ...

عصر الدموع والحسد والعذاب ...

عصر الانحلال المقترّب من النهاية ...

زمن طافح بالرعب ، يؤدى كل شيء بغير اخلاص ...

عصر كذاب ، مترع بالكبرياء والحسد ...

ولا ينسب شاستلان إلى عامة الشعب سوى فضائل دنيا قال : فإذا وصلنا إلى الطبقة الثالثة (وهى العوام) ، ألفيناها طبقة سكان المدن الصالحة ، من التجار والعمال الكادحين ، الذين لا يليق بنا ان نمنحهم من قلمنا بسطا طويلا كالذى منحناه الآخرين ، اذ لا يكاد يكون ممكنا نسبة صفات طيبة اليهم ، ذلك لانهم طغام اذلاء ، فالالتضاع والاجتهاد فى طاعة الملك ، والخضوع فى الانحناء طواعيا اجتلابا لمسرة السادة النبلاء تلك هى الصفات التى تعود بالتقدير على هذه الطبقة المنحطة من الفرنسيين) .

ولم يزل شاستلان يسمى اغنياء سكان المدن الاقنان ورقيق الارض . فليس لديه ادنى فكرة عما تتسم به الطبقة الوسطى من شرف . واعتاد الدوق فيليب الطيب ان يسىء استخدام سلطاته بتزويج جنده رماة السهام وغيرهم من الخدم ، من ارامل سكان المدن الاغنياء او من الوارثات الثريات . حتى لقد اضطر الآباء تجنباً لمثل تلك الزيجات ان يزوجوا بناتهم بمجرد بلوغهن سن الزواج . واضطرت ارملة . لهذا السبب ، ان تبادر بالزواج بعد مواراة زوجها الاول التراب بيومين اثنين . وحدث ذات مرة والدوق مشتغل بهذا النوع من الوساطة الزوجية ، ان قوبل برفض عنيد من صاحب مصنع للجنة بمدينة ليل شعر بالاهانة لو تم زواج كهذا لابنته . ووضع الدوق يده على الفتاة الصغيرة . فانتقل الوالد بكل ممتلكاته الى مدينة تورناى ، خارج دائرة اختصاص الدوقية ، لكى يستطيع رفع الامر امام المحكمة العليا بباريس . ولم يعد عليه ذلك إلا بالنكد الشديد . فوقعه الحزن فى المرض . واخيرا بعث بزوجته الى ليل (لتلتمس الرحمة من الدوق ليعيد ابنته اليه) وتكرما ليوم (الجمعة العظيمة) اعاد الدوق البنت لامها وان قرن ذلك بالفاظ الزراية والاهانة والسخرية .

واستخدم المؤرخ شاستلان فى هذه الواقعة الفاظاً مثل (صانع الجمعة الريفى المتمرد) و(ذلك مولى الارض) الشرير ايضا .

وتنطوى عواطف الطبقة الارستقراطية نحو الشعب على تيارين متوازيين ، فانا نلاحظ فى الطبقة النبيلة ، جنبا إلى جنب مع هذا الاحتقار المتعالى للرجل العادى البسيط ، اتجاهها فيه شىء من العطف يبدو متناقضا والاتجاه الاول تناقضا مطلقا ، فبينما تضى المنظومات الهجائية فى عهد الاقطاع فى طريقها من التعبير عن الكراهية

المتزجة بالاحتقار واحيانا بالخوف كما هو الشأن في (امثال الاقنسان) وفي (اغنية القرويين الفلمنكيين) تدعو السنة الاخلاقية الارستقراطية من الناحية الاخرى ، الى رحمة عاطفية ترثى لبؤس المظلومين والمهيضى الجناح . وكان الناس على ما هو معلوم من انتهاب اموالهم في الحروب واستغلال الموظفين لهم يعيشون في افدح محنة .

ينبغي ان يهلك الأبرياء جوعا .
بما تملأ الذئاب الكبيرة بطونها كل يوم .
وهم الذين يكتزون بالآلاف والمئات .
كنوزا حصلوها بالحرام ، انها الحبوب ، انه القمح .
وان دماء الفقراء وعظامهم الذين حرثوا الارض .
ومن ثمة ارواحهم لتدعوا
ربها للانتقام لها من السادة النبلاء وبالويل والثبور لهم .
انهم يكابدون العناء صابرين (وأنى للامير ان يعرف شيئا من ذلك ، فان تدمروا
في بعض الاحيان ، هؤلاء (الاغنام المسكينة ، الناس المغفلون المساكين) . فان
كلمة من الامير لتكفى لتهدة انفسهم .

واضفى الدمار الشامل وانعدام الامان اللذان شملا كل ارجاء فرنسا تقريبا ،
نتيجة لحرب المائتي عام ، على هذه الإعوالات والأنات ، حالة من الحزن العميق .
ولم تركز اية حقبة اخرى على فكرة الموت بقدر كبير مثلما اولته لها العصور
الوسطى . كان هناك صوت سرمدى ينادى بحتمية الموت وتذكره يتردد في الاسماع
طوال الحياة كلها . ويوجه رئيس الكرنوس في (دليل حياة النبلاء) النصيح اليهم .
(وينبغي له عندما يأوى الى الفراش ليلا ان يتفكر كيف انه كما يرقط الآن بنفسه ؛
فسرعان ما ستمتد ايد غريبة الى جسمه فترقده في قبره) . واصرت الديانات في
الأزمة الخالية ايضا على ضرورة التفكير المستديم في الموت . ومنذ القرن الثالث
عشر ؛ جعل التبشير بين العامة على يد هيئات الرهبان المتسولين النصيحة الأبدية
الداعية إلى دوام تذكر الموت وتضخمت فكرة تذكر الموت لتصبح نشيدا قائما لكورس
يدوى صدهاء في كل ارجاء العالم . وقبل ابتداء القرن الخامس عشر أضيفت الى
كلمات الواعظ وسيلة جديدة لبث الفكرة الرهيبة في جميع العقول عن طريق الكتابة
المحفورة على الاخشاب .

وكانت الشكوى المتواصلة بلا نهاية من تفاهة كل ما فى الارض من مجد وربما
امكن هنا التمييز بين ثلاثة موضوعات . فاما الموضوع الاول فيعبر عنه السؤال :
اين يوجد الآن كل من ملأوا العالم بأبهامهم ؟ ويركز الموضوع الثانى على الجسد
البشرى وقد دب اليه البلى والثالث هو رفضه الموت : اذ يجبر الموت معه اناسا من جميع
الاعمار والاجناس .

ويتجلى فى اشكال أخرى ذلك العجز عن تخلص النفس من التعلق بأهداب
المادة . وهناك نتيجة لنفس هذا الاحساس تجدها فى الأهمية المسرفة التى تنسب فى
العصور الوسطى إلى موضوع ان اجساد قديسين معينين لم تمتد إليها يد البلى مطلقا ،
مثل جسد القديسة روز من فيتريو ، وعلى هذا كان رفع جسد العذراء المباركة الذى
يعفى جسمها من البلى الدنيوى يعد من اغلى النعم جميعا . وجرت محاولات كثيرة
لتأخير التحلل .

وأعيد تنويع ادوارد الرابع ملك انجلترا ، لانه حدث فى يوم أحد ، لأن يوم
الثامن والعشرين من ديسمبر فى العام السابق وافق يوم أحد ايضا - واضطر رينيه دى
لورين الى التخلي عن خطته من القتال فى يوم ١٧ اكتوبر ١٤٧٦ لان مرتزقة
اللانسكينية الالمان التابعين له رفضوا يومذاك ملاقاته الاعداء يوم (عيد الاطهار) .

واتسع الايمان بالقربان المقدس ليتحول الى معتقدات طفليه - كاعتقادهم بأن
الانسان لا يمكن ان يصاب بالعصى او بضربة الفالج فى يوم استمع فيه إلى القداس او
ان الانسان لا تكبر سنه اثناء الوقت الذى يقضيه فى القداس .

وكانوا لا يتورعون عن استخدام لغة العبادة فى مدح الامراء . وفى قضية مقتل
لويس دورليان ، يجعل محامى الدفاع طيف الدوق يقول لابنه : (انظر الى جراحي
ولاحظ ان (خمسة) منها قاسية وقاتلة بوجه خاص) . ولا يجد اسقف شارلون فى
كتاب (فضائل فيليب امير برجنديا) ما يمنعه بدوره من ان يقارن بين ضحية مونتره
وبين (الحمل) الالهى ، وعندما يرسل الامبراطور فردريك الثالث ابنه مكسيليان الى
بلاد الاراضى المنخفضة ليتزوج من مارية البرجندية ، يشبهه موليينيه ب (الله
الاب) . وجعل نفس المؤلف اهالى بروكسل يقولون ، عندما بكوا تأثرا عند
رؤيتهم الامبراطور يدخل مدينتهم مع مكسيليان وفيليب الجميل (ارشيدوق

النمسا) (انظروا صورة الثالث ، الاب والابن والروح القدس) . وهو يقدم باقة ازهار إلى مارية البرجندية ، التي هي صورة جليلة لسيدتنا العذراء ، (لولا بنوليتها العذراوية) ويضيف مولينبه إلى ذلك قوله : (ليس معنى ذلك اني اريد تخلق الامراء) (*) .

الحساسية الدينية والخيال الديني

وظلت الحساسية الدينية للروح في العصور الوسطى في ازدياد منذ ان بدأت النزعة (المتصوفة) الرقيقة للتدريس برنار في القرن الثاني عشر . نغمة الرقة الحزينة حول (آلام المسيح) وكان الذهن مشبعا بالتصورات المتعلقة بالمسيح والصليب . وكانت صورة الصليب تدرس في القلب الحساس منذ بواكير الطفولة الأولى ، عظيمة ، متمكنة بحيث ترجح بظلالها الشديدة على كل ما عداها من عواطف . وبلغ مبتسان من كثرة ذرف الدموع في كل مرة يقدم فيها القربان المقدس ، انه كان يجعل المصلين ، على بكرة ابيهم ليكون بدرجة تجعل المكان يعج بعويل عام . كأنما هو بيت ميت .

واصبحت الحالة الروحية المسماة (عذوة ابتهاجات حب المسيح) قرب نهاية العصور الوسطى من أشد العناصر سلبية ونشاطا في الحياة الدينية . ونشأت فكرة ان الروح اذا تم تمثيلها في الله فقدت هناك ارادتها ولا يمكنها بعد سأل ان ترتب بها عطية - بل ان أصبحت شهوة لها بدنة . واستشارا إلى تصور دينية في الطباعة العملية (شبهة المال أصل لكل الشرور) و (ان الاتاة سألته الذكر (سيمونية) وسيمون هذا قد حاول رشوة الرسل . وهرطيقية ومضادة للشرع الطبيعي والالهى . . . وشروح العصور الوسطى موجهة نحو السماء .

كان كل انسان في القرون الوسطى يحب ان يؤسس كل حجة جديدة يدلي بها على نص ديني ، ، بحيث يعطيها أساسا ترتكن اليه . مثال ذلك ما حدث في عام ١٤٦٦

في وقتها قال الشافعي العربي :
ما شئت إلا مما شئت الاقدار
فاحكم فأنست الواحد القهار

بمجمع باريس الاهلى الذى كانت تناقش فيه مسألة انقسام الكنيسة ، من ان المقترحات الاثنى عشر المؤيدة والمضادة لنبد طاعة بابا افنيون كانت كلها تبدأ باقتباس نصوص من الكتاب الوعاظ ، فى اختيارهم للنصوص .

ولعبت الامثال السائرة فى فكر العصور الوسطى دورا حيا جدا . فكان منها مئات تدور فى الاستعمال الدارج لدى كل شعب ومعظمها اخاذ المعنى موجز العبارة . وكثيرا ما تنطوى على التهكم والسخرية . فاما نبرتها فتقوم على طيبة القلب والاستسلام للمقادير وهى لا تدعو إلى المقاومة اطلاقا ، ومنها (السماك الكبير يأكل الصغير ، من يلبسون ثيابا رثة لا يجلسون وظهورهم الى الريح . ليس هناك عفيف إذا لم يكن لديه عمل - عند الحاجة نسمح للشيطان ان يساعدنا - لكل حصان كبوة حتى لو أحسنت حدوده - ويكثر استخدام الأمثال فى الخطب السياسية والمواعظ . (من سكت فى كل الأمور سلم) رأس جيدة الترجيل اردأ حامل للخرقة) . (من خدم الصالح العام لم ينل اجرا على تعبته) .

ومما يرتبط بالمثل السائر ، الشعار الذى عمدت العصور الوسطى الى صقله بولع ملحوظ . والشعار يختلف عن المثل فى انه ليس كالأخير ، قولاً حكيمياً واسع التطبيق . انما هو مبدأ سلوك شخصى او نصيحة ، فالشعار رمز وامارة - والشعار اذا سطر فى حروف من ذهب على كل قطعة يحتويها دولا ب الملابس والعتاد الشخصى ، لابد ان أوتى سلطانا ، إيجائيا غير ضئيل القدر .

والنغمة الخلفية لهذه الشعارات يغلب عليها طابع الاستسلام - شأن الامثال السائرة او طابع الأمل . وينبغى ان يكون الشعار خفى المعنى : (متى يتم المراد) - (ان عاجلا او آجلا) - (قد يجرىء) (إلى الامام) - (المرّة التالية افضل) (احزانها اكثر من افراحها) (*) .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

المائدة : ٦٨

* الانجد هذا الاستسلام فى الشخصية الانسانية الشرقية اليوم ؟

الفصل الثانى

ثمرة الصراعات فى المسيحية بعد الإصلاح الدينى

بعد قرون طويلة من مجيء المسيحية كان لابد لهؤلاء الناس ان يتنبهوا وان يعيدوا حساباتهم فيما يعود على حياتهم الدنيا من خير بدون القيود التى وضعها رجال الدين المسيحى على فكر الناس وعلى تصرفاتهم .

وقد ايد هذا الاتجاه ما كشفه المصلحون الدينيون من زيف ما أدخله الباباوات ورجال الدين من شعائر وافكار وتصرفات تتنافى مع حقيقة الدين .
بدأ الناس يفكرون فى الوسائل التى تشبع حاجاتهم بدلا من الفقر والعوز والإذلال وكبت الحريات التى عانوا منها قرونا طويلة .
وقد اعانهم على ذلك ما اخذوه من العرب من معارف وعلوم وافكار جديدة وذلك اثناء احتكاكهم بهم فى الاندلس وفى صقلية وفى الحروب الصليبية وغيرها .
ويعترف روجر بيكون بأن اوربا اخذت الفلسفة عن العرب .
وفى هذا يقول ول ديورانت

اخذ الصليبيون معهم الكثير من اساس الحضارة الاسلامية - ودخلت الف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية ، وانتشرت القصص الشرقية فى اوربا ، واخذوا معهم صناعة الزجاج الملون . . . والبوصلة ، والطباعة والبارود . وان ما عرفه الصليبيون من ان اتباع الدينى الاسلامى قد يكونون مثلهم

متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتد عليهم ، وخلاصة القول فان ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب آثاقا متسعة للتفكير .

وقد مهد التعرف على علوم المسلمين وديانتهم لثورات الاصلاح الديني التي اجتاحت اوروبا والتي كان اساسها الاعتماد على العقل والمنطق في تفهم الدين مع حرية البحث الفلسفي والديني بدون قيود ميتافيزيقية مما سبق وبيناه في الباب الثالث من هذا الكتاب .

ولهذه الاسباب هناك علاقة وطيدة بين فلسفة التنوير والاسلام ، تاريخية وفكرية ، ويمكن القول بلا ادنى مبالغة ان الاسلام كان سببا من اسباب نشأة فلسفة التنوير وأحد روافدها التاريخية ، اذ تكثر الاشارة من فلاسفة التنوير إلى الإسلام باعتباره نموذج الدين المستنير الخالي من العقائد والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية والداعى الى استغلال العقل وحرية الارادة والمدافع عن المساواة والعدالة الاجتماعية . ويتضح ذلك اكثر اذا ما قارنا الفكر الاعتزالي بفلسفة التنوير ورأينا الشبه بينهما من دعوة إلى التنزيه واثبات حرية الانسان ودعوة إلى إعمال عقله ، وتأکید لمسئوليته الفردية .

ولقد بدأ الصراع العنيف بين العقل والكنيسة حين اكتملت أسباب اليقظة والجرأة ، اذ عكس هذا العصر أية العصر الوسيط ، احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم وحب الجمال وسائر لذات الحياة ، فلما اشرق العصر الحديث في القرن السابع عشر ، رد التنافر الذي كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، إلى وحدة متسقة واتصلت فيه الحملات الموجهة لتقويض السلطة الدينية ، ولكن اكثر الفلاسفة في العالم الكاثوليكي بوجه خاص - قد جمعوا بين الاذعان للعقل والايمان العميق بالوحي - وحاول الكثير منهم ان يترضوا رجال الدين ، ويتجنبوا إثارة الضيق في نفوسهم عن وفاء لهم أو اتقاء شرهم ومع هذا لبث الصراع قائما ، لأن رجال الكهنوت ما زالوا اصحاب سلطة في وقت اشتد فيه بأس العقل (*) .

* في هذا يقول أبو العلاء الممرى .

يرتجى الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكنيسة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى الع	قل مشيدا في صبحه ومساءه

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في القرن السابع عشر . باستعداد كل سلطة غير
التي كانت في ذلك الوقت ، البابا الرعية لكل حقيقة ، ولكنه مع ايمانه بالعقل
الذي كان يري ان الموت ليس على صفة ، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله ، لان
الذي لا يكون الا جهاد خارق من السماء ، وشاع المذهب العقلي في فرنسا طولا
ومديدا ، فاذا قبل القرن التاسع عشر اعلن العلم تمردا على الكنيسة وتعاليمها
فان ذلك السوء ، وحدثت مقاومة بملفه قواها ، ولكن تياره كان غلابا ، فأصدر
البابا بيروجوري السادس عشر ، منشوره الذي دعا فيه إلى مقاومة الحرية في مجال
الذهاب العقلي ، وعقب البابا بيوس التاسع بمنشوره عن خطايا العصر الحديث ، في
نزوحه الى تحكيم العقل

والصلى على البابا الثاني كان في عام ١٨٧٠ قراره بان البابا معصوم من الخطأ ،
ولكن على غير جادوى ، لان القافلة أخذت تمير ، وقد ولدت عزمها على بلوغ
نهايتها ، وظلت مواكب الاشرار تمضي في طريقها قدما يتتابع بعضها وراء بعض ،
وثلث الرجعيون وفاتهم الركب ، فمسكروا حيث كانوا ، وقد قل عديدهم
واضعهم لنفوذهم وتضاءلت أمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف في مواكب العقل
الظافر ، فيرتد بصرهم خاسئا وهو حسير

وكان ان حدثت التغييرات التي قامت على أساس من الاكتشافات الفنية
والعلمية وهدفت إلى تحسين وسائل اشباع حاجات الانسان الدنيوية .
ولقد تمت هذه التغيرات والاكتشافات على يد أناس ليس لديهم سوى الخبرة
العملية ، بل كانت تتم أحيانا على يد رجال ليسوا من هذا النوع .
فكار ترايت ، الذي صنع اول أنوال تسير بالطاقة واول ماكينة لتمشيط الصوف
كان قسيسا يقرض الشعر .

وكان هارجزيفر وكرومينون مديرين لأعمال النسيج ، وكان جون كاي صاحب
عمل صغير ، اما اركرايت فقد بدأ حياته العملية حلاقا .
وكان بنجمان هنستان اول من صنع الصلب المصبوب ، صانع ساعات ،
وحتى جيزوات وجورج ستيفنسن كانا من اصحاب الحرف ولم يكونا فنيين مدربين
علميا .

ومعظم الاختراعات الهامة وبخاصة في صناعات النسيج ، جاءت نتيجة الادراك السليم اكثر مما جاءت نتيجة لمعارف علمية .

وفي الزراعة ايضا نجد ان الوسائل الجديدة التي احدثت انقلابا تمت بفضل التجارب العملية التي جاءت نتيجة للمحاولة والخطأ بدلا من ان تجيء نتيجة للأساليب العلمية المحضة .

ولقد بدأ عصر الانقلاب الصناعى اساسا كعصر للاكتشافات في ميدان الآلات العلمية

وبدأت مرحلة جديدة في اوائل القرن الحالى ، ولقد بدأت اولاً في الولايات المتحدة حيث كفلت الهجرة الجماعية اعدادا غفيرة من العمال غير المدربين كما تضخمت سوق السلع الاستهلاكية ، وأدت هذه الاوضاع إلى ظهور اساليب جديدة للإنتاج الجماعى ، وهذه الاساليب تعتمد على آلات تستغنى بقدر الامكان عن المهارة وتتطلب سرعة الانجاز .

وامتاز النصف الأول من القرن العشرين بتقدم كبير في تطور المواد الخام المنتجة كيميائياً كالبلاستك والمطاط الصناعى . وضاعفت هذه التغيرات من اعتماد الصناعة على العلم ، وجعلت الكيميائيين في قلب الفنون الصناعية وفي نفس الوقت ارتفعت تكاليف البحث بصورة حادة ، ولم تستطع غير الشركات الضخمة اقامة معامل البحث التي صارت ضرورية .

وعلى كل حال فقد اكتشف الانسان ان كل ما يعوقه عن اشباع حاجاته المادية الدنيوية هو عبث في عبث لا يصح ان يتوقف عنده بأي حال من الاحوال . ويقول احد الامثال الاوربيه (Time is money) أى (الوقت هو النقود) فلا مضيعة للوقت اى للنقود امام أى خلافات او صراعات دينية ثبت على مر القرون انها هى السبب الأساسى في تأخر التقدم الانسانى .

وهذا هو ما يمليه العقل وما تمليه المصلحة وما تفرضه البطون الخاوية والاجساد العارية والانفس بلا مأوى او عمل أو بأجر لا يكفى لإعالتها .

قال الاسقف الأمريكى وليم لورانس عن الثروه والسلوك الاخلاقى سنة

١٩٠١ .

«اننا فى مركز يسمح لنا الآن بأن نؤكد انه لا التاريخ ، ولا الخبرة ولا الانجيل
تؤازر بالضرورة انعدام الثقة الشائع القائل بأثر الثروات المادية على الاخلاقيات ،
ان مسار دراستنا اصبح اكثر وضوحا ، وهناك مبدء ان ايجابيان ينتهيان بنا بعيدا عن
هذا المسار .

اولهما ان الانسان عندما يصبح قويا ، سيقهر الطبيعة ، ويكشف مواردها
ويسخرها لخدمته ، هذه لعبته ، ومهمته المقدسة .

لقد قال ايمرسون (ولد الانسان ليكون غنيا) وانه يهتم تماما بغزو هذا الجزء من
الطبيعة مدفوعا فى ذلك بميوله الفطرية وولعه حتى يجد رفايته فى استخدام الكوكب
وكواكب اخرى غير التى يعيش عليها . وان الشراء يتطلب بجانب كسرة الخبز
والسقف الذى يعيش تحته ، لا حرية المدينة ، ولكن حرية الارض كلها . (ان
الجنس القوى هو ذلك النوع القوى بهذه النواحي) .

والمبدأ الآخر ، فى المدى الطويل ، هو ان الثروة لا تحيى الا للانسان الفاضل
صاحب المثل . اننا نؤمن بتناسق الكون ، ونعرف انه من خلال نواميسه الطبيعية
والروحية يمكن ان نعمل بكفاءة . ولا يمكن ان تظهر اسرار الطبيعة وثرواتها الا عن
طريق سلوك التفكير المستقيم والحياة القويمة . ونحن مثل داود النبى لا نرى الرجل
الشرير وقد نجح الا بين الفينة والفينة .

أعط حقلين متجاورين لشخصين : واحد منها قوى وعادى . والآخر ضعيف
ومتواكل . ترى الاول وقد اخذ الفأس ، وعزق الارض وعمل منذ مطلع الشمس
حتى مغيبها اما الثانى فلا تراه الا وقد بذل مجهودا ضئيلا ، يكتفى بأن يشرب من
الينبوع . ويستسلم لسنة من النوم ثم يرجع متسكعا الى عمله ولا تكاد تمر سنوات
قليلة حتى يصبح الاول وقد حقق غنى كبيرا والثانى وقد أصبح فقيرا يعتمد على الاول
فى اعالته نادما على رخائه الضائع .

دع عشرة آلاف رجل لا اخلاق لهم يعيشون ويعملون فى واد خصيب وعشرة
آلاف آخرين على خلق يعيشون ويعملون فى واد مجاور . الاجابة عمن سوف يفوز
بالثروة المادية تأتى فورا : فالورع والصلاح قرينا الغنى والثروة .

وعندما يتم التعداد الحالى ، سيظهر بما لا يدع مجالا للشك ان الثروات المادية
الملموسة فى هذه الدولة (الامريكية) تقوم بتسعين بليون دولار اى بزيادة قدرها خمسة

وعشرون بليون دولار منذ سنة ١٨٩٠ ، خمسة وعشرون بليون في المادخرات ، تكونت في عشر سنوات .

والسؤال الذى اطرحه هو : هل الرخاء المادى لهذه الأمة ، يراى فى ارقياها ، الشعب او غير موات لها .

واول ما يتجه اليه العقل هو من الذى اثرى ؟ ومن الذى حصل على المال ؟ اننى أقولها باعلى صوت : (اصحاب الملايين) واصحاب رؤوس الاموال ، ونحن عندما نفكر فى هذه البلايين الخمسة والعشرين ، تتسع افكارنا الى اليخوت ، والقصور ، ووسائل الترف التى تتباهى بنفسها امام الجمهور .

وعندما بدأت اكتب فى هذا الموضوع توقف رجل ايرلندى ومعه حصانه وعربته عند الباب الخلفى ، ويلاحظ اننى اقول ومعه حصانه وعربته ، ومنذ عشرين عاما مضت كان قد نزل هذا الايرلندى الذى لم يكمل العشرين من عمره الى مدينة بوسطن وقد كان أميا فظا غريبا يصعب عليه ان يعبر عن نفسه بالانجليزية ولم تكن عليه سياء الذكاء او اليقظة او الطموح تمكنه من ان يكون راعيا للأبقار . وسرعان ما بدأت الاحوال تستقر فى امريكا حتى اكتشف هذا الرجل ان الفرص تلوح لكل من يعيش على ارضها . اشترى لنفسه لباسا اكسبه الاحترام . ثم اخذ يبعث لاهله بجزء من دخله - واصبح بعد ذلك يسوق عربته - وفتح حسابا فى البنك وحصل على عمل افضل وتزوج امرأة مدبرة ، وهو يملك الآن حصانا ، واصتبسلا ، وعربة ودراجة ، له رصيد لا بأس به فى البنك ويعول خمسة أطفال ولديه عدد من العمال يعملون معه ، لقد اصبح رأسه اليه دخله السنوى حوالى ٣٠٠٠٠ دولار . ولم يكن وراءه من يدفعه ، لقد كون نفسه وشقى طريقه بصبر وعزيمة وقوة وذكاء متزايد . انه حقق ثروة مادية وأنموه الأكبر الذى دفع له مصروفات رحلته حتى دبر الآخر ثروة مادية ، وانه الاخوه الاصغر الذى تحمل هذا الرجل مصروفات رحلته حقق ايضا ثروة مادية .

وتكشف لنا هذه القصة عن اين توجد المدخرات ، انها فى ايدى مئات الالوف من امثال هذا الرجل وعشرات الالوف من الرجال الذين يحققون منذ عشرة اعوام دخولا سنوية تتراوح بين الفين وخمسة آلاف ، وآلاف غيرهم ممن ارتفع دخلهم السنوى من عشرة آلاف الى ثلاثين ألفا حتى إذا وصلنا إلى اصحاب الملايين وجدنا

أنهم لا يكونون سوى فئة قليلة لا تستطيع ان تنفق على ملذاتها وترفها الا جزءا يسيرا من دخلها ، اما الجزء الاكبر مما يحصلون عليه فيعاد استثماره ليصبح وسيلة يحصل عن طريقها آلاف آخرون على أجورهم ، انهم مجرد امناء على جزء من الثروة القومية .

عندما يتساءل المرء (هل ثراء هذه الامة المادى يتواكب أولا يتواكب مع الأخلاقيات ؟) ويجاب عليه بالتأكيد انها مواتية ، فى المدى الطويل على اية حال) . وهذا يعنى ان البحث عن الثروة واكتسابها علامة من علامات السمات الطبيعية القوية الراسخة . وحينما وجد الرجال الاشداء ، اتجهوا الى مزاولة نشاطات الحياة . ففى ايام الفروسية يشتركون فى الحملات العنيفة او يعثرون على الثروات ، وفى الجامعات تجدهم يحتلون اعلى المستويات ، وكذلك فى البحر وفى المجال الرياضى . وفى العصر الصناعى يبذلون كل ما فى الوسع ويجدون فى تنمية وتطوير الصناعات الكبيرة . والبقاء للاصلح .

ان البحث عن الثراء المادى اذن امر طبيعى ولازم للانسان لزوم انطلاق جذور شجرة البلوط الى حيث تحصل على مزيد من الغذاء والرطوبة ، انه نشاط الانسان والتعبير عن قدراته وعن شخصيته وقمعها اصبح مستحيلا ، اسنحالة كبت حركة المحيطات ، وفى مقابل شخص يبحث عن المال لذاته ، تجد عشرة رجال يبحثون عنه لاشباع رغبة البحث ، والقوة الكامنة فيه ، ومن أجل الاوجه التى يستغل فيها . وهناك الابتهاج الذى يخلفه الفرد فى بيئته . فالانسان يسط نفوذه على هذا وذاك ويسيطر عليها وعلى المشاكل والاهتمامات . فهل هو يجمع ثروة ؟ نعم ولكنه يستمتع ايضا بأن يجعل من نفسه رجلا اقوى ، واقدر واكثر نفوذا وفاعلية ، والعاطلون عن هذا الطموح اما شاب متوان فاطر الهمة واما معوز كسول تافه يجرى بحثا عما هو تافه وكلاهما ينضويان تحت فئة واحدة .

ان الانسان الأقوى هو الذى يستطيع ان يتحرك فى عصر وفى دولة تقوم فيها الفرص الملائمة والمتاحة على اسس تجارية ، ان المسألة ليست الانغماس فى الشئون الدنيوية وحب المال ، بل الاستعمال الطبيعى والاستخدام الحقيقى لصفات الرجال . واية محاولة لكبت هذا التصرف لا تمت للمواجبات الدينية بصلة ، ولكنها خطيئة مدمرة لا ريب فى انها فاشلة فى النهاية

انتهى كلام الاسقف وليم لورانس .
ولعل في كلام هذا الاسقف ما يوضح لك التغير الذى طرأ على الفكر الاوربي
والامريكى وعلى الشخصية الاوربية فى العصر الحديث خاصة وان هذا الكلام صدر
من رجل دين كان اسلافه يحكمون على امثاله بالتعذيب قبل الاعدام ان صدر منه
مثل هذا الكلام .

وهكذا تعلم الانسان الاوربي من كل العبر التى سردناها فى هذا الكتاب عن
الصراعات الدينية والاجتماعية ألا يشغل وقته او فكرة او جهده بمثل هذه الصراعات
التى عوقته طويلا عن اشباع حاجاته المادية ومن خلال شخصية انسانية ايجابية ،
منتجة وبناءة(*) .

وتمكنت اوروبا المسيحية ، ليس فقط من الثراء المادى فى الداخل ، بل والعودة
الى شن الحروب الصليبية على العالم الاسلامى فانتصرت عليه بسهولة واقتسمت
اوروبا دوله فيما بينها كثمرة للصراعات والانقسامات بين المسلمين مما لا يرضى الله
ولا يقره الاسلام .

وحلت اوروبا محل الخلافة الاسلامية فى سيادة العالم والسيطرة على شعوبه ثم لم
تلبث روسيا وأمريكا واليابان أن ظهرت على مسرح الاحداث ، خاصة بعد الحرب
العالمية الأولى .

وليكون الجميع على قمة الشعوب الاكثر ثراء وحضارة بينما قبع
شعوب العالم الاسلامى فى مؤخرة الفقر والتخلف .

وإنه وان كانت الشعوب الاسلامية استذلت بالاستعمار والقهر العسكرى لمدد
تتراوح بين نصف القرن والقرن او اكثر من الزمان ، الا أن الاستعمار العسكرى
خلف وراءه الفرقة بين المسلمين وغيرهم من اتباع الديانات الاخرى مع تعميق
جذور سلبات الشخصية الانسانية حتى اصبحت لا تعرف لها طريقا محددًا لانقاذ
نفسها ووطنها وعقيدتها من بؤرة الفقر والجهل والتخلف مما ادى الى خضوعها

* هذا لا يعنى أن الدول الأوربية قد تخلصت نهائيا من الصراعات الدينية ، فلا زالت هذه الصراعات
موجودة بين أتباع المذاهب المسيحية وبين الملحدين ، ولكن هذه الصراعات صراعات غير دموية
وعبر مؤثرة على وحدة الشعوب على طريق التعمير والتحضر ولا أدل على ذلك من اتجاه شعوب ودول
أوروبا الى الوحدة

لاستعمار اقصى من الاستعمار العسكرى وهو الاستعمار الاقتصادى والعلمى . . .
فالاستعمار السياسى . . . حيث اصبح القرار السياسى مرتبطا باليد التى تلوح
بغذاء وبوسائل حياة الشعوب .
وبهذا انتهت الحروب الصليبية .
وهذه هى ثمرة الصراعات الدينية الإسلامية المسيحية . . . والتى بدأت منذ
القرن السابع الميلادى وانتهت فى القرن العشرين بالنصر لاتباع المسيحية الاوروبية
على أتباع الإسلام .
ولله فى خلقه شئون .

الفصل الثالث

ثمرة الصراعات الإسلامية في العصر الحديث

نجحت المسيحية الأوروبية في إبادة جميع المسلمين بأوروبا سواء بالتنصير
الاجباري ، أو بالقتل ، أو بالطرد حق لقد لاحظ بعض الباحثين المسلمين عدم
وجود قبر لمسلم واحد في اسبانيا رغم أن الدولة الإسلامية قضت بها حوالي ثمانية
قرون كان معظم الشعب خلالها يدين بالإسلام .

وقس على ذلك البلدان التي استوطنها المسلمون بجنوب أوروبا وبجزرها ولهم
فيها تاريخ معروف .

ولكن . . . هل سكنت المسيحية الأوروبية عن صراعاتها ضد الإسلام ؟

يوجد كتاب اسمه (مائة مشروع لتقسيم تركيا ومؤلفه - د جوفارا ومن هذا
الكتاب يتبين استمرار الرغبة العارمة لدى مسيحيي أوروبا في السيطرة على الشرق
الإسلامي منذ الحروب الصليبية .

وفي خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان قد الغرب ابتلع العالم
الإسلامي كله بقواته العسكرية - في كل قارة إفريقيا وفي فلسطين وسوريا ولبنان
والعراق وإيران والخليج العربي وجنوب جزيرة العرب الخ .

ولم يكتف الغرب بذلك ، بل قام بتقسيم مقر الخلافة في تركيا فيما بين
دوله . . . ولكن ثورة مصطفى كمال أتاتورك انقذت الموقف حيث نجح في صد
الغرب عن بلاده .

وكان ذلك هو نهاية الحروب الصليبية بالنسبة لهم .

ترى ، ماذا فعل الغرب المسيحي بالإسلام والمسلمين بعد هذا الانتصار الباهر ؟

سوف نجعل الوثائق الغربية المسيحية هي التي تتكلم عن أفعالها .

نشرت (مجلة المجلات) الإنجليزية بعددها الصادر في يناير - فبراير ١٩٢٥ ترجمة نداء بليغ لأحد أعظم الكتاب الإسبان ، السنيور ايبانيز ، أذاعه هذا في بني قومه في نوفمبر ١٩٢٤ ، يبين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودي ريفيرا ، في سياسة الدولة وفي حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب أمته لإسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء في هذا النداء الذي كانت طيارتان تجويان آفاق إسبانيا وترميان الناس به ، انه لما قام ملك إسبانيا والجنرال بريمودي ريفيرا ، منذ عدة اشهر بزيارة البابا في الفاتيكان ألقى الملك الإسباني خطابا لدى البابا ، ملؤه الغيرة الشديدة على الكاثوليكية خاصة والنصرانية عامة ، ومما جاء في هذا الخطاب :

(إن إسبانيا ايضا قد تجندت لحرب المسلمين في افريقية حربا لا تنفك عنها حتى تقوم بغرس الصليب في ديار المسلمين ، وجعلت اتباع محمد يخضعون له قهرا)

وعندما تكتلت الدول العربية مع اليونان في جبهة ضد تركيا ، كانت البيانات الرسمية الصادرة منهم لا يشك من يقرأها على أنها حرب صليبية جديدة
والخيرة

وقد سبق بيان أن الصليبيين قاموا بذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل إلى صدورهم في الدماء ، واستأصلت المسيحية الأهرية شأفة المسلمين من الأندلس ، وصقلية ، وجنوب فرنسا وسردانية ، مع انهم كانوا يحصون في هذه البلاد بالملايين - فقد عفى الأوروبيون كل اثر للإسلام في اوربا ولم يرصوا ان يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال إنهم برابرة بقى محت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الاجناس كانوا يقددرون في اوقات عديدة أن يستأصلوهم أو

أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك إسبانيا وفرنسا بالعرب — وقالوا إن السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والارمن وغيرهم بالممالك العثمانية ، واحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ، وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية .

قال احد وزراء الدولة العثمانية في حديث له مع بعض رجال دول أوربية (إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرنس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة اعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مرت بنا قرون وادوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقي بين اظهرنا الا من اقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام . فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر اصلا وكان اذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهة الملة وبجاجة مثل زنبيد على افندي شيخ الإسلام ويقول له بلا محابة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن تنزعهم عن اوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امثالاً للشرع الشريف . فبقى بين اظهرنا حتى في ابعد القرى واصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وآخرون وكلهم كانوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . اما انتم معشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بينكم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا اراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان في اسبانيا ملايين وملايين من المسلمين وكان في جنوب فرنسا وفي شمالي إيطاليا وفي جنوبيها مئات الوف منهم ولبشوا في تلك الأوطان اعصرا طويلة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام . ولقد طفت في بلاد اسبانيا كلها فلم اعثر فيها على قبر واحد يعرف انه قبر مسلم) فلما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جوابا

وعندما نفى البريطانيون بها دور شاه الثاني اخر السلاطين البابويين من الهند بوصفه الزعيم الروحي لأهلها من المسلمين الذين رفضوا في الغالب الاعتراف بسلطانهم ، وأصر زعمائهم اناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى اعلن اللورد النبرو ، حاكم الهند البريطاني ، في صراحة تامة ، أن العنصر الإسلامى هو عدو بريطانيا الأصل ، وان السياسة

البريطانية في الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية اليها لتستعين بهم في القضاء على الخطر الذي يهدد بريطانيا في هذه البلاد .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) اكثر مما بطشوا بغيرهم عن الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها فأقصوهم إقصاء شاملا عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عددا كبيرا منها ، وجهدوا في تقويض كل اوضاعهم الاقتصادية والثقافية ، ثم اصطنعوا ابناء الطبقات الهندوكية المتوسطة في الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها ابدا إلى المناصب الكبرى التي كانت جميعها في السلكين المدني والعسكري وقفا على المستعمرين . ولم يكتف المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامي بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعماهم بمظهر الطغاة .

ثم انطلقوا بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى احياء ماضيهم القديم بقصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين — ليتجلى ذلك كله فيما بعد ، عن مذابح وهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حيناً طويلاً من الدهر عن مناوأة الحكم البريطاني بالهند .

وعندما اصدر البريطانيون قوانين الاصلاح الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الاراضى الكثيرة والضيايع الواسعة بالهند ، صارت اغلب الاراضى التي كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكا لجباة الضرائب من الهنادكة وانقلب زراعتها الأصليون الذين صودرت اراضيهم إلى اجراء عندهم .

وانتهت الصراعات إلى تقسيم الهند إلى هند وباكستان ، وفي عام ١٧٧٤ انزل الروس الهزيمة بالترك وارغموهم على عقد معاهدة كجوك فينارجة ليزعموا من بعد ذلك انهم اصحاب الحق الطبيعى في رعاية المسيحيين من رعايا العثمانيين والأشراف على شئونهم . بل إن من واجبههم المقدس اساسا العمل على إحياء الدولة البيزنطية من جديد .

ومن المسلم به أن أوروبا كانت في كل حروبها للقضاء على تركيا ، تنظر إلى العثمانيين نظرة صليبية خالصة بوصفهم يمثلون قوة الإسلام الحقيقية الكبرى ومن ثم كان هذا هو هدفهم ومهمتهم الأساسية . هذا إلى جانب موقف خليفة المسلمين نفسه الذي ظهر ضعفه وعجزه بوضوح حين اخذ الروس يتوغلون في التركستان ،

وحين نزل الفرنسيون والإيطاليون بشمال افريقية واستولى البريطانيون على وادي النيل .

والواقع أن السلطان التركي منذ أن ناصرته فرنسا وانجلترا بقواتهما في حرب القرم عام ١٨٥٤ ضد روسيا لم يكن ليرد لها طلبا ، حتى وهب جزيرة قبرص لبريطانيا وتغاضى عن احتلال فرنسا لشمال افريقيا وانجلترا لوادي النيل كما لم يحرك ساكنا بازاء حرب الابداء التي مارسها الروس في القرنين الماضي والحاضر في القوقاز والتركستان واستشهد فيها اكثر من عشرين مليونا من المسلمين .

ثم ألم يكن الخليفة نفسه — بضبط من المستعمرين وارضاء لهم — هو الذي اعلن على الملا عصيان مصطفى كمال وهو يحارب في الاناضول جيوش اليونان الجرارة ومن ورائها امدادات الجلفاء مجتمعة للاجهاز التام على آخر قوة عسكرية للإسلام . وما صنعه الخليفة وحيد الدين في ذلك مع مصطفى كمال الزعيم التركي ، كان قد فعله سلفه الأسبق الخليفة عبد الحميد مع الزعيم المصري أحمد عرابي ، وهو يدافع الإنجليز عن وادي النيل عام ١٨٨٢ م .

وكتب زويمر عن مساعي المبشرين في اقطار الإسلام كلها قطرا قطرا ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وحبوطها ووسائل هذا التبشير كالرسالات الدينية والبعثات الجغرافية ومستشفيات ومصاح وملاجيء للفقراء — ويرى زويمر في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعته ثم منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة اهوائهم ، وتمريض اجسامهم ، ومواساة فقرائهم وبالاختصار استثمار امراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم .

ولا ينكر أن هذا الرأي هو رأى مجرب خبير ساح في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الإسلام وعلم ما يعوز الإسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات

ويقرر زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها في حق التبشير من أجل ملاحظات سياسية ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلتره ولاية (كافرستان)

(شرقى افغانستان) لعبد الرحمن خان امير الأفغان حتى بعث اليها احد قواده غلام حيدر فحمل اهل تلك الولاية على الإسلام فاسلموا قاطبة . ويقول إن أهالى مقاطعة كيلان في بلوخستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار إلى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين الخ .

والطامة الكبرى عند زويمر هي في اواسط افريقية ، فانه يذوب لهفا على انتشار الإسلام في تلك الأرجاء ، بهذه السرعة الغربية ، ويتأوه على كونه في السودان كله لا يوجد اكثر من عشرين مبشرا وبالاجمال يقول إن نحو ٥٠ مليوناً في اواسط افريقية واطرافها قد اسلموا بالرغم من مساعى المبشرين الذين لم يعرفوا من اين تؤكل الكتف .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون اعظم مما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظرا لبغض الزوج للجنس الأبيض الأوروبي على اطلاقه - وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على اوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التى تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود ابدا فينبغى أن تكون هزيمة الإسلام في الحرب العامة انتصارا للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف الواحد) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التى - احيانا بدون روية - تصلح ادارة الإسلام الدينيه ، وتنظم اوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الإسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواى زيارة كربلاء ، وصارت شركة كوك تسفر المسلمين الأغنياء إلى مكة ، بل إن تشجيع الدول الأوروبية للتعليم من شأنه زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الأوروبيين

وكان انتشار الإسلام في جاوة ، بحسب تحقيقات العلامة هورغونيه — بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفبين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون إلى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية فجاء الإسلام واستمالهم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريبا بطرق سلمية ، وبدون ادنى قهر ولا عنف الا ما حصل من اهالى شرقى جاوة الذين غلبوا بعض مجاورهم بالقوة ، فمن جاوة امتد الإسلام إلى سومطرة وإلى قسم من بورنيو وسيلب والجزر التى إلى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطرة فى القرن الرابع عشر بأنه جاهد الكفار .

ولم يزل الإسلام ينتشر فى البقايا الباقية على الوثينة حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية فى ذلك وكيف انها تسمح للإسلام باكتساب هذه البقايا . واكثر من صخب لذلك هى جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغونيه يفصل هذه المسألة بكلامه الآتى :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالإسلام فى البلدان التى أهلها وثنيون لثلاث تكون قد ساعدت على نشر الإسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الالمان انفسهم فى المستعمرات الالمانية بشرقى افريقية . ولكن الخطر عندنا اعظم لأن المأمورين الوطنيين من اهل جاوى هم فى الغالب من المتعلمين والمطلعين على اصولنا الادارية وليس عندهم تعصب مفرط فى الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة إلى استخدامهم ، فلا ينكر انه مع تمادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين فى مسألة نشر عقيدتهم بين ساعدنا بأنفسنا على إسلام غير المسلمين» (*) .

وبعبارة اخرى فان مصلحة هولاندة ، واوروبا كلها ، تقضى بترجيح بقاء الأهالى وثنيين على أن يصيروا مسلمين .

ولكن حربهم للإسلام كانت نابعة من أن الإسلام لا يجتمع مع الدل فى قلب واحد .

* قارن ذلك باليهود أيام النبی علیه الصلاة والسلام بترجيح بقاء القرشيين على وثنيتهم على أن يصيروا مسلمين .

... وعملت حكومة موسولينى ، بعد غزو طرابلس الغرب ، إلى الاحداث من فوق اربع سنوات الى ١٢ سنة فاخذتهم قهرا من احضان ابائهم وامهاتهم فى يوم تشيب من هوله الوالدان ودفعتهم إلى إيطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم على النصرانية وهذا يشبه عمل الاسبانيول بمسلمى الأندلس منذ اربعة قرون .
وبهذا انتصر الغرب المسيحى فى صراعاته الخارجية ضد المسلمين .

رد الفعل الإسلامى على الانتصار الصليبي : -

لم يرض المسلمون بذل الهزيمة والوقوع تحت سيطرة الغزو الصليبي الحديث فعملوا على تحقيق الوحدة بين جميع شعوب العالم الإسلامى فى جامعة اسلامية ليتمكنوا عن طريقها من رد الغزو والتخلص من الاستعمار .

ولما فشلت الجامعة الإسلامية فى تحقيق اهدافها العسكرية بسبب افتقار المسلمين إلى علوم الغرب العسكرية والحضارية ، قرروا أن تكون البداية فى نشر العلم والتوعية والأخلاق الفاضلة .

وتوقفت مسيرة نشر العلم والتوعية والأخلاق الفاضلة بين شعوب العالم الإسلامى لتحل محلها ثورات داخلية تهدف إلى قلب نظم الحكم القائمة التى تصور البعض انها تمثل العقبة الوحيدة امام تقدم وانتصار الإسلام .

فقامت تركيا بتقليد الغرب المسيحى والغت نظام الحكم (الإسلامى) لتحل محله النظم الغربية الحديثة مع عدم التسامح مع اتباع الديانات غير الإسلامية اقتداء بالغرب المسيحى فى تعصبه ضد اتباع العقائد المخالفة .

وعلى العكس من ذلك ، قامت فى بعض الدول الإسلامية ثورات بهدف احلال نظم الحكم الإسلامى محل النظم القائمة وذلك مثل ما حاول الاخوان المسلمون فى مصر . . وعلى امل أن يؤدى الحكم (بشرع الله) إلى نهضة العالم الإسلامى

وتفشل هذه المحاولات ، لتقع بلاد اسلامية كثيرة فى صراعات دينية داخلية تشغلها عن الهدف الأساسى الذى (يجب) أن لا يغيب عن فكر وعن مشاعر كل مسلم وهو حتمية استمرار العمل بكل الجهد وبكل الإمكانيات المادية لتخليص الإسلام والمسلمين من ذل التخلف والهزيمة .

وهذا هو ما اسميناه بـ (صراعات الغفلة) .

ولم يتعرض الكتاب لأشكال أخرى من رد الفعل عند العالم الإسلامى مثل (الثورة) الوهابية فى جزيرة العرب و (الثورة) المهدية فى السودان اتباعا لما درج عليه هذا الكتاب من الاكتفاء بعرض بعض الصور والنماذج من الأحداث للاختصار .

١- الجامعة الإسلامية :

ما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى فتح الفرنسيس الجزائر واستولت روسيا على عبر القوقاس ، وبسطة انكتره نفوذها على الهند من اقصاها إلى اقصاها كل هذا جعل قادة المسلمين الحكماء فى كل صقع يوقنون كل الإيقان أن الإسلام انما يحقق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه وفى هذه الغضون اخذت الجامعة الإسلامية تسير فى تيار غايته مقاومة الغرب وصدده وعداؤه .

وقد كانت المقاومة فى بادىء الأمر فى موضع موضع ، وغير منظمة تنظيميا مرتبط بالوسائل كل الارتباط ، فهب ابطال من المسلمين مثل عبد القادر فى الجزائر وشامل فى القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالا شديدا فكان ذلك القتال على استمراره اشبه بمصنع يزيد العالم الإسلامى جروحا فيزداد تألما وصراخا ، بيد أن قتالا مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لأبطال المسلمين ، وذلك لوهم قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مددا ونصرا يستعينون به على المضى فى القتال .

وما انفكت روح العداء للغرب تهبج وتشتد ، حتى بات العالم الإسلامى قاطبة يغلى غليان المرجل على النار ، فشبت فى الجزائر الثورة المعروفة بثورة (الكابيل) سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالاولياء فى كل بلد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي فى السودان ، وهى الثورة التى دامت طويلا وفتت فى عضد الإنكليز فتا كبيرا ، وانزلت بهم خسائر فادحة .

وانفجر فى افغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم فتناولت حممه مسلمى الهند فألهبت صدورهم الهابا ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الإنكليز الذين

ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الانفس وركوب الأهوال ، وحدث مثل ذلك في اواسط آسيا حيث ظهرت (الطريقة النقشبندية الدينية) فاخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الأقطار الصينية فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى في (تركستان الصينية) و (ينان) واشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، واشهرها ما عرف (بالحرب الآتشية) .

وفي سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الإسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففي سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا معتدية على طرابلس الغرب الأفريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى علة الاستعمار . وفي سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقائية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركيا ، فخسرت تركيا في هذه الحرب جميع املاكها الأوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد .

وعندما اعلنت الدول البلقائية الأربع الحرب على تركيا ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ الصليبيين في القرون الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم تجد من الأوروبيين من انكر هذا الأمر .

وفي تلك الغضون اتفقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة (اغادير) تحرق الأرم ، فعضت على مراکش بالنواجذ وانقذت فيها المخالب ، وهكذا في خلال سنتين توالى الحملات الأوروبية تترى على العالم الإسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سليبا شرمزق .

فنزل ذلك على الأمم الإسلامية نزول الصاعقة ، يصم الأذان دويها . فاخذ العالم الإسلامى في المشرق والغرب يقوم ويقعد مشتتلا غضبا وقد تحقق من صدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى ، وعادت الجامعة الإسلامية لتأخذ دورها وتبدي للظهور في المجاهدين المسلمين الذين اتوا من كل مكان في العالم الإسلامى يقاتلون جنبا إلى جنب ضد الطليان في طرابلس الغرب .

ونعى الزعماء المسلمون في الهند على موقف ملك اليونان الذى يوقد حرباً صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء انجلترا تعصب النصرانية على اثلاسلام

٢ - التعليم والتوعية الإسلامية : -

عندما وصلت الحال فى العالم الإسلامى إلى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الإسلامية الحكماء جميع هذا وياتوا يوقنون أن الثورات المحدودة التى تشب فى موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى فى قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئاً من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الإدراك أنه إذا رام العالم الإسلامى تحرير نفسه من النير الغربى ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التى يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وإيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الإسلامى إذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه وسلوك سبله فى جميع ما يؤدى إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذى لا سبيل إلا هو للافلات من ربة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا إيقن قادة الجامعة الإسلامية أن استقلال العالم الإسلامى عن الغرب النصرانى الاستقلال السياسى ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحى والعقل العلمى الأدبى ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وأنه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الدل وتأبى الضيم ، سهل إذ ذاك كل عمل فى سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الإسلامية ، وغاية الأحرار أن أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الأكبر فى العالم الإسلامى ، وما يعانى به المسلمون من الدل والهوان فابتغوا تجدد الروحانى وإصلاح النفسانى ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم فى وسائل هذا التجديد والإصلاح وكيفيتهما ، فقال الأحرار أن المسلمين لا مندوحة لهم من الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه واتباع طريقته فى جميع ما هو لازم وضرورى لبلوغ الغاية العليا . . . وقال

ارباب الجامعة الإسلامية إن الإسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك فلهذا ينبغي أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العلمية ، والاستعانة بوسائله المادية فحسب .

وكان مبدأ الجامعة الإسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسان قامت عليها ، هما الطرق الحديثة النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء واكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغانى واننا نبسط الكلام على هذين الاسمين بادئين بالأول منهما .

السنوسية تهدف إلى الإصلاح الدينى والتهديب النفسانى والخلقى ، فخطه السنوسى التى (كان ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها انما هى افتتاح جميع البلاد الأفريقية ، ثم سائر الأقطار الإسلامية ، ثم جعل العالم الإسلامى من أقصاه إلى اقصاه مملكة واحدة - على رأسها خليفة واحد ، وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الإسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الأخلاقية فى المسلمين ، فلهذا هو لا يفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهديب اخلاق رعيته وترقيتها ، وابتاء نفوسها التربية الصحيحة وتنشئتها على الفضائل الإسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجد ايضا جدا اقتصاديا فى سبيل تحسين اسباب المعاش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحات الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديثة ، وابتنيت الأنزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب وذلك فى ليبيا .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمتعة لم يسبق له مثيل من قبل ، وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الاتقاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشىء من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة وحينونة الأجل المرتقب . وبينما (كانت) تسير السنوسية على هذا الجهد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والاكنان فى

جميع البلاد الأفريقية الشمالية وتعلم الناس طاعة (الوكلاء)
و (المقدمين) وفوق جميع هذا فأنها قد اتجهت وتغلغلت جنوبا في القارة الأفريقية ،
مبشرة بالرسالة المحمدية حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طففوا يقبلون أيما
اقبال على الدخول في الإسلام افواجا .

الدعوة الكبرى التي قام بها جمال الدين الأفغانى : -

كان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشئونها وذاك
على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم يقن
بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال
عهدا وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق وادرك شؤم المستقبل وما سينزل
بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الإسلامى على حال
مثل حاله التي كان عليها . فهب جمال يضحى بنفسه ويفنى حياته في سبيل ايقاظ
العالم الإسلامى ، واندازه بسوء العقبى ، ويدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة
يصير فيها التغيير ووجد مقاومة من المستعمرين ومن الحكام غير المستنيرين
وطورد ونفى وشرذ مرات عديدة .

وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : -

« العالم النصرانى ، على اختلاف اممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم
مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية
متحدة معا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد وروح
التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس
الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها متغلغلا في
احشائها ، و متمشيا في كل عرق من عروقها ، وهى ابدا ناظرة إلى الإسلام نظرة
العداء ، والحق ، والتعصب الدينى الممقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان
في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم
تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(تنتحل الدول النصرانية اعذارا لها في كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية واذلالها واكراهها ، بقولها إن الممالك الإسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدنى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتذرع بألوف الذرائع من نواح اخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة (جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداة الإسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الإسلام سحقا .

(تأخذ النصرانية شوارع كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم واطنائهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب بعزة النفس والشمم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلوا مكروها ، وافراطا في حب الوطن ضارا ومقتا وشناة للأجنى) .

(جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته) .

٣ - تقليد المسيحية الغربية : -

قال المسيو مرجيوفارا (مؤلف كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا)

مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال السياسة واصحاب الأعلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة .

ولقد شهد هذا الرجل في مقدمة كتابه هذا المصدر بمقدمة من قلم (لويس رنول) من مشاهير اساتذة الحقوق والعلوم السياسية ما ملخصه .

« إن من اعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في اعطاء الحرية المذهبية والدينية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالاً وتسير سيرا قاصدا في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » .

لذلك فان رفقاء مصطفى كمال يجعلون من جملة حججهم في التفاوض عن الشريعة الإسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التي لزمتهام مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما اكثر من الثلث مسيحيين وبأن الشريعة كانت تمنع اجبارهم في الدخول في الإسلام أو الجلاء .

ولقد كان في السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين واخرين مترفعين كاسيين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامي .

فلما جاءت الجمهورية التركية وبطل العمل بالشرع واخذ الترك يقلدون الفرنجة في كل شيء ، لم يبق في جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان بقي في الأستانة نحو مائة وخمسين الف نسمة فهؤلاء قد ابقتهم الدول بالاتفاق مع تركيا في مقابلة مسلمي تراقيا الغربية الذين ابوا ان يتركوا اوطانهم ويرحلوا إلى تركيا عندما تقرر مبادلة السكان وأجلت الدول بمقتضى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ المسلمين الذين في الروملی إلى الأناضول والمسيحيين الذين في الأناضول إلى الروملی والمورة .

وهكذا بدأ الأتراك يأخذون عن المسيحية عدم التسامح مع الأديان الأخرى وبعد أن كان في المجلس النيابي أيام السلطنة العثمانية نواب مسيحيون ويهود لم يعد هناك نائب واحد غير مسلم .

واطاح مصطفى كمال اتاتورك بالخلافة الإسلامية ، واعقب ذلك في ابريل ١٩٢٤ سلسلة من الإجراءات تستهدف القيادات الدينية وألغى منصب شيخ الإسلام وألغيت جميع الوظائف والمدارس والكتليات الشرعية (الدينية) وفي شهر مايو أغلقت المحاكم الشرعية . وقد تأكدت هذه الإجراءات في الدستور الجمهوري الجديد .

وقمعت الحركات الدينية المعارضة بعنف ، وحلت تنظيماتها وأغلقت مدارسها وصدر امر سنة ١٩٢٥ بأن يرتدى جميع موظفى الحكومة الزى الغربى وتحريم ارتداء الملابس الدينية الا لمن يتولون مناصب دينية معترفا بها - وصدر قانون باعتبار القبعة هى غطاء الرأس الرسمى للرجل وعد ارتداء الطربوش جنحة . وحرم على المرأة ارتداء الحجاب . . . الخ .

٤ - الثورة على نظم الحكم الداخلية لصالح تطبيق الشريعة الإسلامية : -
تعد جماعة الإخوان المسلمون مثلاً عن تنظيم إسلامى (داخلى) منظم هدف فى بداية امره ، إلى الحلول محل النظام الحاكم سلمياً وبالطرق المشروعة بهدف تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، ثم لما اتبع سبيل العنف ، اصطدم بالنظام الحاكم فكان الاعتقال والتعذيب والنفى والتشريد ثم عدم الوصول إلى شىء من الحكم بعد سنوات طويلة من الكفاح وضحايا بالألوف .

التحق حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمون فى الثانية عشرة من عمره بجماعة السلوك الأخلاقى والتى كانت تهدف إلى تعميق حساسية اعضائها تجاه الآثام الأخلاقية ، والتى فرضت نظاماً من الغرامات المرهقة يطبق على اعضاء الجماعة الذين يتلفظون بالسباب واللعنات فى حديثهم ويصبونها على زملائهم أو يرتكبون ما يخالف الدين - وقد شكل جماعة من الفتيان لم يقتنعوا بهذا العمل (جماعة النهى عن المنكر) تمثل هدفها الأساسى فى ممارسة تأثير اعمق على حياة المدينة* . وكان من بين نشاطاتها الرئيسية كتابة وتوزيع الخطابات السرية (وأغلبها خطابات تهديد) إلى من ترى انهم يحيون بصورة تتعارض مع تعاليم الإسلام .

ثم انضم البنا إلى جمعية الحصافية للبر ذات هدف مزدوج هو النضال من أجل الحفاظ على المبادئ الأخلاقية للدين الإسلامى ، ومقاومة نشاط البعثات التبشيرية فى المدينة .

وقد توافقت وصول البنا إلى القاهرة مع فترة الغليان الفكرى والسياسى التى ميزت العشرينيات . وباستعراضه للموقف (بعينى ريفى متدين) استطاع البنا أن يميز المشكلات الأكثر خطورة من وجهة نظره : الصراع المحتدم بين الوفد وحزب

(*) المحمودية - محافظة البحيرة .

الأحرار الدستوريين على حكم مصر والمحاولات السياسية الصاخبة التي اسفرت عن (الانقسام في اعقاب ثورة ١٩١٩) و (اتجاهات الردة والعدمية) التي غمرت العالم الإسلامى بعد الحرب ، والهجمات التي كانت تشن على التراث وعلى السلف الصالح . . . والتي شجعته (الانتفاضة الكمالية) في تركيا - والتي اتخذت شكلا منظما من خلال حركة (التحرر الفكرى والاجتماعى لمصر) وكذلك التيارات (اللااسلامية) في الجامعة المصرية بعد اعادة تنظيمها والتي بدا أنها تنطلق من الاعتقاد القائل بأن (الجامعة لن تحقق علمانيته الا اذا ثارت ضد الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه) ، والجمعيات والأحزاب و (الصالونات الأدبية والاجتماعية) المؤيدة لمبادئ الحرية في الفكر والعمل التي عملت على تثبيت هذه الأفكار مستهدفة (اضعاف شأن الدين بصفة اساسية) .

وانضم البنا إلى (جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية) التي كانت تنظم المحاضرات حول الموضوعات الإسلامية .

ولكن كل ذلك لم يقنع الرجل بإمكانية سد الفجوة التي رأى أنها تفصل بين المسلمين وبين الإسلام وتعاليمه .

لذلك نظم مجموعة من طلبة جامعة الأزهر ودار العلوم الذين توفرت لديهم الرغبة في التدريب للقيام بمهمة (الوعظ والارشاد) . وقدم هؤلاء خدماتهم في المساجد كما قدموها في التجمعات الشعبية (المقاهى واماكن التجمع الأخرى) وكان النوع الأخير هو الأكثر أهمية ، وقد ثبت نجاحه إلى حد كبير .

وقد تم تدريب مجموعة من الشباب على (نشر الدعوة الإسلامية) ونشر فكرة جماعة الإخوان المسلمون .

وقد حمل البنا بشدة على معارضة الأزهر السلبية واستسلامه الواضح (للتيارات التبشيرية الالحادية) التي تشيع الفوضى في العالم الإسلامى .

وفى الإسماعيلية التي عين بها حسن البنا مدرسا استخدم خلال ايام نشاطه الأولى المدرسة والمسجد ، الا أنه عاد مرة أخرى لاستخدام المقاهى ، كما فعل في القاهرة - لخلق جمهور من المستمعين ، وهو اتجاه اوحى به مناقشات المسجد . وكانت طريقته أن يلقي حديثه وأن يلاحظ أى المستمعين الأكثر تأثرا ، ثم يأخذ

هؤلاء إلى مجموعات اصغر من أجل اعطائهم المزيد من الدروس والوعظ ومناقشة قضية الإسلام . كما سعى في تلك الفترة ايضا أن يتعرف على مصادر القوة في مجتمعه وهي: ١- العلماء ٢- مشايخ الطرق الصوفية ٣- عليّة القوم ، وكان يقصد بهم العائلات الكبيرة والأسر ذات المركز القيادي بالمعنى الواسع للكلمة ٤- النوادي (الجمعيات ذات النشاط الاجتماعي والديني) .

وأنشئت الجماعة سنة ١٩٢٨ واتخذت من أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية مقرا لها - وتم جمع التبرعات وبنى بها مسجد سنة ١٩٣٠ ملحق به مدرسة للبنين وناد ومدرسة للبنات وتم تأسيس الشعب الأخرى على نفس النمط مع اضافة مصنع محلي صغير - أي مشروعات يمكن استخدامها ركيزة لممارسة مصالح أو أنشطة تخص المجتمع المحلي .

وانتهى المؤتمر الخامس مع الذكرى العاشرة لتأسيس الحركة إلى : -

١ - الإسلام كنظام شامل متكامل بذاته ، هو السبيل النهائي للحياة بكافة نواحيها .

٢ - الإسلام نابع من ، وقائم على مصدريه الأساسيين ، ما جاء به الوحي في القرآن وحكمة الرسول في الحديث .

٣ - الإسلام قابل للتطبيق في كل زمان ومكان .

وكانت تعاليمهم تدعو إلى الرجوع إلى الإسلام والأخذ بشعائره وتناهض الحركة التي كانت منتشرة بين طلبة المدارس الثانوية والجامعة من عدم اهتمامهم بأمور الدين . وكانت تعاليمهم كما في قانونهم العمل على تكوين جيل جديد ، يفهم الإسلام فهما صحيحا ، ويعمل بتعاليمه ، ويوجه النهضة اليه حتى تكون مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من روحه ، مرتكزة على أصوله ، وذلك باتباع القيم والفضائل التالية :

١ - تقوية الفضائل الخلقية ، واحياء الشعور بكرامة الأمة ، وتحرير النفوس من الضعف والبأس والريذيلة ، واتباع القرآن في قوله : «كنتم خير امة اُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

٢ - التحذير من الاندفاع في حياة المتعة والترف ، والمادة ، وتقليد الغرب في ذلك اعجابا بحضارته المادية ، والتذكير باصول الحضارة الإسلامية الفاضلة المجيدة (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) .

٣ - نشر الثقافة والتعليم والمحافظة على القرآن الكريم ، ومحاربة الأمية بإنشاء المدارس والأندية والأقسام الليلية ، والنشرات الدورية والمحاضرات وغير ذلك من الوسائل النافعة . (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

٤ - تأسيس المنشآت النافعة للأمة روحيا واقتصاديا ، ما امكن ذلك كالمشاغل والمستوصفات الطبية ، والعيادات الخيرية والمساجد واهياء الشعائر فيها ، (في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) .

٥ - علاج الأفات الاجتماعية كالمخدرات ، والمسكرات ، والمقامرة ، والبغاء ونشر الدعايات الصحية ، خصوصا في القرى والأرياف ، وارشاد الشباب إلى الاستقامة الصحيحة « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » .

٦ - تشجيع أعمال الخير والبر ، وتنظيمها ، ومساعدة الفقراء والبائسين والمصالحات بين الأفراد والأسر ، حتى يقوم التحاكم إلى الحب والإخاء مقام التحاكم إلى القانون والقضاء .

٧ - تقوية روابط التعارف والإخاء بين الشعوب الإسلامية كأمة واحدة الف بين قلوبهم الإسلام والعمل الدائب على ازالة الفرقة والانقسام من صفوف المسلمين (إنما المؤمنون اخوة) .

٨ - تنمية روح التعاون الاقتصادي ، والتعامل بين اعضاء الجماعة بتشجيع المشروعات الاقتصادية وتكوينها والنهوض بها (وتعاونوا على البر والتقوى) .

٩ - الدفاع عن الإسلام ومقاومة كل عدوان يراد به (وجاهدوا في الله حق جهاده)

١٠ - تقوية الروح الرياضية الصحيحة في نفوس الشباب (وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) .

هذه اهم تعاليم الإخوان المسلمين ومبادئهم ، وهى مبادئ سليمة ترمى إلى احياء الحياة الروحية وتغلغلها فى الحياة المادية والإقتصادية ، وقد نجحت فى نشر تعاليمها لأنها والحق يقال وجدت فى زمن ضل فيه الشباب ، وحرار واحتاج إلى زعيم يرشده .

ويستطرد الدكتور أحمد أمين قائلا: (ولقد لمست دعوتهم فكنت ارى الشباب المنضم إلى هذه الجمعية شبابا يتحلى بالفضيلة ، وتظهر فيه علامات الرجولة ولكن مع الأسف اراد زعماءه السيطرة والحكم ، وهذا امر شائنك .

وارادوا تنفيذ مبادئهم بالقوة لا بالاقناع ، فاستخدموا القنابل وسفك الدماء وكانت النتيجة مأساة ضاع فيها رئيس حكومة ورئيس حزب .

وكان الأولى فى نظرى الا يتعجلوا ، وأن يستمروا طويلا فى الإصلاح الخلقى والاجتماعى لأن السياسة مملوءة بالأشواك ، وقد كان . . . فقد اصطدم الحزب بهذه الأشواك ، (وكان مالمسناه من الصراعات التى حدثت بين الإخوان والجهاز الحاكم قبل قيام انقلاب عام ١٩٥٢ ثم بينهم وبين الجهاز الحاكم بقيادة الراحل عبد الناصر الذى عانت فيه قيادات الإخوان واتباعهم الكثير والكثير من انواع التعذيب الجسدى والنفسى والتضييق الاقتصادى . . . وفى عهد الراحل انور السادات سمح للإخوان بمزاولة نشاطهم بشروط لا تسمح لهم بالظهور بنفس القوة التى كانوا عليها ثم لينتهى حكمه باعتقال زعمائهم واضطهادهم) .

٥ - صراعات الغفلة : -

الغفلة لغويا يعنى — سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة قال تعالى: (لقد كنت فى غفلة عن هذا) أى غافلا عن ادراك القيامة وغافلا عن أحداث ما بعد الموت .

وقال تعالى : (أولئك هم الغافلون) أى الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون اليه فيعرضون عنه .

وهذا هو المقصود بحالة المسلمين فى العصر الحديث .
فهم قد غفلوا عن وضعهم المنهزم فى آخر حرب صليبية شنها الغرب المسيحى وانتصر فيها عليهم (حتى الآن) .

وهم قد غفلوا عن وسائل التخلص من هذه الهزيمة ، ومن هذا الانكسار ،
والتي بدأها اسلافهم في القرن السابق .

واكثر من هذا ، فهم قد شغلوا انفسهم في صراعات دينية بينهم ، ثم بين
غيرهم من اتباع العقائد الدينية أو الدنيوية الأخرى .

وبهذه الصراعات هم غفلوا عن الاستمرار في العمل بأيّ من الوسائل التي بدأها
اسلافهم لإنهاضهم سواء بالوسيلة السنوسية التي جمعت بين التوعية الدينية وبث
الفضائل الأخلاقية ونشر التعليم والمدارس مع الاستثمار الأمثل للموارد
الاقتصادية .

وسواء بالطريقة الأفغانية بالأخذ عن الغرب في كل وسائل تقدمه .

بل الذي حدث ، في الناحية التعليمية هو وصول الأمية في كثير من الدول
الإسلامية إلى ما يزيد على ٩٠٪ من مجموع عدد السكان ، مع هبوط مستوى خريجي
الجامعات .

وهكذا انقلب رد الفعل عند العالم الإسلامي على تغلب المسيحية الأوروبية
عليه ، من المقاومة عن طريق الجامعة الإسلامية ثم نشر العلم والتوعية والثقافة
والتحضر ، إلى الغفلة عن وضعه المنهزم نتيجة للصراعات الدينية التي صدرها اليه
الغرب المسيحي الظافر ، فانشغل بهذه الصراعات عن وسائل تقدمه وانتصاره .

وهذا هو نفس ما كان يريد له هازموه .

ولله في خلقه شؤون .

الباب الخامس

الاسلام والصراعات الدينية

— هذا الباب هو آخر رحلتنا مع الصراعات الدينية أو الصراعات التي اتخذت الشكل الدينى .

ولقد تم استعراض بعض صور هذه الصراعات فى الأبواب السابقة والتي تخص بصفة اساسية ، تصرفات وسلوكيات البشر تجاه هذه الصراعات .

ولا يملك المتتبع لتاريخ الصراعات الدينية الا أن يسأل نفسه هذا السؤال .
اما كان الاجدر بالبشر أن لا يدخلوا فى الحلقة الجهنمية للصراعات الدينية
التي لم يكسبوا منها الا الآلام والعذاب والفقر والتخلف ؟

واما كان الأفضل للبشرية أن تترك الناس على حرياتهم العقائدية بدون أن
تعطل مسيرتها الحضارية عند منعطف الصراعات (الدينية) ؟

اننا لم نلاحظ ، فى جميع مراحل الصراعات الدينية الا الفقر والمعاناة لغالبية
البشر .

وهنا — كان من (الواجب) أو من (المنطقى) أو من (البديهى) على أى
إنسان أوتى شيئاً من المعرفة التاريخية أن يتوقف عن صراعاته (الدينية) إن كان
لا زال داخلاً فيها .

وذلك بأن (يؤمن) بحرية الجميع فى اعتناق ما شاءوا من عقيدة وليصير تمام
الإصرار على السير باقدام ثابتة على طريق تحقيق المصالح وكفاية الحاجات .

ومع تحقيق المصالح وكفاية الحاجات ينقلب الضعف إلى قوة وينقلب الجهل
إلى علم ، وينقلب التخلف إلى حضارة .

وهذا هو المطلوب لكل المتصارعين دينيا وخاصة فى العالم الإسلامى .

فهل فى الدين الإسلامى ما يحض على أن يشغل المسلمون أنفسهم بالصراعات (الدينية وغير الدينية) ؟

وهل فى اليهودية أو المسيحية شىء من ذلك ؟

لقد بذل الباباوات اقصى ما عندهم من فكر وجهد (لينتزعوا) من التوراة ومن الإنجيل ما يؤيد صراعاتهم الدموية .

وهكذا فعل ، ويعل جميع الهادفين للمزايا السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فهم يجدون فى البحث عن سند دينى يؤيد مزاعمهم فى التفوق والسيطرة وذلك عندما يعوزهم الأمر إلى مساعدة وتأيد اصحاب العقول المتخمة بالجهل وبالسذاجة .

ولسنا فى حاجة إلى تبرئة رسول اليهودية ومبلغ الوصايا العشر من سُبّة التعطش لدماء غير المعتنقين لليهودية .

كما لسنا فى حاجة إلى تبرئة السيد المسيح ، وهو رسول المحبة والسلام من اتهمه بما ينافى المعروف عنه وهو ، عليه السلام ، القائل فى خطبة الجبل: (. . . باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا ابناء ابيكم الذى فى السماوات ، فانه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن احببتم الذين يحبونكم فأى اجر لكم ، أليس العشارون ايضا يفعلون ذلك ، وإن سلمتم على اخوتكم فقط فأى فضل تصنعون اليس العشارون ايضا يفعلون هكذا . . .) .

فهل يعقل أن مبلغ كلمات السلام والمحبة هذه وغيرها وبالنسبة للاعداء بصفة اساسية ، هل يعقل أن يرضى عن كل المجازر والتعذيب والاحراق والاضطهاد ومصادرة الأموال وإيلاام النفس والتشهير بكرامة الإنسان التى مارسها رجال الدين وأتباعهم فى المسيحية الأوروبية ؟

ولكن المنافع الشخصية هى التى كانت وراء غالبية قيادات الصراعات الدينية ثم يحىء المؤمنون ، الجاهلون باحكام دينهم ليكونوا جنودا مخلصين لاصحاب الأهداف الدنيوية .

وبهذا خسرت الأغلبية الجاهلة الساذجة الكثير ولمصلحة قلة من القيادات
(الدينية الدنيوية) .

ترى ، أما آن للغارقين في مستنقع الصراعات الدينية أن (يتنبهوا) من
غفلتهم عن طريق تحقيق المصالح وكفاية الحاجات ؟

وفي الأوراق التالية نعرض حكم الدين الإسلامى نفسه ، لا حكم البشر ،
في كل انواع الصراعات (الدينية) التى عطلت مسيرة الإنسانية بصفة عامة ،
والشرق الإسلامى بصفة خاصة عن مواكبة ركب الحضارة العالمية (حتى الآن) .
ولعل بعد هذا العرض أن يتنبه (الغافلون) .

الفصل الأول

الإسلام والتآلف مع أتباع العقائد الأولى

قال تعالى : -

(وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) الأنفال : ٣٩

أى قاتل (الكفار) ايها الرسول انت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لاجل تركه ، كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان في مكة ، حتى اخرجوكم منها من اجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله ، لا يستطيع احد أن يفتن احدا عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكروه له فيعتنقه تقية ونفاقا ويقول (صاحب المنار رحمه الله) :

«إن المعنى بتعبير هذا العصر ، ويكون الدين حرا ، أى يكون الناس احرارا في الدين لا يكره احد على تركه اكرها ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبا ويدل على العموم قوله تعالى : (لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي) (٢ : ٢٥٦) وسبب نزول هذه الآية أن بعض الأنصار كان لهم اولاد تهودوا وتنصروا منذ الصغر فارادوا اكراههم على الإسلام فنزلت ، فأمرهم النبي بتخييرهم .

والمسلمون يقاتلون لحرية دينهم ، وان لم يكرهوا عليه احدا من دونهم ومارضى الله ورسوله في معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التي اشترطها المشركون الا لما فيها من الصلح المانع للفتنة في الدين ، المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين واسماعهم القرآن ، اذ كان هذا اباحة للدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم انها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخولهم في الإسلام بعدها وسمى الله هذا الصلح فتحا مبينا .

وقد فسر عبد الله ابن عمر هذه الآية بأنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا ، فان الشرك لم يكن قد زال من الأرض ولن يزول (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ١١ : ١١٨) الآية .

وقد جاء ابن عمر رجلان في فتنة الزبير فقالا : إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وانت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج ؟

قال : يمنعني أن الله حرم على دم اخي المسلم - قالوا : أو لم يقل الله :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)

قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله - وانتم تريدون ان تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله (وفي رواية زيادة (وذهب الشرك) . . . إلى اخر ما ذكره صاحب المنار من أقوال المحدثين والمفسرين)^(١) .

وجاء في تفسير سورة براءة (التوبة) :

(فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) .

نزلت هذه الآية في مشركى العرب الذين لا عهد لهم . . . والأمر بقتال مشركى العرب في هذه الآيات مبنى على كونهم هم الذين بدؤوا المسلمين ونكثوا عهودهم حيث وردت بعد ذلك الآية : (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ يَنْتَوُونَكُمْ أُولَٰئِكَ ۚ) .

وفي تفسير الآيات السابقة من سورة التوبة :

برىء الله ورسوله من المشركين الذين عاهدهم المسلمون على ترك القتال وامهلهم اربعة اشهر يسيحون في الأرض احرارا آمنين ، وامر تعالى بالأذان العام إلى الناس في يوم النحر الموسم ببراءة الله ورسوله من المشركين ودعوتهم إلى التوبة من الشرك وعداوة الإسلام ، وانذارهم سوء عاقبة الإعراض واستثنى من ذلك المعاهدين الذين نبذت اليهم عهودهم من وفوا بعهدهم ولم ينقصوا منه شيئا ، ولم يظاهروا على المؤمنين احدا من اعدائهم ، فامر باتمام عهدهم إلى مدتهم ثم امر بم يترتب على النبذ والتوقيت فيه وعود حالة الحزب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى وقتت بها العهود ، وهو مناجزة المشركين بكل نوع من انواع القتال المعروفة في ذلك العصر من قتل واسر وحصر وقطع طرق المواصلات ، واستثنى من يستجير الرسول صلى الله عليه وسلم وامره باجارته حتى يسمع كلام الله .

فلفظ (المشركين والكافرين) موجه إلى العرب في جزيرتهم لما كان يراد لهم من تشریف باسلامهم باعتبارهم رهط النبی (صلى الله عليه وسلم) .
وتعاون المسلمون مع المشركين فيما يعود بالخير على المجتمع .

وروى مسلمة بن الاكوع : انه صلى الصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع كفه الشريفة بين كتفى مسلمة ، فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى حدث منه ذلك ، فقال له : هل انت واهب لى فلانة - وكانت جارية مشركه عنده ، فوهبها للرسول صلى الله عليه وسلم فبعث بها إلى خاله حزام ابن وهب - وكان مشركا .

واباح الإسلام لغير المسلمين ان يدخلوا دار الإسلام للتعامل التجارى فيها ، وأن يقيموا فيها بالإذن من السلطة المختصة .

والمعاهد هو المشرك الذى دخل دار الإسلام بأمان فيحرم قتله ، وفى حرمة قتلة
اخرج الأمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه
وسلم قال : (من قتل معاهدا لم يرج رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة
اربعين عاما) .

وقد رضى النبى أن تدخل معه قبيلة خزاعة فى صلح الحديبية مع أنها لم تؤمن
بعد . وكان نقض قریش للصلح بالتعدى عليها من اسباب فتح مكة عندما
استنصر به عمرو بن سالم الخزاعى قائلا :

يارب إني ناشد محمدا بحلف أبيه وأبيننا الأتلا
واستعار النبى ﷺ سلاحا من صفوان بن امية - وهو مشرك - ليحارب به
هوازن بعد فتح مكة ، وامر سعد بن ابى وقاص ان يتداوى عند الحارث بن كلدة
الثقى وهو غير مسلم .

وقال حجر الهيثم فى قول بعض الناس : الكفار خير من المسلمين فى اداء
الحقوق ، وما يشبه ذلك من أقوال الاعجاب بسلوكهم : لو قصد الخيرية المطلقة ،
وهى التى تشمل عقيدتهم ودينهم كله ، كفر وان اراد الخيرية فى اداء الحقوق لم
يكفر .

والتعاون بين المشركين وبين المسلمين لتحقيق الكفاية للوفاء بحاجات
المجتمع مطلوب ومرغوب فيه ما دامت المصلحة محققة للجميع . . . انما المنع أن
كان هناك ضرر . . . فلا ضرر ولا ضرار .

وتآلف الإسلام مع (الكفرة) .

وهؤلاء الذين بعض من سماهم القرآن الكريم « المؤلف قلوبهم » .
ومبدأ تأليف قلوب اعداء وحدة الشعوب واعداء مسيرتها فى التقدم والارتقاء
يؤكد لك مدى حرص الإسلام ، وليس مسلمى اليوم ، على تحقيق مجتمع يتآلف
فيه كل أتباع الرسالات السماوية وغيرها ، وبدون أى صراعات دينية .

وقال تعالى :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » - التوبة :
(٦٠) .

والمؤلفة قلوبهم ، اى الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى
الإسلام أو التثبيت فيه ، أو بكف ضررهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم في الدفاع
عنهم أو نصرهم على عدوهم ، لا في تجارة وصناعة ونحوهما . فان من يرى مخالفة
في الدين مصدر نفع له يوشك أن يواده ، فان لم يواده لم يحاده كالعدو الذى يخشى
ضرره ولا يرجى نفعه .

وذكر الفقهاء ان المؤلفة قلوبهم قسمان : كفار ومسلمون . والكفار ضربان
والمسلمون اربعة فمجموع الفريقين ستة ، وما يهمننا في موضوع البحث هم الكفار
اى غير المؤمنين بأى دين سماوى - وذلك حتى يتأكد القارىء من حرص الإسلام
على وحدة الشعوب وعلى تألفها وحتى تتفرغ - بعيدا عن الصراعات الدينية - الى
بناء مجتمع الرخاء والسلام .

فمن الكفار من يأمر القرآن بتأليف قلوبهم بالعطاء .

١ - من يرجى ايمانه بتأليفه واستمالته ، كصفوان بن امية الذى وهب النبى
صلى الله عليه وسلم له الامان يوم فتح مكة ، وامهله اربعة اشهر لينظر في امره
بطلبه ، وكان غائبا فحضر وشهد مع المسلمين غزوة حنين قبل أن يسلم ، وكان
النبى صلى الله عليه وسلم استعار سلاحه منه لما خرج إلى حنين . وهو القائل
يومئذ : لأن يرثنى رجل من قريش احب إلى من أن يرثنى رجل من هوازن . وقد
اعطاه النبى صلى الله عليه وسلم ابلا كثيرة محمله كانت في وادٍ فقال : هذا عطاء
من لا يخشى الفقر ، والله لقد اعطانى النبى صلى الله عليه وسلم وهو لأبغض
الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى انه لاحب الناس إلى . . . وكان صفوان احد
العشرة الذين انتهى اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الإسلام من عشرة بطون .
وفال ابن سعد : كان احد المطعمين في الجاهلية والفصحاء وقد حسن اسلامه .

٢ - من الكفار من يخشى شره فيرجى باعطائه كف شره وشر غيره معه ، قال ابن عباس : ان قوما كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فان اعطاهم مدحوا الإسلام ، وقالوا : هذا دين حسن وان منعهم ذموا وعابوا وكان من هؤلاء سفيان ابن حرب وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس .

والرأى المختار ، (أن سهم المؤلفة قلوبهم لم يسقط) ، ويجوز هذا التأليف عند الحاجة اليه وتجاه أى تجمع يخشى منه على مسيرة الناس فى الوحدة والتآلف واقامة الدين وتحقيق مجتمع الرخاء والعدل .

فى التآلف مع المجوس والصابئة :

قال تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد » - (٢٢ : ١٧) .

ونحن نعرف اليهود والنصارى . . . اما الصابئة والمجوس فلا بد من بيان عنهم .

وقد جاء ذكر كل من المجوس والصابئة لاتصال بلادهم ببلاد العرب ، فمن هم المجوس ، ومن هم الصابئة ؟

المجوس (بلاد فارس) :

يعتبر زرادشت نبى هذه الديانة التى تعتقد من بين ما تعتقد بوجود حياتين للإنسان حياة أولى فى الدنيا وحياة أخرى بعد الموت ونصيبه فى حياته الآخرة نتيجة لأعماله فى حياته الأولى وقد أخصيت أعماله فى كتاب وعدت سيئاته ديونا عليه . . . وعند الحساب توزن حسناته وسيئاته ، ودين زرادشت يرى أن العالم يحكمه إلهان ، إله الخير وإله الشر (٥) .

الصابئة :

هم قوم يعترفون بان الله تعالى هو الخالق ، وانه واحد ازلى لا اول لوجوده ولا نهاية له ، منزه عن المادة والطبيعة ، فهو الذى اوجدها ، ولكنهم تقربوا اليه بعبادة الملائكة ويعتبرونها ارواحا ، وأن لها هياكل فى الكواكب فهى تحمل بالكواكب كما تحمل الروح بالجسد ، واعتقدوا انها ارباب ، فعبدوها ليتقربوا بعبادتها إلى الله ،

زاعمين انها اقرب الأجسام المرئية اليه تعالى ويعتقدون انها حية ناطقة وأن كل ما يحدث في العالم يكون على حسب ما تجرى به الكواكب حسب امر الله لها ، ثم جعلوا لها تماثيل واصناما ترمز اليها فعبدوها .

ويقول إدوارد جيبون عن الصابئة :

والصابئة ترجع ديانتهم إلى زمن سحيق في القدم حيث انتشرت ديانتهم في ارجاء آسيا بفضل علوم الكلدانيين وجيوش الآشوريين ومن ملاحظات دامت الف سنه ، استنتج الكهنة وعلماء الفلك في بابل القوانين الأزلية للطبيعة والعناية الإلهية فعبدوا الآلهة السبعة أو الملائكة السبعة الذين يتحكمون في مسار الكواكب السبعة ، ويؤثرون في الأرض تأثيرا لا سبيل إلى مقاومته وقد مثلت صفات الكواكب السبعة وعلامات البروج الاثني عشر ومجموعات النجوم الأربع والعشرين في نصف الكرة الشمالي والجنوبي - مثلتها صور وطلاسم وخصص كل يوم من ايام الأسبوع السبعة لأحد الآلهة . وكانت الصابئة تصلى ثلاث مرات في اليوم . وكان معبد القمر في حران نهاية حجهم .

والاجماع على أن الصابئة مشركون .

ويقول صاحب تفسير المنار

وقد ذكر الله تعالى الصابئين والمجوس منهم في كتابة لاتصال بلادهم ببلاد العرب ، فلم يدخلهم في عموم المشركين ولا نظمهم في سلك أهل الكتاب ، لأنه جعل لقب (المشركين) خاصا بوثنى العرب ، ولقب (اهل الكتاب) خاصا باليهود والنصارى ، وان كان قد دخل عليهم الشرك ، والتاريخ يدل على أن الفريقين كانا اهل كتاب ، اما الصابئون فقد ذكروا مع المؤمنين واليهود والنصارى في آية سورة البقرة (٢ : ٦٢) وآية سورة المائدة (٥ : ٦٩) واما المجوس فقد ذكروا مع أولئك كلهم في قوله تعالى من سورة الحج : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ٢٢ : ١٧) فقد جعل المجوس قسما مستقلا ، وجاءت السنة بمعاملتهم كأهل الكتاب في انتهاء قتالهم بالجزية مثل الصابئة .

لا إكراه في الدين :

ما كانت قصة موسى مع فرعون الا تجسيدا لمشكلة حريات الرأى والعقيدة حيث شجب القرآن الكريم قيام فرعون بفرض عقيدته الدينية بالقوة على جميع المصريين بما فيهم موسى واتباعه .

وتأمل في بلاغة هذا التعبير الاستنكارى فى القرآن الكريم على لسان رجل من آل فرعون « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله . . . غافر : ٢٨ » .

تأمل في هذا التعبير وقس عليه كل ما يفعله غالبية حكام الشعوب المتخلفة ومن ضمنها الشعوب الإسلامية من كبتهم لحريات العقيدة وحريات الفكر والرأى .

فكل مَنْ يعتقد انه على حق ، اتركوه على حرياته مادام يعمل جهارا ولا يضر بوحدة المجتمع واستقراره

وذلك أن ربك هو العالم وهو العظيم وهو الخالق للإنسان وعلى علم بما توسوس به نفسه .

ونفس الإنسان ترفض كل عقيدة مفروضة .
فهكذا خلقه الله سبحانه وتعالى .

ولهذا لا يؤاخذ الله الإنسان على ممارسة حرياته ولكن يحاسبه على خوضه إلى غير طريق الاستقامة بعد أن تبين له الرشد من الغى فى اجواء هذه الحريات وفى هذا يقول صاحب تفسير المنار :

(هذه المزية من مزايا الإسلام هى نتيجة المزايا التى بينا بها كونه دين-الفطرة فاما منع الاكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمكة : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تُغْنِ الآيات والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون-١٠ : ٩٩ - ١٠١) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سنته فى البشر أن تختلف عقولهم وافكارهم فى فهم الدين ، وتتفاوت انظارهم فى الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه صلى الله عليه وسلم

من ايمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وانظارهم في آيات الله في خلقه والتميز بين هداية الدين وضلالة الكفر .

ثم قوله تعالى له عندما اراد اصحابه اخذ من كان عند بنى النضير من اولادهم عند اجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم : (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ٢ : ٢٥٦) — فامرهم صلى الله عليه وسلم أن يخيرهم فمن اختار اليهودية اجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام ، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية .

واما منع الفتنة ، وهى اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه ، فهو السبب الأول لشرعية القتال في الإسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ٢ : ١٩٣) من سورة البقرة . ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الأنفال التى بلفظها مع زيادة (كله) .

قال تعالى :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » . (البقرة : ٢١٧) .

والآية نزلت بمناسبة قيام سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنزل (نخلة) بين مكة والطائف لترصد اخبار قريش ، غير أن هذه السرية قامت في آخر شهر رجب وهو من الأشهر الحرم المحرم فيها القتال ، بقتل احد القرشيين وانكر رسول الله هذا القتل في الشهر الحرام ، فسقط في ايدي القوم ، فانزل الله عز وجل هذه الآية — « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » إلى قوله « هم فيها خالدون » .

واختلف العلماء في نسخ هذه الآية ، فالجمهور على نسخها ، وأن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح ، واختلفوا في ناسخها ، فقال الزهدى : نسخها

(وقاتلوا المشركين كافة . . . وكان عطاء يقول : (الآية محكمة ولا يجوز القتال في الأشهر الحرم ، ويحلف على ذلك ، لأن الآيات التي وردت بعدها عامة في الأزمنة . . .) الخ .

وعلى كل حال فالآية تصور موازنة بين مخالفة عرف العرب والقرشيين في عدم القتال في الأشهر الحرم وبين قيام القرشيين بالكفر بالله واضطهاد المسلمين لاعادتهم إلى الكفر وذلك بالسجن والتعذيب وحسبهم عن المهاجرة إلى رسول الله بالمدينة وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة فيه ، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين ، وفتنتهم إياهم عن الدين . . . فكل هذا أكبر وانكر من القتال في الأشهر التي مرم العرب والقرشيون القتال فيها .

وتستكمل الآية الحكم على من يرتد عن دينه في مواجهة هذا الاضطهاد (القرشي) والحكم فيه بفشل أعماله وتصرفاته وكيانه كإنسان صاحب دين وفضيلة في الدنيا أما في الآخرة فهو في العذاب الأبدي .

ويعرض القرطبي الكثير من الآراء (المختلفة) للمفسرين لأحكام (الارتداد) عن الدين — فالجمهور يقول بقتل المرتد وأبو حنيفة وأصحابه ومعه بعض المفسرين على عدم قتل المرتدة .

وهكذا فرقوا بين الذكر والأنثى في التكليف الدينية .

واستندوا في ذلك إلى احاديث نبوية — وليس إلى نص قرآني وهي :

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل يهودي أسلم ثم عاد إلى اليهودية .

« من بدل دينه فاقتلوه » ولم يخص مسلماً من كافر . وقال مالك : معنى الحديث من خرج من الإسلام إلى الكفر ، أما من خرج من كفر إلى كفر فليس معينا بهذا الحديث وهو قول جماعة من الفقهاء ، والمشهور عن الشافعي ما ذكره المزني والربيع أن المبدل لدينه من أهل الذمة (أي مسيحي ويهود أو العكس) يلحقه الإمام بأهل الحرب ويخرجه من بلده ويستحل ماله مع أموال الحربيين إن غلب على الدار ، لأنه إنما جعل له الذمة على الدين الذي كان عليه حين عقد العهد .

والمعنى اللغوى لكلمة - ارتد : رجع وتحول ، والردة اسم هيئة من رد وأطلقت على الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام قال تعالى : (فلما أن جاء البشير القاه على وجهه - فارتد بصيرا) أى رجع بصيرا كما كان ، وقوله : (ان الدين ارتدوا على ادبارهم) أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، وقوله : (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) أى يتحول .

وفى هذا يقول الدكتور مصطفى كمال وصفى :

(ليس للردة عن الدين مكان فى النظم الحديثة ، لأن المذهبية الحديثة ليست مذهبية دينية بل هى مذهبية مادية . وذلك كالنظم الماركسية مثلاً فهى كلها تقوم على الإيمان بمبادئ ماركس ومن شايعه ، وإذا كان لا يسمح فى تلك البلاد باتخاذ مذهب آخر ، ولا الارتداد عن هذا المذهب ، فان هذا الالتزام ليس دينياً .

وأما النظم غير المذهبية - الليبرالية أو الديمقراطية الحرة - فالعقيدة فيها مطلقة سواء كانت عقيدة دينية أو عقيدة سياسية أو اقتصادية ، فيجوز للفرد على أية حال أن يتخذ ما شاء من العقائد .

وتحصل من ذلك أن النظم الحديثة كلها لا تأبه للدين ، ولا للردة عنه إما لأن مذهبيتها مادية لا تقوم على العقيدة الدينية ، أو لأنها لا مذهبية على الإطلاق .

وقد حدث فى السودان عام ١٩٦٩ - وكنت وقتها استاذاً فى الجامعة الإسلامية - أن خرج احد الناس بأراء تعتبر من قبيل الردة . فرفع امره إلى قاضى الخرطوم الذى حكم برده . وعند ذلك ثار المتشيعون للقوانين الحديثة ونشروا فى الجرائد نقداً لاذعاً لذلك الحكم وقالوا انه مخالف للدستور لانه ينص على حرية العقيدة ، ومخالف للقانون الجنائى اذ لا جريمة فيه على تغيير الدين ، وللقانون المدنى اذ انه لم ينص على الردة كسبب لنقص الأهلية وابطال التصرفات أو وقفها فرد على ذلك بأن الردة حكم من احكام الحالة الشخصية ينصب على وصفه بأنه مسلم أو غير مسلم ، فالحكم الصادر منها يفصل فى المركز القانونى فقط للمرتد فلا تعارض مع الدستور إلى هذا الحد ، فاذا اردنا أن نقرر آثاراً من هذه الآثار فى نطاق القانون الجنائى أو المدنى اتخذت الإجراءات القانونية المتعلقة بذلك وهذا امر آخر غير مجرد

تقرير وضعه القانونى المدنى بحكم الارتداد . وبذلك فقد عدل المحكوم عليه عن الطعن فى هذا الحكم وصار ذلك الحكم نهائيا . وفى مصر عرضت على الجمعية العمومية للقسم الاستشارى بمجلس الدولة مسألة متعلقة بوصية رجل ارتد عن دينه واخذت الجمعية رأى بعض المتخصصين منهم استاذنا الشيخ محمد ابوزهرة . وكان رأى فيها - حيث تنص بعض المذاهب على وقف تصرفاته والبعض لا ينص - أنه لا يتحتم الأخذ بمذهب الامام ابى حنيفة (المطبق فى مصر) على وجهه ايامه بل على اساس اصوله ووسائله هو ما كان يقوله الامام والمجتهدون على مذهبه لو كانوا الآن .

وأن الردة فى الأصل حكم من احكام السير ، وليست من الحدود . لأن الجماعة الإسلامية فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم كانت معسكرا حربيا فكان المرتد فيها خطرا عليهم كالجاسوس فهو يقتل لهذا السبب لا لجنابة أوجبت حدا .

وهذا من كلام استاذنا المرحوم الشيخ أحمد بك إبراهيم ابداه فى مقال له بمجلة القانون والاقتصاد وقد نظرت اليها بعض المذاهب على هذا الأساس ومنها مذهب الحنفية ، بينما نظر اليها بعضها الآخر كحد فقط .

وعلى اية حال فان الجمعية اعرضت عن كل هذا وارتكبت إلى نصوص القانون المدنى وانها لم تعتبر الردة موجبا لنقص الأهلية ، وبذلك لم تجد سندا للطعن على وصيته) .

وكانت جميع سياسة الخلفاء ، لا سيما الاتقياء منهم ، تدور على محور نشر الإسلام (بدون اكراه) . ولما شكوا احد العمال بمصر من نقص الجباية بسبب اقبال اهل الذمة على الدخول فى الإسلام اجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويلك ان محمدا جاء هاديا ولم يجىء جابيا . وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انه : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فاسلم بعضهم قال : ورفع عمر الخراج على من اسلم بخراسان وفرض لمن اسلم ثم بلغه عن عاملة على خراسان ، الجراح الحكمى ، عصبية ، وكتب إلى عمر انه لا يصلح خراسان الا السيف فانكر ذلك وعزله .

وجاء ايضا فى فتوح البلدان للبلاذرى أن امير المؤمنين المأمون أغزا السغد وأشرونية وفرغانة وكان قد الح عليهم بالغارات ايام مقامه بخراسان ، وبعد

ذلك ، وكان مع تسريته الخيول بكتابهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيها
ثم إن المأمون كان يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة
والإسلام من أهل ما وراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد
الفريضة من أهل تلك النواحي وابتاء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه
شرفهم وأنس صلاتهم وازرقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك
حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغاء والفراغنة
والاشرونسة وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الإسلام على من هناك .

وبينما كان الخليفة المأمون غازيا في بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقاء اناس
بزي غريب واثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسألهم ؟ من انتم ؟ فنالوا : حرانيون .
فقال : أنتم نصارى ؟ قالوا : لا قال : أيهود أنتم قالوا : لا قال : افعندكم كتاب
الهي او لكم رسول ؟ قالوا : لا قال لهم : ان كنتم لا ترغبون في الإسلام ،
فتنصروا ، او تهودوا ، واتخذوا ديننا يعرفه الإسلام ، هذا بيننا فضل الأوروبيون في
مستعمراتهم بقاء الوثنيين على وثنيتهم بدلا من تحويلهم للإسلام .

ولما ارسل المأمون إلى ميزدا نبخت - احد رؤساء المانوية - فاحضره من الرى -
بعد أن أمنه - فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : أسلم يا مزدا نبخت فلولا
ما اعطيناه اياك من الأمان لكان لنا ولك شأن فقال له ميزدا نبخت : نصيحتك
يا امير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك
مذاهبهم فقال المأمون : اجل ، ووكل به حفظه خوفا عليه من الغوغاء ، وكان
فصيحا لسنا

(ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم
يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله
عليم بالمتقين)

آل عمران : ١١٣ - ١١٥

الفصل الثانى

الإسلام والتآلف مع أتباع المسيحية واليهودية

لاحظنا أن أتباع المسيحية الأوروبية لم يقبلوا على وجه الإطلاق التعايش مع المسلمين كما قاموا باضطهاد اليهود والمسلمين وعملوا بكل طاقتهم على إكراههم على التنصر أو استرقاقهم أو قتلهم أو طردهم من البلاد بعد سلب أموالهم أن رفضوا التنصر .

وكان من أولى مهام محاكم التفتيش البحث عن المتظاهرين بالتنصر ، بعد إكراههم عليه ، ويبطنون اليهودية أو الإسلام ، بغية إحراقهم واعدامهم ومصادرة أموالهم .

فلم تعرف المسيحية الأوروبية الا التنصير أو الإبادة خاصة بالنسبة للمسلمين . ويؤكد لك هذا المعنى عدم وجود أى عائلة مسلمة فى صقلية أو اسبانيا رغم أن المسلمين استوطنوها لقرون طويلة .

بل لا توجد عندهم مقابر للمسلمين ؟
والمسيحيون اعتبروا كل من اليهود والمسلمين كفرة ومن ثم فإن إبادتهم ترضى المسيح .

اما الإسلام فقد اعتبر أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يتبعون ديناً واحداً وان اختلفت شرائعه بين اليهودية والمسيحية والإسلام .

— ومن هذا المنطلق تألف الاسلام مع اتباع العقائد السماوية الاخرى باعتبارهم اهل كتاب منزل .

— ولم يكتف الاسلام باقرار الحريات الدينية لاتباع الاديان السماوية ، بل انه نهى عن فتنهم عن دينهم .
وقد نهى الرسول ﷺ عن فتنة اهل الكتاب عن دينهم كما استشعر عمر بن الخطاب الندم حينما طلب شفاعة من عجز ان تدين بالاسلام واستغفر ربه وهو يتلو (لا اكراه في الدين) .

— وكانت الحروب اهل الكتاب ، وهى حروب سياسية كما سبق البيان ، تنتهى بالجزية وليس بالاكراه على دخول الدين كما فعل اتباع المسيحية الاوروبية .

— وجاء في كتاب خالد بن الوليد لاهل الحيرة من النصارى قوله وايماء شيخ ضعيف عن العمل او اصابته آفة من الافات او كان غنيا فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم .

— وذكر أبو يوسف في كتاب الخراج : ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا نفقة وكذلك الاعمى والمترهبون والذين فى الديارات اذا كان لهم يسار ، اخذ منهم وان كانوا مساكين يتصدق عليهم اهل اليسار منهم ، لم يؤخذ منهم .

— والجزية مقابل مادي بسيط يؤخذ من الرجال بين العشرين والخمسين من غير المسلمين فلا يثار الا عند الحروب وتغلب المسلمين على غيرهم — فيؤخذ هذا القدر من المال كبديل نقدي عن عدم الاشتراك فى جيوش الدفاع الاسلامية اما اذا اشترك هؤلاء فى الجيوش وحاربوا عن اوطانهم كما هو يحدث الان ، فلا جزية ، انما الجميع مواطنون يتمتعون بكافة الحقوق ويؤدون كافة الالتزامات المفروضة على المسلمين وغيرهم بدون أى تفرقة .

واليك ما قاله صاحب المنار عن موضوع الجزية :

(حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون) هذه غاية للأمر بقتال اهل الكتاب ينهى بها اذا كان الغلب لنا ، أى قاتلوا من ذكر عندما يقتضى وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم ، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد امتكم وسلامتكم كما فعل الروم ، فكان سببا لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما . فالقيد الأول لهم ، وهو أن تكون صادرة (عن يد) أى قدرة وسعة ، فلا يظلمون ويرهقون . والقيد الثانى لكم ، وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم اقرب بها إلى هداية انبيائهم منهم . فان اسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وان لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل ، ولم يكونوا حائلا دونها فى دار الإسلام . والقتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولى بان ينتهى باعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وعن حريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، وبمعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وارهاقهم بتكليفهم بما لا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون اهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله .

والجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، جمعها جزى كسدره وسدر ، واليد : السعة والملك أو القدرة والتمكن ، والصغار : (بالفتح) والصغر (كعنب) وهو ضد الكبر ، ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية والمراد به هذا الخضوع لاحكام الإسلام وسيادته الذى تصغر به انفسهم لديهم بفقدهم الملك ، وعجزهم عن مقاومة الحكم ، قال الراغب : الصاغر الراضى بالمنزلة الدنية وقال الإمام الشافعى رحمة الله فى الأم : وسمعت عددا من أهل العلم يقولون : الصغار أن يجرى عليهم حكم الإسلام . ومن المفسرين من قال فى هذه الآية اقوالا ياباها عدل الإسلام ورحمته .

وقد حقق شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى الهندى (رحمه الله) فى رسالة له أن لفظ الجزية معرب واصله فارسى (كزيت) وأن معناها الخراج الذى يستعان به على الحرب .

وكان أول من سن الجزية فيما علمنا كسرى انوشروان وهو الذي رتب اصولها وجعلها طبقات قال الإمام العلامة المحدث ابو جعفر محمد بن جرير الطبري يذكر ما فعله كسرى في أمر الخراج والجزية : والزموا الناس ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والمرازية والكتاب ومن كان في خدمة الملك ، وصيروها طبقات : اثني عشر درهماً ، وثمانية ، وستة ، والابعة ، بقدر اثار الرجل أو اقلاله ، ولم يلزموا الجزية من كان له من السن دون العشرين وفوق الخمسين . ثم قال (وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس) وقال المؤرخ الشهير ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري ، وهو اقدم زمانا من الطبري في كتابه الأخبار الطوال في ذكرى كسرى انوشروان (ووظف الجزية على اربع طبقات ، استقطها عن اهل البيوتات والمرازية والاساورة والكتاب ومن كان في خدمة الملك ، ولم يلزم احدا لم تأت له عشرون سنة أو جاوز لخمسين) . ومن وقف على هذه النصوص يظهر له أن الجزية مأثورة من آل كسرى وان الشريعة الإسلامية ليست باول واضع لها ، وان كسرى رفع الجزية عن الجند والمقاتلة وأن عمر بن الخطاب اقتدى بهذه الوضائع .

وتفسير فرض الجزية عند كسرى انه يجب على كل فرد من افراد الملة المدافعة عن نفسه وماله ، فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء ، وهؤلاء اهل الجند والمقاتلة واما من كان يشغله امر العمارة وتدبير الحرث عن المخاطرة بالنفس فيحق عليه أن يؤدي شيئا معلوما في كل سنة يصرف في وجوده حمايته والدفاع عنه . وهذا هو المعنى بالجزية ، فانها تؤخذ من اهل العمارة وتعطى للمقاتلة والجند الذين نصبوا انفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلامة لكافة العباد .

ومن ذلك الجهاد والقتال المقصود بهما الذب عن حمى الإسلام والدفع عن بيضة الملك وازاحة الشر وبسط الأمن واستتباب الراحة ، فجعل الجهاد فرضا محتوما على كل احد ممن دخل في الإسلام ، اما كفاية وهذه اذا لم يكن التغير عاما ، واما عينا اذا هاجم العدو البلد وعم النفير ، قال في الهداية : الجهاد فرض على الكفاية اذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقيين ، فان لم يقم به أحد أثم جميع الناس بتركه ، الا أن يكون النفير عاما فحينئذ يصير من فوض الأعيان .

فالمسلم لا يخلو من إحدى حالتين اما مرتزقة ، وهو من دخل في المعسكر ونصب للقتال نفسه ، أو متطوع ، وهو من لم يأخذ نصيبه من الجهاد ، ولكن اذا جاءت الطامة ووقع النفير لا يمكنه الاعتزال عن القتال والتنحي عنه ، بل عليه أن يدخل فيما دخل المسلمون طوعا أو كرها .

واذا كان من المسلم الثابت أن المرتزق والمتطوع سيان في الحقوق الكلية التي تمنح للعكسر ، كان من الواضح أن يعفى المسلمون كلهم من ضريبة الجزية أما أهل الذمة فما كان يحق للإسلام أن يجبرهم على مباشرتهم للقتال في حال من الأحوال ، بل الأمر بيدهم ، رضوا بالقتال عن انفسهم واموالهم عفوا من الجزية ، وان ابوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يساحوا بشيء من المال وهى الجزية .

ومعنى هذا كله أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين الا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم ، وأن الذميين لو دخلوا في الجند أو تكلفوا امر الدفاع لعفوا عن الجزية . . . واليك بعض الأمثلة المؤيدة لهذا :

١ - ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات واوغل فيها وهذا نصه : (هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : إني عاهدتكم على الجزية والمتعة فلك الذمة والمتعة وما منعناكم (اى حينناكم) فلنا الجزية والافلا ؟ كتب سنة اثنتى عشرة في صفر .

٢ - ما كتب نواب العراق لأهل الذمة وهاك نصه : (براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التى صالحهم عليها خالد والمسلمون ، لكم يد على من ينزل صلح خالد ما اقررتكم بالجزية وكنتم ، امانكم امان ، وصلحكم صلح ونحن لكم على الوفاء) .

٣ - ما كتب أهل ذمة العراق لأمرء المسلمين وهذا نصه : (انا قد ادينا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا واميرهم البغى من المسلمين وغيرهم) .

٤ - المقالة التى كانت بين المسلمين وبين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الإسلام ، وكان هذا فى سنة اربع عشرة فى عهد عمر بن

الخطاب ، وكان من جملة كلام نعمان الذى كان رئيس الوفد : (وان اتقيتمونا
بالجزء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم) .

٥ - ومنها المقولة التى كانت بين محصن وبين رستم قائد الفرس ، وحذيفة هو
الذى ارسله سعد بن ابى وقاص وافدا على رستم فى سنة اربع عشرة فى عهد عمر بن
الخطاب ، وكان فى جملة كلامه : (او الجزاء ونمنعكم ان احتجتم إلى ذلك)
فانظر إلى هذه الروايات الموثوق بها ، وكيف قارونوا بها بين الجزية والمتعة .

وقد عرض صاحب المنار الكثير من هذه الأدلة التاريخية فمن شاء التوسع
فليرجع اليها . . . » .

وفى العصر الحديث ، أصبحت الجزية فى ذمة التاريخ حيث يشارك جميع
المواطنين على اختلاف دياناتهم فى الدفاع عن بلادهم .

وقبل الفتوحات الإسلامية عانت شعوب دولتى الفرس والروم الكثير من
الاضطهادات .

وفى كتاب (فتح مصر - من تأليف بتلر) نجد صورة واضحة لاضطهاد الدولة
البيزنطية فى عهد (هرقل) اذ كانت على المذهب الملكانى - اضطهاد هذه الدولة
للقبط فى مصر ، لأنهم كانوا على مذهب مخالف وهو اليعقوبى - نجد ذلك - ولا سيما
فى الفصل الذى جعل المؤلف عنوانه : (الاضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس)
(وقيرس كان الحاكم البيزنطى العام على مصر) وكان البيزنطيون يضطهدون ايضا
أهل سورية ، لأنهم كانوا على نفس مذهب اهل مصر : أى يعاقبة .

قال (ارنولد) - بعد أن أشار إلى الخلاف الذى كان موجودا بين الطوائف
المسيحية ، من ملكانية ويعقوبية وغيرهما - : (والواقع أن الشعور العام الذى أثاره
هذا الامبراطور (أى هرقل) ، قد بلغ من المرارة مبلغا ، يبرر الاعتقاد بأنه حتى
السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية ، الذين كانوا يقيمون فى
البلاد التى فتحت فى عهد هذا الإمبراطور ، هم الذين رحبوا بالعرب . . ومن أجل
هذا استقبلوا بالرضا - بل بالحماسة - هؤلاء السادة الجدد ، الذين وعدوهم
بالتسامح الدينى ، وظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى ، واستقلالهم
القومى ، وقد استطاع ميخائيل الأكبر - بطريق انطاكية اليعقوبى - أن يجذب فيما كتبه

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ما قرره اخوانه فى الدين ، وأن يرى اصبح الله فى الفتوحات العربىة ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقىة الحكم الإسلامى خمسة قرون ، وقال : اما ولايات الدولة البيزنطىة التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم فقد وجدوا انها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثرىة ، ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح ، الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع من هذه العهود التى اعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية ارواحهم وممتلكاتهم واطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الإذعان ودفع الجزىة .

ثم قال : (وقد فرضت الجزىة كما ذكرنا ، على القادرين من الذكور ، مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها ، لو كانوا مسلمين . ومن الواضح أن أية جماعة مسيحية كانت كانت تعفى من اداء هذه الضريبة ، اذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى) .

وقال : (لكن هذه الجزىة كانت من البساطة ، بحيث لم تكن تثقل كاهلهم) ودلل على ذلك بقوله — (كان من هؤلاء الذين يتحملون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزىة ، الصدقات الشرعىة ، وهى الزكاة التى كانت تفرض سنويا على معظم انواع الممتلكات المنقولة والعقارىة) .

وكذلك قرر (جيون) حقيقة ترحيب القبط بالعرب ، وقال : إن العرب استقبلوا فى مصر كالمُنقذين للكنيسة اليعقوبىة ، وفى اثناء حصار (منف) عقدت معاهدة سرىة نافذة : بين جيش انتصر وشعب كان من العبيد ، وبوثيقة الضمان هذه حطم طغيان الملكانيين الكنسى والمدنى) .

ثم قال : لقد اتبع المسلمون سياسة التسامح مع الأمم المغلوبة ونجحت سياستهم وتركوا للناس حرية الضمير والعبادة) .

واثبت بتلر شهادة لمطران نظورى فى الشام سجلها بعد الاستيلاء على دمشق بخمسة عشر عاما — قال : (وهؤلاء العرب . . . لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ، ويجلون قساوستنا ، ويهبون الهبات لكنائسنا) .

وبين الأسباب التي عددها (فيلب حتى) ليعلل بها تيسير فتوح العرب السبب الذي عبر عنه بقوله : (ولنذكر أن الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة) كانت اقل مما كان يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة . ولقد انفتح امام الأمم المغلوبة باب الحرية : فصارط يمارسون عقائد اديانهم دون ازعاج) .

وتكلم جورجى زيدان عن الجزية، من حيث ثقلها أو خفتها ، فقال : (الجزية ليست من مستحدثات الإسلام) وبعد أن بين أن اليونان فرضوها من قبل قال (والرومان وضعوا الجزية على الأمم التي اخضعوها وكانت اكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا فرنسا ، وضعوا على كل واحد من اهلها جزية ، يختلف مقدارها ما بين تسعة جنيهاً وخمسة عشر جنيهاً في السنة ، اونحو سبعة اضعاف جزية المسلمين) .

وكان مما اوصى به (عمر) عند وفاته ، أن قال : (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً : أن يوفى عهدهم وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم) .

وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجُه يوم القيامة) وكان عمر يقول : (لا تكلفوهم مالا يطيقون) . فأننى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تعذبوا الناس فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة)

ومما رواه ابو يوسف ، أن عمر مر على شيخ يهودى يسأل ، فذهب إلى منزله فاعطاه ، ثم أمر خازن بيت المال أن يجرى عليه من الصدقة ، ووضع عنه الجزية) .

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون وسار غالبية الحكام المسلمين من بعدهم الا قلة خرجت عن الدين فاضطهدت أهل الكتاب وغيرهم لفترات قصيرة لا حساب لها في عمر التاريخ .

وعلى اية حال فان هذه القلة تعد مخالفة لتعاليم الإسلام ، فوزرها على نفسها وليس على الدين .

ولو سمحنا لانفسنا بعقد مقارنة صحيحة لمعاملة كل من بيزنطة لرعاياها في الشام وفلسطين ومصر ومعاملة العرب لهم بعد الفتوح الكبرى لادرکنا حجم العدالة والتسامح العربی أمام ذلك الاضطهاد الديني العام الذي تعرضوا له من قبل بيزنطة ، لهذا قوبل العرب بالمساعدة في تلك الأمصار التي فتحوها فضلاً عن العطف من قبل السكان المغلوبين ، ورد العرب على ذلك بأن عاملوا رعاياهم الخاضعين الجدد بكثير من التسامح . وهكذا في الشام ومصر وفلسطين اقام الغالبون والمغلوبون علاقات سليمة استمرت فترة طويلة من الزمن . وفي ظل السيادة العربية منح الحكام العرب السكان المسيحيين في الشام وفلسطين ومصر امتيازات ثابتة ، وظلت بطريکیات انطاكية والإسكندرية في ايدي المسيحيين كذلك ظلت المدارس السريانية مفتوحة في العصر الأموي كما كانت من قبل ، ولم يكن الخلفاء يتدخلون في شئونهم الا عندما يحتدم النزاع الديني بينهم فيلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم .

وتروى الروایات الكثير عن ملامح علاقات العرب المسلمين برعاياهم ، فحين فتح العرب دمشق مثلاً ، دخل أبو عبيدة بن الجراح بالأمان من غرب المدينة ودخل خالد بن الوليد بالسيف من شرقها . فكانت دمشق نصفين والكنيسة كذلك . فاتخذوا منها النصف الشرقي المفتوح عفوة مسجدا يصلون فيه ويصلي النصارى في النصف الآخر . وكان المسلمون يتأذون لمجاورة النصارى لهم في مكان تعبدهم ، وكرهوا قرع النواقيس ، ويروى العمري أن الوليد لجأ إلى حيلة بارعة ليلفت النظر إلى مدى الأذى الذي شعر به المسلمون فيقول : (. . . أعطى الوليد رجلاً ديتة حتى أتى القسطنطينية ودخل في زى النصارى كنيسة العظمى يوم الأحد . والمملك فيها فمن دونه ، فلبث حتى رأى أن جمعهم قد استكمل ثم قام فأذن . فأخذ وأحضر لدى المملك وقد جلس إلى جانبه البطريق ، . . . فقال له المملك : من أنت ؟ وما حملك على ما صنعت ؟ فقال : أما أنا فرجل من المسلمين من أهل دمشق ، وأما ما حلمنى على ما صنعت ، فانشدك الله ايها المملك هل ساءك ما فعلت وكرهته ام لا ؟ فقال : نعم ، قال : ونحن في معبد في شطره النصارى نسمع نواقيسهم ونستاء بمجاورتهم ، فاراد امير المؤمنين أن يعرفك أننا نستاء بذلك كما ساءكم ما فعلت ، فخلى عنه وكانوا قد هموا بقتله . ثم قال له : صالحونا على عوض ، فصولخوا عنه بنصف كنيسة مريم وكانت شطرين) .

. وهذا يبين أن الوليد بن عبد الملك ، الذى كان بإمكانه أن يستولى على كنيسة القديس يوحنا بدمشق عنوة ، فضل أن يتم ذلك فى إطار الاقتناع والافتناع وموافقة المسيحيين الذين ربما كانوا يعتبرون انفسهم حتى تلك اللحظة رعايا الإمبراطور .

اليس فى هذا التصرف تسامح دينى ما بعده تسامح ؟ .
ويشير فنلاى إلى التسامح الدينى فى العصر الأموى قائلا : (لقد تساهل معاوية مع المسيحيين وجدد بناء كنيسة الرها ، واستمر العرب بعد ذلك يوجهون بأفكار العدل التى قررها لهم الرسول بعناية وكانت معاملتهم لرعاياهم بعيدة عن أى ظلم دينى) .

وفى ظل الإدارة العربية استأنف المسيحيون واليهود مزاولة الأعمال التى طالما كسبوا بها عيشهم وبعض هذه الأعمال كان صنع الخمر والمتاجرة بها وممارسة بعض الألعاب التى هى من قبيل الميسر ، رغم أنها كانت جميعها محرمة فى الإسلام واستمرت حانات الخمر ودور المقامرة ، حيث كان لعب النرد ، وهو من احب ضروب اللهو ، فى ازدهارها . وكان الرهبان ارباب خبرة واسعة فى صناعة الخمر وجنى العسل وتعهده الأثمار والازهار . ويذكر العمرى انغماس بعض الخلفاء الأمويين فى مثل هذا اللهو غير البرىء مثل الوليد بن يزيد . ومن أمثلة تسامح الأمويين المعاملة الحسنة التى كان يلقاها شاعر البلاط الأموى الأخطل وكان الأخطل يدخل على معاوية والصليب يتدلى من عنقه .

ويقول الأستاذ متر (أن مما يميز المملكة الإسلامية عن اوربا النصرانية فى القرون الوسطى ، أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإسلام وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الإسلامية ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما اكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فاعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى . كان اليهودى أو النصرانى حرا أن يدين بدينه ولكنه إن أسلم ثم ارتد عوقب بالقتل – وفى المملكة البيزنطية كان عقاب من اسلم القتل) .

كان اليهود والنصارى منتشرين في المملكة الإسلامية ، وكانوا عددا كبيرا ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود عام ١٢٦٥ م أي نحو ٤٦٠ هـ (أن عدد اليهود في المملكة الإسلامية غير العرب كانوا ثلاثمئة ألف) وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفي جزيرة ابنى عمر والموصل وتمكيره وواسط وفي بغداد والحلة والكوفة والبصرة ، وفي كثير من بلاد فارس ، في همدان واصفهان وشيراز ، وكانوا في غزنة ، وسمرقند ، وكان في بلاد فارس بلدتان تسمى كل منهما (اليهودية) احدهما بجرجان ، والأخرى باصفهان ، وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب اليه قوم من المحدثين منهم ابو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودى .

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير في بعض الدول في هذا العصر . وكان المسلمون في أول امرهم لا يرضون باستخدامهم في شئون الدولة ، فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من الحيرة ، وكان نصرانيا ، فقيل له لو اتخذته كاتباً ، فقال : لقد اتخذت اذن بطانة من دون المؤمنين .

فعمر بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم في الأعمال ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فاستخدموا في الأعمال في عهد معاوية - وفي القرن الرابع الهجرى زاد سلطانهم فيقول المقدسى (وقلما ترى بالشام فقيها له بدعة أو مسلما له كتابة ، إلا بطبرية فانها مازالت تخرج الكتاب ، وانما الكتبة به وبمصر نصارى) . وفي القرن الثالث ولى في بعض الأحيان ديوان الجيش نصراني وكان المسلمون يقبلون يده ، قال الصابى في كتابه الوزراء : « إن على بن عيسى قال لابن الفرات : ما إتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا ، وجعلت انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره ؟ فقال ابن الفرات : ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته وقد كان الناصر لدين الله قلد الجيش اسرائيل النصراني كاتبه ، وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر ، فقال على بن عيسى : (ما فعلا صوابا) . . . فقال ابن الفرات : حسبنا الأسوة بهما ، وان أخطأت على زعمك .

وكان لعضد الدولة البويهى في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون ، وقد اذن له عضد الدولة في عمارة البيع والديرة واطلاق الأموال لفقراء النصارى .

وافتي عالم العراق الإمام ابو الحسن على بن حبيب البصرى رحمه الله إلى جواز تقليد أهل الذمة وزارة التنفيذ وعارضه في هذه الفتوى غيره .

واتسعت سلطة اليهود والنصارى أيام الفاطميين بمصر واشهرهم يعقوب بن كلس .

وقد ولى العزيز نزار ايضا عيسى بن نسطورس النصراني كاتبه ، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا .

وكان الخلفاء وهم في قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم في حكومتهم فكان منهم الأطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته في دينه يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين وكان قد بلغه أنه تفل على صورة السيدة العذراء فحده وسجنه . وفى أيام المعتمد بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بأنه سب النبى واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه أنه ظلم أحد أهل الذمة) .

والدول النصرانية كانت تلجأ إلى سماحة الإسلام وعدالته فقد ارسلت دولة المجر إلى السلطان أحمد الأول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم النمسا المسيحية) .

(ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة إياد (وكانوا نصارى) إلى بلاد الروم فكتب عمر إلى هرقل بردها . فاخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد بن عقبة فابى أن يقبل منهم الا الإسلام . فكتب اليه عمر : دعهم أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا احدا من الإسلام — ثم عزل الوليد عنهم لشدته .

وكان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب ، سريانيا ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر الروم حيث سباها المسلمون ووضعها امينا على المكتبة وخدم هارون الرشيد والأمين والمأمون وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل . وكان بنوها شلما لا يتناولون الأطعمة إلا بحضرته)

أما في الأندلس ، فقد تمتع المسيحيون بكافة الحقوق الاقتصادية والسياسية والدينية . . . وكان منهم الوزراء والأطباء ورجال الدولة وكبار التجار . . . كما لم يتدخل الحاكم في شعائرهم الدينية ولم يحاول أيّ منهم إجبارهم على الدخول في الإسلام .

ثم ، وبعد هزيمة المسلمين في الأندلس ، رد الحكام المسيحيون الجميل ، فأكرهوا المسلمين على التنصر .

ويقول ول ديورانت :

. . . وانا لندهش مما يرويه السياح الأوروبيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، (قساة بالطبيعة) ولكن طبيعيين وديعين . . . مهذبين اليقين ، (شغوفين بصفة عامة) وشكا فرانسس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان .

وما كانت القسوة تنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركي يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكثير من المدن التي استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التي استولى عليها المسيحيون . وعندما استولى إبراهيم على تبريز وبغداد عام ١٥٤٨ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانها ، كذلك عندما انتزع سليمان تبريز ثانية عام ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح . ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا بـأباحة السلب والنهب .

قال لوثر (يقال انه لم يكن ثمة حكومة زمنية افضل من حكومة الأتراك) . وفي مجال التسامح الديني كان سليمان أجراً وأكرم من انداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الديني أمر ضروري للقوة الوطنية ، ورخص سليمان للمسيحيين واليهود في ممارسة ديانتهم في حرية تامة . وقال الكاردينال بول (ان الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق ديانتهم ، ولهذا الذي لا يهاجم ديانتهم أن يفصح عن اية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن) .

وفي نوفمبر ١٥٦١ حين كانت اسكتلنده وإنجلترا والمانيا اللوثرية تعتبر الكثرة
جريمة ، كما كانت إيطاليا واسبانيا تعدان البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج
عن سجين مسيحي ، غير راغب تحويل أى فرد عن دينه بالقوة .

وجعل من امبراطوريته مأوى آمنا لليهود الفارين من محاكم التفتيش في اسبانيا
والبرتغال (١٧) .

وهكذا عومل المسيحيون في ظل الحكم الإسلامى ، ولم يكن هناك الزام
للمسلم بأن يدخلهم في الإسلام ، ولا بأن يبدهم ، ومن هنا قامت شهرة الإسلام
بوصفه دين تسامح – ويؤكد ارنولد ذلك التسامح الإسلامى وأنه في عدد من
المناسبات فر اليهود المضطهدون إلى الأراضى الإسلامية ويضرب مثلا لما حدث سنة
١٠٩/٧٢٤ هـ حين أجبر ليو الثالث اليهود والمسيحيين الهراطقة على الدخول في
عقيدته المسيحية .

ويقول كورديه (لم توجد ديانه من الديانات الكبرى لا الزرادشتية ولا البوذية
ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عضد امتدت في ثلاثة
قرون من البرانس إلى هملايا ومن قلب آسيا إلى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة
هذا الانتشار سوى ضعف مملكتى بيزنطة وفارس وحماسة العرب الفاتكة وفروسيتهن
الباهرة وسذاجة العقيدة التى نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه
الحضارة الإسلامية التى لمعت لمعانا شديدا « بينما كان الغرب هائما في
الظلمات » .

وفي العصر الحديث يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله :

«ومن أهم مظاهر المودة للمخالفين في العقيدة المصاهرة ، حيث اباح الإسلام
للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة
الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها
والذهاب إلى كنيسها أو بيعتها ولم يفرق الدين في حقوق الزوجة المسلمة
والزوجة الكتابية . . . وهكذا بالمصاهرة يصبح للإنسان خال مسيحي أو يهودى وعم
مسلم . ويصبح الجميع أقارب متآلفين .

وفي سنة ١٨٨٨ م ، وكان الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) لا يزال في المنفى ببيروت ، ثارت بمصر مناقشات صحفية حامية حول تعصب (الأقباط) ضد المسلمين ، وكان ذلك بمناسبة استقالة أحد موظفي وزارة الحقانية (العدل) شفيق بك منصور — بسبب ما قيل من اضطهاد وكيل الحقانية ، بطرس غالى له والذي اتهم بالتعصب لأبناء دينه ضد الموظفين المسلمين ، فكتب الأستاذ الإمام مقالا في مجلة (ثمرات الفنون) البيروتية حذر فيه من الإنسياق في الطريق الطائفي غير القومي ، ولفت الأنظار إلى وجوب التفرقة بين من هو وطني ومن هو اجنبي ، ففي حالة الأجانب من الممكن أن نأخذ الكل بذنب البعض لجواز أن يكون ذلك موقفا جماعيا لهذه الفئة من الأجانب أما بالنسبة لطائفة هي جزء من الوطن والمواطنين فان اخطاء البعض منها لا تنسحب على هذه الطائفة كلها بل المسئولية فردية ، بصرف النظر عن عقيدة المخطيء الدينية ، لأن الرباط القومي والجامعة الوطنية تشمل الجميع كتب الرجل يقول : (. ان التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال : جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره اكثر من نفعه ، إن كان له نفع ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، تعللا بأن رجلا أو رجالا منها قد استهدفوا لذلك . . . فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحيط بشأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على أوطانهم نعم إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب عن البلاد ، متغلبين عليها بقوة قاهرة أو حيلة غادرة ، وكانت اعمال إحداها مبنية على اصول سنّها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كانه صادر عن الجملة ، كما في اعمال الإنجليز في مصر ، جاز للنقاد أن يأخذ الجماعة باثم الواحد منهم ، ويستصرخ ابناء الوطن جميعا لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه) .

ولم يكن موقف الأستاذ الإمام ، هذا ، من قضية الوحدة الوطنية والقومية لأبناء الأمة ، على اختلاف شرائعهم الدينية ، لم يكن الموقف مجرد (موقف سياسى) تمليه ظروف (سياسة) طارئة أو دائمة ، وانما كان موقفا (فكريا — اسلاميا) مؤسسا على ما ذهب اليه الإسلام من وحدة الدين الإلهي ، المقتضية اخاء اتباع الشرائع

السماوية الذين اقتضت حكمة الله ومشيتته التكوينية أن يظلوا انما متعددة ، إذ لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين . والاختلاف والتنوع في الشرائع ، بين أمم الرسالات السماوية ، هي ارادة كونية لله ، وعندما ينظر اليه في الإطار الذى عينه الإسلام وهو : (وحدة الدين مع تعدد الشرائع ، فان الوحدة القومية والوطنية للأمة تصبح - كما اصبحت عند الأستاذ الامام مؤسسة على الدين وليست مجرد موقف سياسى ، يقصر الالتزام به . . . وفقا للمقتضيات أو يطول . . . كما يصبح الطائفية والشقاق ردة عن الدين الصحيح وليس مجرد ضيق افق في عالم السياسة والسياسيين .

لقد سن الإسلام سنة الوحدة والألفة والمودة بين المسلمين ، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وسن الإسلام سنة الوحدة والألفة والمودة بين المسلمين وأهل الكتاب وذلك من واقع انهم جميعا يدينون بدين واحد ، وان اختلفت شرائعه الثلاث بين اليهودية والمسيحية والإسلام - بترتيب النزول .

وحدة الدين . . . ونجاة ابناء الشرائع المختلفة إن هم تدينوا باصوله الواحدة التى هي : الألوهية الواحدة والإيمان بالبعث والجزاء والعمل الصالح .

وفي هذا يقول الأستاذ الإمام وهو يعرض لتفسير آيات القرآن : (لیسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وما يفعلوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) (آل عمران ١١٣ - ١١٥) .

وهذه الآية من العدل الإلهى في بيان حقيقة الواقع . . . وهى دليل على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه باذعان وعمل فيه باخلاص فامر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من الصالحين .

وفي هذا العدل قطع لاحتجاج اهل الكتاب الذين يعرفون من انفسهم الإيمان والاخلاص في العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه استمالة لهم ، وثناء

عن التفرقة بين الأمم والملل التي لم يكن يعترف فيها احد الفريقين بفضيلة ولا مزية للآخر ، كأنه بمجرد مخالفته له في بعض الأشياء وان كان معذورا - تتبدل حاله سيئات .

وعن نفى صفة (المشركين) عن أهل الكتاب يقول الأستاذ الإمام (أن الفرق بيننا وبين أهل الكتاب يشبه الفرق بين الموحدين المخلصين العاملين بالكتاب والسنة وبين المبتدعة الذين انحرفوا عنها . . . فكيف يكون أهل الكتاب كالمشركين في حكمه تعالى ؟

لقد ارشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامي كان اوسع نظرا في الأمور ، واطهر قلبا من التعصب الجاهلي ، واقرب إلى الألفة مع ابناء الملل المختلفة واسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه . . . إن القرآن ، وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه انهم منهم ، لا يختلفون عنهم الا في بعض احكام قليلة . ولكن عرض على الدين زوائد ادخلها عليه اللابسون ثياب احبائه فأفسدوا قلوب اهليه) .

ولكن هل نبذ أهل الكتاب الكتب السماوية
قال تعالى (ولما جاءَهُمْ رسولٌ من عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ من الذين أُوتُوا الكتابَ كِتَابَ الله وراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) - (البقرة ١٠١) .

وفي تفسير هذه الآية يقول الأستاذ الإمام (. . . ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم انهم طرحوه برمته وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله ، وانما المراد انهم طرحوا جزءا منه ، وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم اياه وانكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره . .) .

والمودة والرحمة هما طبيعة العلاقة بين المسلمين والكتابيين ، وهما ايضا طبيعة العلاقة بين المسلمين والمسلمين أما الطائفية والشقاق الديني فمصدرهما السياسة والملك ورؤساء الأديان . (إن ما نراه من التباين بين المسلمين وأهل الكتاب الآن

فسببه سياسة الملوك والرؤساء ولو اقمنا الكتاب واقاموه لتقاربنا ورجعنا جميعا إلى الأصل الذى ارشدنا اليه القرآن العزيز) .

هكذا تأسست نظرة الأستاذ الأمام إلى الوحدة القومية والوطنية على اساس من موقف الإسلام المنحاز إلى مبدأ (وحدة الدين . . . وتعدد الشرائع) ومن ثم الإخاء والوحدة بين أبناء الأمة والوطن رغم تعدد الشرائع الدينية . . . فهم متحدون في القومية والوطن والحضارة . . . وايضا في الدين)

ورغم كل ما سبق ، فلا زال في العصر الحديث من يتصدى لاىذاء أهل الكتاب وغيرهم باعلان تكفيرهم في وسائل الإعلام المختلفة أو الطعن في عقائدهم مما يدمى قلوب اتباعها ويباعد بينهم وبين المسلمين ، بل ويحضهم على كراهيتهم وفي ذلك ما فيه من انقسامات وصراعات دفينه في الانفس وغلbian في الصدور مما يباعد بين (الجميع) وبين الوحدة على طريق التعمير والرخاء (للجميع) .

الا ليتهم يكفون عن اىذاء الناس في حرياتهم الفطرية والتي اقرها الإسلام .

الا ليتهم لايتسيبون في فرقة المجتمع عن مسيرته .

وفي نهاية رحلتنا مع الصراعات الدينية فانه من الواجب عرض النقاط التالية للتأمل وللتفكر ولمراجعة النفس :

شجب القرآن الكريم الفرقة وانقسام الناس إلى شيع وأحزاب متصارعة ، كما نظر الاسلام الى هذا الوضع على أنه نقمة ومن أكبر الاضرار التي تصيب المجتمع :

قال تعالى :

«ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شىء» (الأنعام - ١٥٩)

«ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا» (القصص - ٤)

«أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» (الانعام - ٦٥)

وعلى العكس من ذلك ، فقد اعتبر القرآن الكريم الوحدة والتآلف بين الناس نعمه لا تعاد لها نعمة أخرى ، قال تعالى :

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم

أعداء فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (آل عمران - ١٠٣)

والوحدة والتآلف بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم ليست مطلوبة لذاتها فحسب ، بل لما تحقّقه من الوفاء بحاجات الناس في الدنيا وفي الآخرة .
و« لو » تحقّقت الوحدة بين المسلمين وبينهم وبين غيرهم من أبناء الوطن الواحد لشارك الجميع ، كل بما عنده من فكر و مال و جهد ، في محو الأمية بين الناس وفي الارتفاع بهم ثقافيا وماديا ليرفعوا عن كاهلهم وزر الفقر والتخلف عن ركب الحضارة الغربية ، ثم ليصبح المسلمون « خير أمة أخرجت للناس » فيفوزوا برضاء الحق تبارك وتعالى في الدنيا وفي الآخرة .

ولكن هل ينجح المسلمون في تحقيق الوحدة والتآلف بينهم وبين غيرهم من أتباع الشرائع والمذاهب المخالفة .
لقد رأينا كيف أن الاسلام يحض على الوحدة والتآلف ليس بين المسلمين فحسب بل بينهم وبين غيرهم من المخالفين لهم في العقيدة وذلك لدفع المضار وجلب المنافع .

وهل يوجد مضار أكبر من أن يقع العالم الاسلامي في ذيل قائمة الدول الفقيرة المتخلفة ؟

وهل يوجد نفع أكبر من أن يرتفع العالم الاسلامي إلى مصاف الدول المتحضرة .

ان الاسلام يهدف إلى تحقيق وحدة شاملة فقوة حضارية واقتصادية وعسكرية نفوق ما عداها ، و« لو » ثم نبذ الصراعات المذهبية الدينية بل والسياسية غير النبائة وتكثف الجهد والفكر لإعادة بناء الانسان ثقافيا وحضاريا لبزغ فجر جديد للحضارة الاسلامية .

ويقول على بن ابي طالب رضى الله عنه: « لا يسأل الجاهل لم لم يعلموا ولكن يسأل العلماء لم لم يعلموا » .

وقال تعالى :

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خوفهم أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «
(النور - ٥٥)

وهذا وعد الله للمؤمنين (العاملين للصالحات) بتمكينهم واستخلاصهم في
الأرض .
ومن أصدق من الله وعدا .

المؤلف

حافظ عثمان

وكيل أول وزارة الأعلام (السابق)

له مؤلفات

- في بعث الأمة العربية .
- حرية الرأي عند العرب .
- مؤلفات لأعمال درامية بالتلفزيون .
- حصل على نوط الإمتياز من الدرجة الأولى
- عضو اتحاد الكتاب .

المراجع

- ول ديورانت : قصة الحضارة - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
برستيد : فجر الضمير - مكتبة النهضة المصرية .
نخبة من العلماء : تاريخ الحضارة المصرية - مكتبة النهضة المصرية .
إدوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - هيئة الكتاب .
تقى الدين أبي العباس المقرئ: المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار - مكتبة الثقافة الدينية .
د . سالم عبد العزيز فرج :
د . جوزيف نسيم يوسف : العرقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية - هيئة الكتاب - إسكندرية .
الأمير شبيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
محمد حسنين هيكل : حياة محمد - دار المعارف .
د . حسين فوزي : سندباد مصرى - دار المعارف .
أحمد أمين : فجر الإسلام + ضحى الإسلام + ظهر الإسلام + يوم الإسلام - مكتبة النهضة المصرية .
محمد بن علي محمد المعروف (بإبن العمراني) : الأنبياء في تاريخ الخلفاء - نشریات فی المعهد الهولندی للآثار المصرية .
أحمد شلبي بن عبد الغنى الخلفى أوضح الإشارة فيمن تولى القاهرة من الوزراء والباشوات - مكتبة الخانجي بمصر .
الشيخ محمد عبده : الإسلام دين العلم والمدنية .

- موريس دوب : دراسات في تطور الرأسمالية - دار الكاتب العربي
يوهان هويزنجا : إضمحلال العصور الوسطى - الهيئة العامة
للكتاب .
د . توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسف - مكتبة الآداب -
إسكندرية .
ح . د . هـ . ول : المدخل إلى التاريخ الإقتصادي - هيئة الكتاب .
مجموعة من العلماء
الإقتصاديين الأمريكيين
م : الإقتصاد الأمريكي - دار المعارف .
د . ريتشارد ميشيل : الإخوان المسلمون - مكتبة مدبولي
الشيخ رشيد رضا : تفسير المنار - هيئة الكتاب .
محمد عماره : تجديد الفكر الإسلامي - محمد عبده ومدرسته .

الفهرس

مقدمة	٣
الباب الأول	
صراع أتباع العقائد الأولى مع أتباع الأديان السماوية	٧
الفصل الأول : صراعات أتباع العقائد الأولى مع اليهود	٩
الفصل الثانى : صراعات أتباع العقائد الأولى مع المسيحيين	١٩
الفصل الثالث : صراعات أتباع العقائد الأولى مع المسلمين	٣١
الباب الثانى	
صراعات أتباع الأديان السماوية مع بعضها	٣٩
الفصل الأول : صراعات أتباع اليهودية وأتباع المسيحية	٤٣
الفصل الثانى : صراع أتباع اليهودية والإسلام	٥٧
الفصل الثالث : صراع أتباع المسيحية والإسلام	٦٧
الباب الثالث	
الصراعات الداخلية بين أتباع الأديان الثلاثة	٩٥
الفصل الأول : الصراعات اليهودية الداخلية	٩٧
الفصل الثانى : الصراعات المسيحية الداخلية	١٠٥
الفصل الثالث : الصراعات الإسلامية الداخلية	١٤٧
الباب الرابع	
ثمرة الصراعات الدينية	١٧٩
الفصل الأول : أوربا فى ظل المسيحية - قبل الإصلاح الدينى	١٨١
الفصل الثانى : ثمرة الصراعات فى المسيحية بعد الإصلاح الدينى	١٩٧
الفصل الثالث : ثمرة الصراعات الإسلامية فى العصر الحديث	٢٠٧
الباب الخامس	
الإسلام والصراعات الدينية	٢٢٩
الفصل الأول : الإسلام والتآلف مع أتباع العقائد الأولى	٢٣٥
الفصل الثانى : الإسلام والتآلف مع أتباع المسيحية واليهودية	٢٤٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٣٣٦٦

I.S.B.N 977-01-37388-3

يفتتح هذا الكتاب في مسيرته في وادع
دسة تامة ، يمس فيها أولاً : الصراع بين أتباع
العصران القديمة الأولى مع أتباع الأديان
السموية ، وفي الأخير يتحدث عن الصراع بين
أتباع الأديان السماوية نفسها . وفيما بينها ، ثم
يخلص إلى بحث في الصراعات الداخلية بين
أتباع الأديان الثلاثة، ينتهي منها إلى ثمرة هذه
الصراعات الدينية وأثارها في الأديان الثلاثة ،
وامتدادها إلى العصر الحديث ، ويأتي الباب
الأخير متحدثاً عن الإسلام والصراعات الدينية
التي واجهها داعياً إلى مطمح كبير وهو أن
تنتهي هذه الصراعات التي شغلت البشرية في
عمرها المديد.